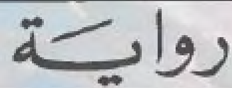
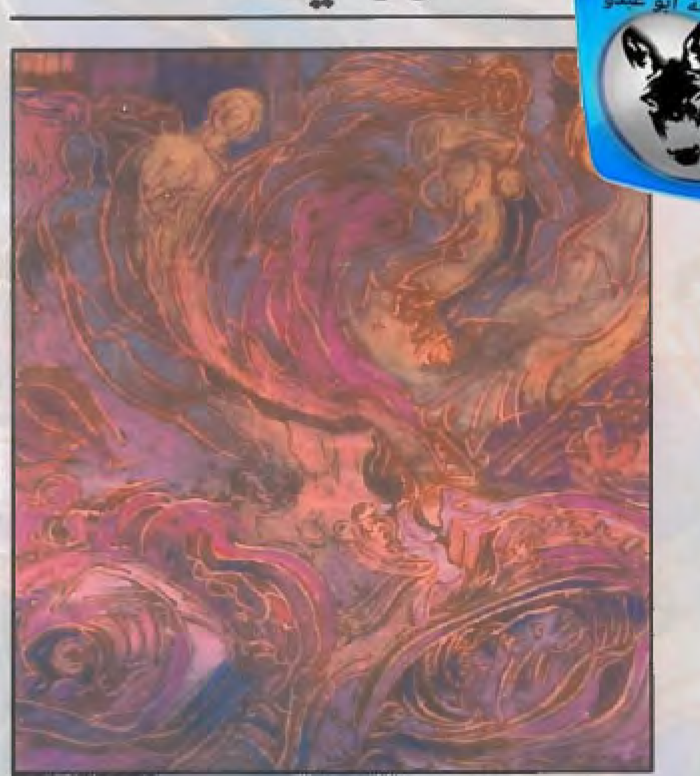
باولو كويلهو

الظَاهِر







ترجمة: خالد الجبيلي

5885

الظاهر

* باولو كويلهو
* الظاهر
* ترجمة: خالد الجبيلي

* الطبعة الأولى 2006
* موافقة وزارة الإعلام رقم 92048
* الناشـــــــر: ورد للطباعـــة والنشـــر والتوزيـــع
سوريـــة ـ دمشق ☎ 5141441
* الاستشارة الأدبية: حيدر حيدر
* الإشـــراف الفني: د. مجد حيدر
* التوزيـــــــع: دار ورد ☎ 5141441 ص.ب 30249

باولو كويلهو

الظاهر

ترجمة: خالد الجبيلي

العنوان الأصلي للكتاب

The Zahir

يا مريم التي حبلت بلا دنسٍ، صلّي
لأجلنا نحن الذين نلجأ إليك، آمين.



أي إنسان منكم لهُ مئةَ خروف،
وأضاع واحداً منها، ألا يترك التسعة
والتسعين في البرية ويذهب
لأجل الضال حتى يجدَه.

لوقا 4:15



إيثاكا

عندما تنطلق في رحلتك إلى إيثاكا،
ادعُ أن يكون الطريق طويلاً،
وأن يكون مليئاً بالمغامرات، مفعماً بالمعرفة.
وأن لا تصادف في طريقك الليستريين(*) والسيكلوبيين(**)،
والبوسييديين الغاضبين،
إن ظلت أفكارك متسامية،
وإن لامستِ المشاعرُ الرقيقة
روحَك وجسدك
لن تصادف الليستريين والسيكلوبيين،
والبوسييدين العنيفين،
إن لم تكن تحملهم في روحك،
إن لم يضعهم قلبك أمامك.

ادعُ أن يكون الطريق طويلاً،

(*) في الأساطير اليونانية قوم من العمالقة من أكلة لحوم البشر. م.
(**) في الأساطير اليونانية قوم من العمالقة توجد في جباههم عين واحدة. م.

وأن تكون صباحات الصيف كثيرة، وأنت
تدخل ببهجة ومتعة،
موانئ تراها لأول مرة.
توقّف في الأسواق الفينيقية،
واشترِ بضائع جميلة: صدفاً ومرجاناً، وكهرماناً وأبنوساً،
وعطوراً تثير الشهوة من كلّ لون ونوع.
اشترِ ما استطعت من العطور الحسّية؛
وزرْ العديدَ من المدن المصرية،
وتعلّم من الحكماء والعلماء.

وضعْ إيثاكا دائماً نصب عينيك،
واجعلْ بلوغها غايتك المطلقة.
لكن لا تستعجل في رحلتك،
ومن الأفضل أن تجعلها تدوم سنوات وسنوات؛
وأن ترسو في الجزيرة عندما تصبح هرماً،
غنياً بكلّ ما كسبته خلال رحلتك،
ولا تتوقّعْ أن تقدم لك إيثاكا الثروات.
لقد منحتكَ إيثاكا رحلة جميلة،
فلولاها لما شرعتَ في رحلتك.
لم يعد لديها شيء آخر تمنحك إياه،

وإن وجدتها فقيرة، فإيثاكا لم تخدعك،

فبعد أن أضحيتَ حكيماً،
وبعد أن أصبحت تتمتع بهذه التجربة المديدة،
لا بد أنك أصبحت تفهم ماذا تعني إيثاكا.

قسطنطين كافافي (1863 - 1933)



إهداء

فيما كنا نستقل السيارة، قلت لها إني أنهيت المسوّدة الأولى من كتابي. وعندما انطلقنا في ما بعد لنتسلق إحدى قمم جبال البيرينه، التي نعدّها كلانا مقدسة، وحيث أمضينا لحظات رائعة، سألتها إن كانت تريد أن تطّلع على موضوع الكتاب الرئيسي أو على عنوانه، فقالت إنها تريد، لكنها، احتراماً للعمل الذي أقوم به، لم تسألني عنه شيئاً حتى ذلك الحين، وكانت الفرحة تغمرها.

لذلك أخبرتها عنوان الكتاب وموضوعه الرئيسي. تابعنا سيرنا بصمت، وفي طريق عودتنا سمعنا صوت جلبة وضوضاء. كانت الريح تزداد هبوباً، وتتسلل من فوق الأشجار العارية نحونا، ليُظهر الجبل مرة أخرى سحره وجبروته.

وفجأة بدأت ندف الثلج تتساقط. توقّفت ورحت أتأمل تلك اللحظة: ندف الثلج المتساقطة، السماء الرمادية، الغابة، والمرأة الواقفة بجانبي. المرأة التي طالما وقفت إلى جانبي.

اعترتني الرغبة في أن أخبرها آنذاك، لكني قررت أن أتركها تكتشف ذلك بنفسها عندما تقرأ هذه الصفحات للمرة الأولى. أهديكِ هذا الكتاب، يا زوجتي، كريستينا.

المؤلف



وفق ما ذكره الكاتب خورخي لويس بورخيس، برزت فكرة «الظاهر» من التراث الإسلامي ويعتقد بأنها ظهرت خلال القرن الثامن عشر. وهي تعني باللغة العربية الشيء الظاهر، المرئي، الحاضر، الجليّ الذي لا يخفى على عين. وهو إما أن يكون شخصاً أو شيئاً. وما أن نتصل به، أو نصبح على تماس به، حتى يستحوذ علينا، ولا نعود نفكّر بشيء سواه. ويمكن اعتبار ذلك حالة قدسية، أو ضرباً من الجنون.

فوبورغ سان بيير

موسوعة معارف المميزين (1953)



أنا رجل حرّ



اسمها إستر. مراسلة حربية عادت لتوها من العراق بسبب الاحتلال الوشيك لذلك البلد. في الثلاثين من العمر، متزوجة، وليس لديها أطفال. وهو رجل غير معروف، ذو قسمات منغولية داكنة، ويتراوح عمره بين الثالثة والعشرين والخامسة والعشرين. وكانت آخر مرة شوهد فيها الاثنان معاً في أحد المقاهي في شارع دو فوبورغ سان هونور.

أبلغت الشرطة أنهما كانا قد التقيا قبل ذلك، لكن لا يعرف أحد عدد المرات التي التقيا فيها: إذ دأبت إستر على القول إن الرجل ـ الذي كان يخفي هويته الحقيقية باسم ميخائيل ـ كان شخصاً مهماً للغاية، لكنها لم توضح قط إن كان مهماً بالنسبة لعملها كصحافية، أم كامرأة.

شرعت الشرطة في إجراء تحقيق رسمي، وطرحت نظريات شتى ـ اختطاف، ابتزاز، اختطاف انتهى بجريمة قتل ـ ولم يكن ذلك مستبعداً، وذلك لأن عملها الذي كان يقتضي البحث عن معلومات جعلها على اتصال دائم بأشخاص ذوي صلات بخلايا إرهابية. واكتشفت الشرطة أن مبالغ مالية كانت قد سحبت من حسابها المصرفي خلال الأسابيع التي سبقت اختفاءها: ورأى القائمون على التحقيق أن هذه المبالغ قد تكون دفعات لقاء معلومات معينة. ولم

تأخذ إستر ثياباً غير تلك التي ترتديها، لكن ما يدعو إلى الغرابة أنه لم يُعثر على جواز سفرها في أي مكان.

والغريب أيضاً أنه شاب في ريعان الصبا، وليس له سجل جنائي في ملفات الشرطة، ولا يوجد أي أثر أو دليل يمكن أن يفضي إلى التعرف على هويته.

اسمها إستر، في الثلاثين من العمر، حائزة على جائزتين دوليتين في الصحافة، ومتزوجة.

إنها زوجتي.

على الفور أصبحتُ مشتبهاً فيه، وألقي القبض عليّ لأني رفضت أن أبوح بالمكان الذي كنت متواجداً فيه يوم اختفائها. لكن ضابط السجن فتح باب زنزانتي، وقال إني أصبحت حراً طليقاً.

لكن لماذا أطلقوا سراحي؟ لأنهم أصبحوا في هذا الزمن يعرفون كلّ شيء عن أي شخص مهما كان. فما أن تسأل عن أحد حتى تصبح المعلومات أمامك على الفور: أين تستخدم بطاقة الائتمان، أين تُمضي أوقاتك، مع من تنام. وفي حالتي كان الأمر أكثر سهولة: فقد تقدمت امرأة، صحافية أخرى، صديقة زوجتي، ومطلّقة ـ لذلك لم يكن يهمها إن افتضح أمرها بأنها نامت معي أم لا ـ وما أن سمعت بخبر احتجازي حتى تقدمت وشهدت لصالحي، وأثبتت بالدليل القاطع أني كنت معها في ليلة اختفاء إستر.

قال لي كبير المفتشين، الذي أعاد إليّ أغراضي وقدّم لي اعتذاراً، إن احتجازي بهذه السرعة كان قد تم استناداً لأحكام القانون، وإني لا أملك أسباباً تدعوني إلى لوم الدولة أو مقاضاتها. فقلت له لا توجد لديّ أدنى نية بالقيام بذلك، وإني أعرف تماماً أننا أصبحنا جميعنا موضع الشبهات بشكل دائم، وأضحينا تحت المراقبة مدة أربع وعشرين ساعة، حتى عندما لا نكون قد ارتكبنا أي جريمة.

فقال مردداً كلمات ضابط السجن: «إنك حرّ طليق».

سألته: «أليس من الممكن أن يكون قد حدث لزوجتي مكروه حقاً؟ فقد قالت لي ذات مرّة إنها ـ مع العلم أن لها شبكة واسعة من الاتصالات في عالم الجريمة الإرهابي السري ـ كانت تشعر بين الحين والآخر بأن أحداً يلاحقها».

غيّر المفتش الموضوع. ألححت، لكنه لم يقل شيئاً.

سألته إن كان بإمكانها أن تسافر بجواز سفرها؛ فقال بالطبع، فما دامت لم ترتكب أي جريمة يحق لها مغادرة البلد ودخوله بحرية.

«إذن من المحتمل أن تكون في فرنسا؟»

«هل تظن أنها هجرتك بسبب تلك المرأة التي نمت معها؟»

فأجبته أن هذا ليس من شأنك. صمت المفتش برهة وارتسمت على وجهه ملامح جدّية، وقال إنهم قبضوا عليّ كإجراء روتيني، مع أنه يشعر بالأسف الشديد لاختفاء زوجتي. فهو متزوّج، ومع أنه لا يحبّ كتبي (إذن فهو ليس جاهلاً كما كان يبدو ويعرف من أكون)، يستطيع أن يضع نفسه في مكاني ويتصوّر المحنة التي أكابدها.

سألته ماذا ينبغي لي أن أفعل بعد ذلك. أعطاني بطاقته، وطلب مني أن أتصل به إن سمعت شيئاً. كنت قد شاهدت هذا المشهد في العشرات من الأفلام، ولم أكن مقتنعاً، فالمفتشون دائماً يعرفون أكثر مما يقولون إنهم يعرفونه.

سألني إن كنت قد التقيت بالشخص الذي كان مع إستر في آخر مرّة شوهدت فيه على قيد الحياة. فقلت إني أعرف اسمه الحركي، لكني لا أعرفه شخصياً.

سألني إن كانت لدينا أية مشاكل في البيت. فقلت له إننا نعيش معاً منذ عشر سنوات، ولدينا ذات المشاكل التي تعتري معظم المتزوجين ـ لا أكثر من ذلك.

سأل بلطف إن كنا قد بحثنا مسألة الطلاق مؤخراً، أو إن كانت

زوجتي قد تحدثت عن هجري. فقلت له إننا لم نبحث حتى في إمكانية الطلاق، وكررت أننا «شأن جميع الأزواج» كانت تثور خلافات بيننا بين الحين والآخر.

ـ غالباً أم أحياناً فقط؟

قلت: أحياناً.

فسأل بمزيد من اللطف إن كان قد اعترتها شكوك بأني كنت على علاقة غرامية مع صديقتها. فقلت له كانت تلك المرة الأولى والأخيرة التي نمت فيها مع صديقتها. وأكدت له أنها لم تكن علاقة غرامية، فقد حدث ذلك لأنه لم يكن أمامنا شيء آخر نفعله. كان يوماً يدعو للضجر قليلاً، ولم يكن لدى أي منا ارتباطات ملحّة بعد الغداء، وأضفت أن لعبة الإغواء تضيف دائماً قليلاً من النكهة إلى الحياة، ولهذا السبب انتهى بنا الأمر في السرير.

«هل تنام مع شخص آخر فقط لأن اليوم يدعو للضجر قليلاً؟»

اعتبرت أن الحديث عن مثل هذه الأشياء ليس جزءاً من تحقيقاته، لكني كنت أحتاج إلى مساعدته، أو قد أحتاجها في المستقبل. فهناك تلك المؤسسة الخفية التي يطلق عليها «بنك ردّ الجميل»، الذي طالما اعتبرته مفيداً للغاية.

«نعم، أحياناً. لم يكن ثمة شيء مثير يمكننا أن نفعله. كانت المرأة تبحث عن إثارة، وكنت أبحث عن مغامرة، وهكذا كان. وفي اليوم التالي تصرّف كلّ منا وكأن شيئاً لم يحدث، وهكذا تستمر الحياة».

شكرني، ومدّ يده وقال إن الأشياء في عالمه لا تجري بهذا الشكل. فمن الطبيعي أن يعتري المرء السأم والملل، تماماً كما يمكن أن تعتريه الرغبة في أن ينام مع شخص آخر، لكن يجب أن يتحكم المرء بنفسه، وأن لا يتصرّف وفق ما تمليه عليه أهواؤه أو رغباته.

قال: «ربما كان الفنانون يتمتعون بحرية أكبر».

قلت له إني أعرف عالمه حق المعرفة، لكن ليست لديّ رغبة في أن أعقد مقارنة بين وجهات نظرنا المختلفة عن المجتمع والناس. لبثت صامتاً بانتظار خطوته التالية.

قال: «بمناسبة الحديث عن الحرية»، وقد شعر بشيء من الامتعاض لأن هذا الكاتب رفض أن يدخل في نقاش مع ضابط الشرطة ذاك، «الآن إنك حرّ طليق. أما الآن وبعد أن ألتقيت بك فسأقرأ كتبك. أعرف أني قلت لك إنها لم تعجبني، لكني في الحقيقة لم أقرأ أياً منها على الإطلاق».

لن تكون هذه هي المرة الأولى أو الأخيرة التي أسمع فيها هذه الكلمات. فعلى الأقل جعلتني هذه الحادثة أكسب قارئاً آخر. صافحته وغادرته.

أصبحت حراً الآن. فقد خرجت من السجن، واختفت زوجتي في ظروف غامضة، ولم يكن لديّ شيء محدد أقوم به، ولم تكن لديّ مشكلة في أن ألتقي بأشخاص جدد، فأنا غني ومشهور، وإذا كانت إستر قد هجرتني حقاً فسرعان ما سأجد امرأة تحل مكانها. لقد أصبحت حراً، مستقلاً.

لكن ما هي الحرية؟

لقد أمضيت جزءاً كبيراً من حياتي وأنا مستعبَد لشيء أو لآخر، لذلك كان عليّ أن أعرف معنى هذه الكلمة بدقة. فمنذ أن كنت طفلاً كنت أقاتل كي أجعل الحرية أثمن شيء في حياتي. فقد تشاجرت مع أبويّ اللذين أرادا أن أكون مهندساً، لا كاتباً. تشاجرت مع الصبية الآخرين في المدرسة الذين كانوا يتهكمون عليّ وجعلوني موضع نكاتهم الفظة والقاسية، وبعد أن تدفّق الكثير من الدم من أنفي ومن أنوفهم مرات عديدة كنت أعود إلى البيت وأخفي ندوبي عن أمي - لأن حلّ مشاكلي الشخصية كان من شأني أنا لا من شأنها هي -

استطعت أن أريهم أنه بإمكاني أن أتلقى ضربة دون أن أنفجر في البكاء. جاهدت كي أحصل على عمل لأعيل نفسي، وعملت صبياً أقوم بتسليم البضائع في مخزن للخرداوات كي أتحرر من صفة الابتزاز القديمة في العائلة: «سنمنحك نقوداً، لكن شريطة أن تفعل كذا وكذا».

قاتلت ـ مع أني أخفقت ـ من أجل الفتاة التي عشقتها عندما كنت مراهقاً، والتي أحبتني هي أيضاً، لكنها تركتني في النهاية لأن والديها أقنعاها بأني شاب لا مستقبل له.

حاربت عالم الصحافة العدائي ـ عملي التالي ـ حيث جعلني رئيسي الأول أقف أمامه ثلاث ساعات كاملة، لم يكترث خلالها بوجودي، إلا عندما رحت أمزق الكتاب الذي كان يقرأه: فنظر إليّ دهشاً، ورأى أن هناك شخصاً قادراً على المثابرة ومواجهة العدو، وهي صفات أساسية في المراسل الجيد. ناضلت من أجل الأفكار الاشتراكية المثالية، دخلت السجن، وخرجت وتابعت النضال، وأحسست أني كنت بطلاً من أبطال الطبقة العاملة، إلى أن سمعت بالبيتلز، واكتشفت أن موسيقى الروك ممتعة أكثر بكثير من ماركس. كافحت من أجل حبّ زوجتي الأولى والثانية والثالثة. كافحت كي أجد الشجاعة لأن أترك زوجتي الأولى والثانية والثالثة، لأن الحبّ الذي كنت أشعر به نحوهن قد توقف، وشعرت بالحاجة لأن أتحرك من جديد، إلى أن اكتشفت المرأة التي خُلقت في هذا العالم لتجدني، ولم تكن واحدة من تلك النساء الثلاث.

كافحت كي أمتلك الشجاعة لأترك عملي في الصحيفة، وأنطلق في مغامرة لتأليف كتاب، مع أني كنت أعرف حق المعرفة أنه لا يوجد أحد في بلدي يستطيع أن يكسب رزقه من الكتابة. وأقلعت عن ذلك بعد سنة، بعد أن كتبت أكثر من ألف صفحة ـ صفحات كتبها هذا العبقري إلى درجة أني لم أفهمها.

وخلال كفاحي سمعت آخرين يتحدثون باسم الحرية، وكلما ازداد دفاعهم عن هذا الحقّ الفريد، بدا أنهم كانوا مستعبَدين أكثر لرغبات آبائهم؛ لزواج عاهدوا أنفسهم على البقاء في كنفه مع الشريك الآخر «طوال حياتهم»؛ لميزان الحمّام؛ لنظامهم الغذائي؛ لمشاريع غير مكتملة؛ لأحبّة لم يكن بوسعهم أن يقولوا لهم «لا» أو «كفى»؛ لعطل نهاية الأسبوع التي يضطرون فيها إلى تناول الغداء مع أناس لا يحبونهم. عبيد الترف والرفاهية، عبيد حبّ الظهور، عبيد المظاهر، عبيد حياة لم يختاروها، لكنهم قرّروا أن يعيشوها لأن أحداً أقنعهم أن هذا كله لصالحهم. وهكذا تمر أيامهم ولياليهم المتشابهة؛ أيام وليال لا تشكل فيها المغامرة شيئاً سوى كلمة يقرؤونها في كتاب أو يرونها في صورة على شاشة التلفزيون الذي لا يطفأ أبداً، وعندما يفتح لهم أحد الأبواب يقولون:

«لست مهتماً. لست في المزاج المناسب».

كيف يمكنهم أن يعرفوا إن كانوا في المزاج المناسب أم لا، إذا لم يجربوا شيئاً آخر في حياتهم؟ لكن لا جدوى من السؤال، إذ إنهم يخشون أن يؤدي أيّ تغيير إلى إفساد نظام حياتهم الذي اعتادوا عليه.

قال المفتش إني حرّ طليق. لقد أصبحت الآن حراً، وكنت حراً في السجن أيضاً، لأن الحرية ستظل أثمن شيء في العالم. وبالطبع فقد أفضى بي ذلك لأن أحتسي نبيذاً لا أستسيغه، لأن أعمل أشياء ما كان يجب عليّ أن أفعلها، ولن أفعلها ثانية، إذ تركت ندوباً في جسدي وفي روحي، وكانت تعني إيذاء بعض الناس، مع أني بدأت أطلب منهم المغفرة، عندما أدركت أنه بوسعي أن أفعل أيّ شيء مهما كان، لكنني لا أستطيع أن أرغم شخصاً آخر على أن يتبعني في جنوني، في شبقي للحياة. إني لا أبدي أسفاً على الأوقات العصيبة، بل أحمل ندوبي كأوسمة على صدري. أعرف أن للحرية ثمناً باهظاً،

باهظاً كثمن العبودية؛ لكن الفرق الوحيد هو أنك تدفع الثمن بسرور وبابتسامة، حتى عندما تكون تلك الابتسامة مصحوبة بالدموع.

غادرت مخفر الشرطة. كان يوم أحد جميلاً. ولم تكن الشمس المشرقة تعكس حالتي النفسية على الإطلاق. كان محاميّ ينتظرني ليواسيني ببضع كلمات ويقدم لي باقة من الزهور. قال إنه اتصل بجميع المستشفيات والمشارح (كما تفعل عادة عندما لا يعود شخص إلى البيت)، لكنه لم يعثر على إستر. قال إنه لم يطلع الصحافيين على مكان احتجازي. وقال إنه يريد أن يتحدث معي لنضع خطة قانونية تساعدني في درء أيّ اتهام يمكن أن يوّجه ضدي مستقبلاً. شكرته لتجشمه كلّ هذا العناء. كنت أعرف أنه لم يكن مهتماً بوضع خطة قانونية، بل لم يكن يريد أن يتركني وحيداً، لأنه لم يكن واثقاً من ردة فعلي. (هل سأشرب حتى الثمالة ويلقى القبض عليّ مرة أخرى؟ هل سأحدث فضيحة؟ هل سأحاول الانتحار؟). قلت له إن لديّ بعض الأعمال الهامة التي يجب أن أنجزها، وإنه يعرف جيداً أنه لا توجد لديّ مشكلة مع القانون.

أصرّ، لكني لم أذعن له، فأنا رجل حرّ.

الحرية. الحرية في أن تكون وحيداً.

استقللت سيارة أجرة واتجهت إلى وسط باريس، وطلبت من السائق أن يوصلني إلى قوس النصر. ثم انطلقت نحو الشانزليزيه باتجاه فندق بريستول، حيث اعتدنا أنا وإستر على أن نلتقي ونحتسي كوباً من الكاكاو بعد أن كان أحدنا يعود من رحلة في الخارج. كان ذلك أحد طقوس عودتنا إلى البيت، لنغرق ثانية في الحبّ الذي كان يجمعنا معاً، مع أن الحياة كانت ترسل كلاً منا في اتجاه مختلف.

رحت أغذّ الخطى. كانت الابتسامة ترتسم على وجوه الناس،

وكان الأطفال سعيدين بالطبيعة التي منحتهم هذه الساعات الربيعية القليلة في منتصف الشتاء. وكانت حركة المرور تتدفق بسهولة، وبدا أن كلّ شيء يسير على ما يرام ـ سوى أن أحداً منهم لم يكن يعرف أني فقدت زوجتي ـ ولم يتظاهروا بأنهم لم يكونوا يعلمون فحسب، بل لا بد أنهم لا يكترثون أيضاً. ألا يدركون مدى ما أعانيه؟ يجب على الجميع أن يحزنوا، وأن يشدوا أزر رجل أخذت روحه تفقد الحبّ كما لو أنها كانت تفقد دماً وأن يتعاطفوا معه؛ لكن هاهم يواصلون ضحكهم، وما يزالون منهمكين في حياتهم البائسة التي لا يعيشونها إلا في عطل نهاية الأسبوع.

يا لها من فكرة سخيفة حقاً! فلا بد أن أرواح الكثير من هؤلاء الناس ممن أمرّ بهم مهلهلة ومهترئة، ولا أعرف شيئاً عن معاناتهم أو لماذا...

دلفت إلى إحدى الحانات، واشتريت بعض السجائر. أجابني البائع باللغة الإنكليزية. دخلت إلى صيدلية لأشترى قليلاً من النعناع المولع به، وحدثني المساعد باللغة الإنكليزية أيضاً (وفي المرتين كنت قد طلبت ما كنت أريده باللغة الفرنسية). وقبل أن أصل إلى الفندق توقّفت بالقرب من صبيين كانا قد وصلا لتوهما من تولوز يبحثان عن دكان بعينها؛ سألا عدّة أشخاص آخرين، لكن لم يفهم أحد ما كانا يقولانه. ماذا يجري؟ هل تغيّرت اللغة في الشانزليزيه خلال الأربع والعشرين ساعة التي احتجزت فيها؟

تستطيع السياحة والمال صنع المعجزات، لكن كيف لم ألحظ ذلك من قبل؟ يبدو أننا، أنا وإستر، لم نلتق لاحتساء كوب الكاكاو منذ أمد بعيد، مع أننا كنا قد سافرنا وعدنا مرات عديدة خلال تلك الفترة. فقد كان هناك على الدوام شيء أكثر أهمية. وكانت هناك دائماً مواعيد لا يمكن تأجيلها. نعم، يا حبيبي، سنتناول كوباً من الكاكاو في المرة القادمة، لا تتأخر، فلديّ مقابلة شديدة الأهمية

اليوم، ولن أتمكن من استقبالك في المطار، استقل سيارة أجرة؛ هاتفي الخليوي مشغول، لا تتصل بي إلا إذا كان هناك شيء ضروري للغاية. سأراك الليلة.

هاتفي الخليوي! أخرجته من جيبي وشغلّته على الفور. رّن مرات عديدة، وكان قلبي في كلّ مرة يرّن فيها يتوقف عن الخفقان. كنت أرى على الشاشة الصغيرة أسماء الأشخاص الذين يحاولون الاتصال بي، لكني لم أردّ على أيّ منهم. تمنيت أن تظهر عبارة «مجهول» على شاشة الهاتف لأنها ستكون هي عندئذ. إذ لم يكن يعرف رقمي إلا قرابة عشرين شخصاً، وقد جعلتهم يقسمون على ألا يخبروا أحداً به. لا يظهر شيء، فقط أرقام الأصدقاء أو الزملاء الموثوق بهم. فلا بد أن يكونوا متلهّفين لمعرفة ما حدث؛ يرغبون في تقديم المساعدة (لكن كيف؟) ليسألوا إن كنت بحاجة إلى شيء.

لا يكفّ الهاتف عن الرنين. هل يجب أن أردّ عليه؟ هل يجب أن أحدّد موعداً للقاء بعض هؤلاء الأشخاص؟

قررت أن أبقى وحدي كي يتسنى لي معرفة حقيقة ما يجري.

وصلت إلى فندق بريستول، الذي كانت تصفه إستر دائماً بأنه أحد الفنادق القليلة في باريس الذي يعاملون فيه الزبائن كضيوف، لا كمشرّدين يبحثون عن ملجأ. استُقبلت كما لو كنت صديقاً من أصدقاء العائلة. اخترت طاولة بجانب ساعة رائعة. رحت أستمع إلى البيانو وأنا أجيل النظر في الحديقة.

يجب أن أكون عملياً حتى أدرس الخيارات المتاحة أمامي، فالحياة مستمرة لا تتوقف. وأنا لست أول ولا آخر رجل هجرته زوجته، لكن هل كان يجب أن يتم ذلك في يوم مشرق كهذا، وتغمر الجميع البهجة وهم مشرقون كالشمس الساطعة، والأطفال يغنّون في الشارع، والسائقون يتوقفون عند معابر المشاة، وقد بدأت تظهر تباشير الربيع الأولى؟

تناولت منديلاً. سأبعد هذه الأفكار عن رأسي وأدّونها على الورق. لنترك المشاعر جانباً ونرى ما يجب أن أفعله:

لنفترض أنها اخُتطفت حقاً، وأن حياتها في هذه اللحظة بالذات في خطر، فيجب عليّ، بصفتي زوجها ورفيقها الدائم، ألّا أترك بقعة على وجه الأرض إلا وأبحث فيها عنها.

الجواب: لقد أخذت جواز سفرها معها، والشرطة لا تعرف ذلك، لكنها أخذت معها كذلك عدّة أمور شخصية أخرى، من بينها محفظة تحتوي على صور مختلف القدّيسين الشفعاء التي دأبت على حملها عندما كانت تسافر إلى الخارج. فضلاً عن أنها سحبت بعض النقود من حسابها.

النتيجة: من الواضح أنها كانت تهيئ نفسها للمغادرة.

لنفترض أنها صدّقت شخصاً كان قد وعدها بشيء وتبين أنه قد نصب لها شركاً.

الجواب: ليست هذه هي المرة الأولى التي تضع فيها نفسها في مواقف خطيرة، فقد كان ذلك جزءاً من عملها، لكنها كانت تخبرني دائماً عندما كانت تفعل ذلك، لأني كنت الشخص الوحيد الذي يمكنها أن تضع فيه كامل ثقتها. وكانت تعلمني عادة بالمكان الذي ستذهب إليه، والشخص الذي ستقابله (مع أنها، لكي لا تعرّضني للخطر، كانت تستخدم اسم الشخص المستعار عادة)، وماذا كان بإمكاني أن أفعل إن لم ترجع في وقت محدد.

النتيجة: لم تكن تخطّط لعقد اجتماع مع أحد من الذين يزودونها بمعلومات.

لنفترض أنها التقت برجل آخر.

الجواب: لا يوجد جواب. فمن بين جميع الفرضيات قد تكون

هذه الفرضية الوحيدة المعقولة. ومع ذلك فلا يمكنني أن أقبلها، لا يمكنني أن أقبل أن تغادر بهذه الطريقة دون أن تذكر لي سبباً واحداً. علماً أننا كنا أنا وإستر نفتخر دائماً بقدرتنا على مواجهة صعوبات الحياة معاً. فقد عانينا، لكن أحداً منا لم يكذب على الآخر، مع أن عدم ذكر أيّ علاقات خارج العلاقة الزوجية كان جزءاً من قواعد اللعبة. وكنت أدرك أنها تغيّرت كثيراً منذ أن التقت بهذا الشخص الذي يدعى ميخائيل، لكن هل هذا يبرّر إنهاء زواج دام عشر سنوات؟

حتى لو كانت قد نامت معه ووقعت في غرامه، ألن تحسب حساباً للأوقات التي أمضيناها معاً، وكلّ ما أقدمنا على عمله قبل أن تودّع مغامرة لا يمكن أن تعود إليها؟ فهي حرّة في أن تسافر متى شاءت، إذ أنها تعيش محاطة بالرجال، بجنود لم يروا امرأة منذ أمد بعيد، لكني لم أكن أسألها شيئاً، ولم تخبرني هي بأيّ شيء. كنا حرّين، وكنا فخورين بذلك.

لكن إستر اختفت ولم تترك أثراً مرئياً إلا لي، كما لو كانت رسالة سرية: إني مغادرة.

لماذا؟

هل الأمر يستحق الإجابة عن هذا السؤال؟

لا. لأن ما يخفيه الجواب هو أني لم أكن قادراً على الاحتفاظ بالمرأة التي أحبها. هل يستحق الأمر أن أعثر عليها وأن أقنعها بأن تعود؟ أن أتوسل إليها وأرجوها أن تمنح زواجنا فرصة أخرى؟

يبدو أن هذا الأمر سخيف: فمن الأفضل أن أعاني كما كنت أعاني، عندما تخلى عني أناس آخرون كنت أحبهم. من الأفضل أن ألعق جراحي، كما اعتدت أن أفعل في الماضي. وسأفكر لبرهة بها بهوس، وسيغمرني إحساس بالمرارة، وسيملّ أصدقائي من حديثي المتكرر الذي سيتمحور دائماً على حياتي التي تخلت عني. سأحاول

أن أبرّر ما حدث، وأمضي أياماً وليال أستعرض فيها كلّ لحظة أمضيتها بجانبها، وسأتوصل إلى النتيجة بأنها عاملتني بقسوة شديدة، مع أني كنت أبذل ما بوسعي لأن أكون لطيفاً معها. سأبحث عن نساء أخريات. وعندما سأمشي في الشارع لن أرفع عينيّ عن النساء اللاتي قد يكنّ هي. سأتألم وأعاني ليلاً نهاراً، نهاراً وليلاً. وقد يستغرق ذلك أسابيع وشهوراً، بل وربما سنة أو أكثر.

في صباح ذات يوم سأستيقظ وأجد نفسي أفكّر بشيء آخر، عندها سأعلم أن أسوأ شيء قد انتهى. فقد يكون قلبي مكدوماً، لكنه سيبرأ، وسيعود قادراً على رؤية جمال الحياة. فقد حدث ذلك من قبل، وأنا واثق من أنه سيحدث ثانية. فعندما يغادر شخص فهذا يعني أن شخصاً آخر على وشك القدوم ـ سأجد الحبّ مرة أخرى.

لبرهة استوعبت فكرة حالتي الجديدة: أعزب ومليونير. يمكنني أن أخرج في وضح النهار مع من أشاء. يمكنني أن أتصرّف في الحفلات كما يحلو لي وبالطريقة التي لم أتصرّف بها منذ سنوات طويلة. وسينتشر الخبر بسرعة، وسرعان ما ستتحلق حولي جميع النساء، الشابات، ومن اجتزن مرحلة الشباب؛ الغنيات والمتوسطات الحال؛ الذكيات واللاتي تدرّبن على قول ما يعتقدن أني أريد أن أسمعه فقط. سيأتين جميعهن ويقرعن بابي.

أريد أن أؤمن أنه من الرائع أن تكون حراً. أن تعود حراً مرة أخرى. كنت مستعداً لأن أعثر على حبّي الوحيد الحقيقي الذي ينتظرني والذي لن يجعلني أتعرض لمثل هذه المهانة مرة أخرى.

أنهيت احتساء كوب الكاكاو ونظرت إلى الساعة. كان الوقت مايزال مبكراً وكانت أمامي فسحة من الوقت لأتمتّع بذلك الشعور اللذيذ بأني عدت وأصبحت جزءاً من الإنسانية مرة أخرى. وللحظات

قليلة تخيّلت أن إستر دخلت من ذلك الباب، ومشت فوق تلك السجادة الفارسية الجميلة، وجلست بجانبي ولم تفه بكلمة واحدة، وأنا أدخّن سيجارتي، وأنظر إلى الحديقة الخلفية وأمسكت بيدي. ومضت نصف ساعة، صدّقت خلالها القصة التي اختلقتها، إلى أن أدركت أنها كانت من نسج الخيال.

قررت أن لا أعود إلى البيت. توجهت إلى موظف الاستقبال، وطلبت منه غرفة، وفرشاة أسنان، ومزيل للروائح. كان الفندق مليئاً لكن المدير هيأ لي كلّ ما طلبته: حجزوا لي جناحاً رائعاً يطل على برج إيفل، وعلى الشرفة، وعلى أسطح باريس، حيث كانت الأضواء تتلألأ، وحيث العائلات تجتمع يوم الأحد لتناول وجبة العشاء معاً. وللمرة الثانية راودني ذات الشعور الذي كان قد اعتراني عندما كنت أسير في الشانزليزيه: فكلما أحاطت بي الأشياء الجميلة أكثر ازدادت تعاستي.

لم يكن هناك تلفاز. لم يكن ثمة عشاء. جلست على الشرفة ورحت أستعرض شريط حياتي، شابّ كان يحلم بأن يصبح كاتباً مشهوراً، وفجأة رأى أن الحقيقة مختلفة تماماً؛ فقد كان يكتب بلغة لا يكاد أحد يقرؤها، في بلد يقال إن الناس فيه لا يقرؤون. وأرغمته أسرته على أن يلتحق بالجامعة (أيّ كلية تصلح يا بني، ما دمت ستحصل على شهادة، وإلا فستكون نكرة في هذا العالم). تمرّد، جاب أنحاء العالم خلال فترة الهيبيين، التقى مطرباً، وكتب بضع قصائد وأغنيات، وفجأة بدأ يكسب مالاً أكثر مما تكسبه أخته التي استمعت إلى ما قاله لها أبواها وقررا أن تصبح مهندسة كيمياء...

كتبت الكثير من الأغاني، وكان المغني يزداد شهرة وينتقل من مجد إلى مجد. واشتريت بضع شقق، واختلفت مع المغني، لكني كنت ماأزال أملك نقوداً تكفيني لأن لا أعمل لسنوات قليلة قادمة. تزوّجت للمرة الأولى، امرأة تكبرني سناً، وتعلّمت الكثير ـ ممارسة الجنس، وقيادة السيارات، التحدث باللغة الإنكليزية؛ تعلمت كيف أستلقي في

السرير حتى وقت متأخر من الليل - لكننا انفصلنا لأنها اعتبرتني «غير ناضج عاطفياً، ومستعداً للجري وراء أيّ فتاة ممتلئة الصدر». وتزوجت للمرة الثانية والثالثة نساء خيّل لي أنهن سيمنحنني الاستقرار العاطفي: حصلت على ما كنت أريده، لكني اكتشفت أن الاستقرار الذي كنت أسعى إليه يصاحبه إحساس عميق بالملل.

طلاقان آخران. وعدت حراً مرة أخرى، لكنه كان مجرد شعور، إذ لا تعني الحرية أن تكون بدون التزامات، بل ثقتي أن تكون قادراً على الاختيار - والالتزام - بأفضل شيء بالنسبة لي.

واصلت البحث عن الحبّ، وواصلت كتابة الأغاني. وعندما كان الناس يسألونني ماذا أفعل، كنت أجيب بأنني أعمل كاتباً. وعندما كانوا يقولون إنهم لا يعرفون سوى قصائد الأغاني التي أكتبها، كنت أجيب بأن هذا ليس إلا جزءاً من عملي. وعندما كانوا يعتذرون ويقولون إنهم لم يقرؤوا أياً من كتبي، كنت أقول إني أعمل على مشروع وكنت أكذب. فالحقيقة أني كنت أملك مالاً، وكانت لديّ علاقات، لكن الشيء الذي لم أكن أملكه هو الشجاعة لتأليف كتاب. لقد أصبح حلمي قابلاً للتحقيق الآن، لكني إذا حاولت وفشلت فلم أكن أعرف كيف سأمضي بقية حياتي؛ لذلك كان من الأفضل أن أعيش وأحلم، على أن أواجه احتمال أن لا يفضي كلّ ذلك إلى شيء.

وذات يوم، جاءت صحافيّة لتجري معي لقاءً صحفياً. كانت تريد أن تعرف كيف أشعر عندما تكون أعمالي معروفة في أنحاء البلاد ولكن لا أحد يعرفني، لأن المغني هو الذي يظهر في وسائل الإعلام ويحظى عادة بالشهرة. كانت ذكية وجميلة وهادئة. التقينا مرة أخرى في إحدى الحفلات، حيث لم يكن ثمة ضغط في العمل، واستطعت أن أصحبها إلى السرير في تلك الليلة. وقعت في حبها لكنها لم تبد اهتماماً كبيراً بي. فعندما كنت أتصل بها هاتفياً كانت تقول إنها مشغولة. وكلما ازداد رفضها لي ازداد اهتمامي بها إلى أن تمكنت أخيراً من إقناعها بأن تمضي عطلة نهاية الأسبوع في

بيتي الريفي. (ربما كنت معرّة عائلتي، لكن التمرّد يجدي أحياناً: فقد كنت الوحيد من بين أصدقائي في تلك المرحلة من حياتنا الذي تمكّن من شراء بيت في الريف).

أمضينا ثلاثة أيام وحدنا نتأمّل البحر. كنت أطهو لها، وكانت هي تحكي لي عن عملها، ووقعت أخيراً في حبي. عدنا إلى المدينة، ومكثت في شقّتي. وفي صباح أحد الأيام غادرت البيت في وقت أبكر من المعتاد، وعادت تحمل آلتها الكاتبة. ومنذ ذلك الحين، ودون أن ينبس أحدنا بكلمة، أصبح بيتي بيتها أيضاً.

ثم بدأت تبرز الخلافات التي كانت تبرز عادة مع زوجتيّ السابقتين: فالنساء يبحثن دائماً عن الاستقرار والإخلاص، فيما كنت أبحث أنا عن المغامرة والمجهول. ومع ذلك، فقد دامت علاقتنا مدة أطول هذه المرة. وبعد سنتين قررت إستر أن تعيد آلتها الكاتبة إلى شقتها، مع أغراضها الأخرى التي كانت قد جلبتها معها.

«لا يمكن أن تسير الأمور بهذا الشكل».

«لكنك تحبّني وأنا أحبّك، أليس كذلك؟».

«لا أعرف. إذا كنت تسألينني إن كنت أحبّ رفقتك، فالجواب نعم. أما إذا كنتِ تسألينني إن كنت أستطيع أن أعيش بدونك، فالجواب أيضاً نعم».

«إني سعيدة لأني لم أخلق رجلاً. فأنا سعيدة لكوني امرأة. فكلّ ما تتوقعونه منا، نحن النساء، هو أن نطهو لكم جيداً. أما أنتم معشر الرجال فإنكم تظنون أنكم تستطيعون أن تفعلوا أيّ شيء: تسيير أمور البيت، ممارسة الجنس، رعاية الأطفال، جلب النقود، وتحقيق النجاح».

«ليس الأمر هكذا: أنا سعيد بنفسي تماماً. ومع أني أجد متعة في صحبتك، لكني لا أظن أن الأمور ستكون على ما يرام».

«إنك تجد متعة في صحبتي، لكنك تكره أن تكون وحيداً. إنك

دائم البحث عن مغامرة لكي تنسى الأشياء الأكثر أهمية. أنت تريد أن تشعر دائماً بتدفّق الأدرينالين في عروقك وتنسى أن الشيء الوحيد الذي يجب أن يتدفّق فيها هو الدم».

«إني لا أتهرب من الأشياء الهامة. أعطيني مثالاً عن شيء مهم».

«تأليف كتاب».

«يمكنني أن أفعل ذلك في أيّ وقت».

«هيا إذن، افعل ذلك. عندها سيذهب كلّ واحد منا في طريقه إن أحببت».

بدا لي أن تعليقها سخيف. إذ يمكنني أن أؤلف كتاباً عندما أشاء. فقد كنت أعرف ناشرين وصحافيين يدينون لي جميعهم بأفضال وخدمات كنت قد أسديتها لهم. أما إستر فكانت امرأة تخشى أن تفقدني، وراحت تختلق هذه الأشياء. قلت لها إن علاقتنا قد انتهت، وليس للأمر علاقة بما كانت تظن أنه سيجعلني سعيداً، بل إن الأمر يتعلق بالحبّ.

سألتني ما هو الحبّ؟ أمضيت زهاء نصف ساعة وأنا أشرح لها، لكني أدركت في نهاية الأمر أني لم أتمكن من التوصل إلى تعريف جيد.

قالت بما أني لا أجيد تعريف الحبّ، فيجب أن أحاول تأليف كتاب.

قلت لها أن لا علاقة لهذا بذاك. وأخبرتها بأني سأغادر الشقّة في ذلك اليوم بالذات؛ وأنه بإمكانها أن تمكث في البيت طالما شاءت. وقلت سأذهب وأقيم في فندق إلى أن تجد مكاناً آخر تقيم فيه. فقالت إنها لا تجد مانعاً في ذلك، وإني أستطيع أن أغادر الآن، وهي ستخلي الشقة خلال شهر ـ وستبدأ البحث عن مكان جديد اعتباراً من الغد. حزمت حقائبي وذهبت هي لتقرأ كتاباً. قلت بما أن الوقت قد تأخر فسأغادر في الغد. قالت يجب أن أغادر في الحال لأني لن أمتلك الشجاعة في الغد أو أني لن أحزم أمري. سألتها إن

كانت تحاول أن تتخلص مني. ضحكت وقالت بأنني من يريد إنهاء علاقتنا. أوينا إلى الفراش، وفي اليوم التالي تلاشت تلك الرغبة، وقرّرت أني بحاجة لأن أعيد النظر في الأمور لكن إستر قالت إن الأمر لم ينته بعد: وأن هذا السيناريو سيتكرر ما دمت أرفض أن أجازف بكلّ شيء من أجل ما أظنه سبباً حقيقياً في سبيل الحياة؛ وهي لن تكون في نهاية الأمر سعيدة وستهجرني. وقالت إذا قررت أن تغادر، فإنها ستفعل ذلك في الحال وتحرق أية جسور قد تسمح لها بالعودة. سألتها عن قصدها بذلك، فقالت إنها ستجد صديقاً آخر يقع في حبها.

ذهبت إلى عملها في الصحيفة، وقررت أن لا أذهب إلى العمل اليوم (فبالإضافة إلى كتابة الأغاني، كنت أعمل أيضاً في شركة للتسجيلات الموسيقية). جلست إلى الآلة الكاتبة. نهضت ثانية، قرأت الصحف، وأجبت على بعض الرسائل العاجلة، وعندما انتهيت بدأت أجيب على الرسائل غير العاجلة. دوّنت قائمة بالأشياء التي كان يجب عليّ أن أفعلها، ورحت أصغي إلى الموسيقى، وتمشيت قليلاً في الشارع، تحدثت إلى الخباز، عدت إلى البيت، وفجأة انقضى اليوم كله ولم أنهِ طباعة جملة واحدة. أدركت أني أكره إستر لأنها كانت ترغمني على عمل أشياء لا أريد أن أفعلها.

عندما عادت إلى البيت لم تسألني شيئاً، لكني اعترفت لها بأني لم أتمكن من كتابة شيء. وقالت إن في عينيّ ذات النظرة التي كانت قد رأتها البارحة.

وفي اليوم التالي توجهت إلى العمل. وفي ذلك المساء عدت وجلست إلى الطاولة حيث تقبع الآلة الكاتبة. قرأت، شاهدت التلفاز، استمعت إلى الموسيقى، عدت إلى الآلة الكاتبة، وهكذا مرّ شهران وأنا أجمّع صفحات فوق صفحات من «الجملة الأولى» لكني لم أستطع أن أنهي فقرة واحدة.

كنت أتذرع بجميع الأعذار الممكنة ـ لا أحد يقرأ في هذا البلد؛

لم أتمكن من وضع حبكة؛ كانت لديّ حبكة رائعة، لكني كنت ماأزال أبحث عن الوسيلة الملائمة لتطويرها. بالإضافة إلى ذلك كنت مشغولاً حقاً في كتابة مقالة أو أغنية. ومرّ شهران آخران، وذات يوم عادت إلى البيت ومعها بطاقة طائرة.

«كفاك»، قالت، «كفّ عن التظاهر بأنك مشغول، بأنك مثقل بالمسؤوليات، بأن العالم يحتاج لأن تفعل ما تفعله، واذهب وسافر لفترة من الزمن». إذ يمكنني أن أصبح دائماً محرّراً للصحيفة التي أنشر فيها بعض المقالات، ويمكنني أن أصبح دائماً رئيس شركة التسجيلات التي أكتب لها الأغاني، لأنهم لم يكونوا يريدون أن أكتب أغاني لمنافسيهم. ويمكنني دائماً أن أعود لأفعل ما أفعله الآن، لكن حلمي لا يستطيع أن ينتظر أكثر من ذلك. فإما أن أقبله أو أن أنساه.

إلى أين التذكرة؟

إسبانيا.

أصبت بصدمة. فأسعار بطاقات الطائرة غالية الثمن؛ كما أني لا أستطيع أن أسافر الآن، فلدي عملي، ويجب أن أقوم به. إذ سأخسر الكثير من الشراكات الموسيقية المحتملة؛ والمشكلة لا تكمن فيّ، بل في زواجنا. فإذا كنت أريد حقاً أن أؤلف كتاباً فلن يستطيع أحد إيقافي.

قالت «إنك تستطيع، إنك تريد، لكنك لا تفعل ذلك. إن مشكلتك ليست أنا، بل أنت، لذلك من الأفضل أن تُمضي بعض الوقت وحيداً».

أرتني خارطة. يجب أن أذهب إلى مدريد حيث سأستقل حافلة إلى جبال البيرينه، على الحدود مع فرنسا. حيث كان يبدأ طريق الحجّ في القرون الوسطى: الطريق إلى سانتياغو. ويجب أن أقطع الطريق كله سيراً على القدمين. وقالت إنها ستنتظرني في الجانب الآخر وعندها ستقبل أيّ شيء أقوله: بأني لم أعد أحبّها، بأني لم أعش الحياة التي تجعلني أتمكن من خلق عمل أدبي، بأني لا أريد

حتى أن أفكّر بأن أكون كاتباً، وبأن الأمر كله لم يكن سوى حلم مراهق.

هذا محض جنون! المرأة التي أعيش معها منذ سنتين مديدتين ـ علاقة بدت أبدية حقاً ـ تتخذ قرارات تتعلق بحياتي، تطلب مني أن أترك عملي وتتوقع مني أن أقطع بلداً كاملاً سيراً على القدمين! من الجنون أن آخذ الأمر بجدية. أشرب لليالي متوالية حتى الثمالة، وهي بجانبي تثمل مثلي ـ مع أنها تكره أن تشرب. أصبحت عدوانياً؛ قلت لها إنها تغار من استقلاليتي، وأن السبب الوحيد الذي جعل هذه الفكرة المجنونة تنبثق هو لأني قلت إني أريد هجرها. قالت إن ذلك بدأ عندما كنت ماأزال في المدرسة وأحلم بأن أصبح كاتباً ـ يجب أن لا أؤجل الأمور أكثر من ذلك؛ وإذا لم أواجه نفسي الآن، فإني سأمضي بقية حياتي أتزوج وأطلّق، وأروي حكايات جميلة عن ماضيّ وأنحدر باستمرار.

وبالطبع لم أستطع أن أعترف بأنها محقة، لكني كنت أعرف أنها كانت تقول الحقّ. وكلما ازداد إدراكي بذلك ازددت عدوانية. وقد تقبلت عدوانيتي بدون تذمر؛ ولم تفعل شيئاً سوى أنها ذكّرتني بأن موعد المغادرة بدأ يقترب.

وذات ليلة، قبل الموعد المحدد بقليل، امتنعتْ عن ممارسة الجنس معي. دخّنتُ قطعة كاملة من الماريوانا، وشربت زجاجتين من النبيذ، وأغمي عليّ في وسط غرفة الجلوس. وعندما صحوت أدركت أني بلغت قاع الحفرة، وأن كلّ ما تبقى عليّ الآن هو أن أعود وأتسلق إلى القمة. وأصبحت أنا، الذي كنت أفتخر بشجاعتي، أرى كيف تحولت إلى إنسان جبان وخسيس ورعديد إزاء حياتي. في ذلك الصباح أيقظتها بقبلة وقلت لها إني سأفعل بما أشارت عليّ.

انطلقت، ولمدة ثمانية وثلاثين يوماً رحت أتبع الطريق إلى سانتياغو. وعندما وصلت أدركت أن رحلتي الحقيقية لن تبدأ إلا هناك. وقررت أن أستقر في مدريد وأعيش من ريع كتبي كي أدع المحيط يفصلني عن جسد إستر، مع أننا كنا رسمياً ما نزال زوجاً

وزوجة، وكنا نتحادث غالباً على الهاتف. كم هو مريح ذلك الشعور بأني متزوج، خاصة وأني أعرف أنه يمكنني أن أعود دائماً إلى ذراعيها، وأتمتع في الوقت نفسه بكلّ الاستقلالية المتاحة لي في العالم.

وقعت في غرام إحدى العالمات من كاتالونيا، ووقعت في غرام امرأة أرجنتينية تصنع المجوهرات، ووقعت في غرام صبية تغنّي في أنفاق المترو. وكان ريع الأغاني التي أكتبها مايزال يتدفق عليّ وكنت في رغد من العيش، دون أن أضطر للعمل. وكان لديّ وقت كثير يمكنني أن أعمل فيه كلّ شيء ـ حتى تأليف كتاب.

ومع ذلك، فقد كان بوسع الكتاب أن ينتظر إلى الغد، فقد أصدر محافظ مدريد قراراً بأن تتواصل الاحتفالات والأفراح في المدينة، وأطلق شعاراً مثيراً «مدريد تقتلني» وحثّ جميع الناس على ارتياد حانات عديدة في الليلة الواحدة، وسكّ عبارة «مشهد مدريد»، وكان ذلك أمراً لا يمكنني أن أؤجله إلى الغد؛ فكلّ شيء ممتع؛ والأيام قصيرة والليالي طويلة.

وذات يوم اتصلت بي إستر وقالت إنها ستأتي لزيارتي، وقالت إننا يجب أن نحسم أمرنا بشكل نهائي. وحجزت تذكرتها في الأسبوع التالي، لتمنحني وقتاً كافياً أنظم فيه سلسلة أعذاري. («سأذهب إلى البرتغال، وسأعود بعد شهر»، قلت للفتاة الشقراء التي تغني في أنفاق المترو والتي أصبحت تنام الآن في الشقة التي كنت قد استأجرتها، والتي رحت أخرج معها كلّ ليلة لأتمتع «بمدريد تقتلني»). نظفت الشقّة ورتبتها، وأزلت أيّ أثر يدل على وجود أنثوي، وطلبت من أصدقائي أن لا يقولوا شيئاً، لأن زوجتي ستأتي وستمكث مدة شهر.

نزلت إستر من الطائرة. كانت قَصة شعرها قد جعلتها تبدو قبيحة مما جعل من الصعب التعرف عليها. سافرنا إلى داخل إسبانيا، واكتشفنا البلدات الصغيرة التي كانت تعني الكثير لقضاء

ليلة واحدة فقط، لكني لو عدت إليها اليوم فلن يكون بوسعي أن أجدها. ذهبنا لمشاهدة حفلات مصارعة الثيران، وعروض الفلامنكو. كنت أفضل زوج في العالم، لأني كنت أريد أن تعود وهي تشعر بأني ماأزال أحبّها. لم أكن أعرف لماذا كنت أريد أن أعطيها هذا الانطباع ربما لأني كنت أعرف في أعماقي بأن حلم مدريد سينتهي في نهاية الأمر.

اعترضتُ على قَصة شعرها فغيّرتها وعادت إلى جمالها السابق. ولم يتبق من عطلتها سوى عشرة أيام لتسافر وهي تشعر بالسعادة وتتركني وحدي أتمتع بمدريد هذه التي تقتلني، المراقص التي تفتح أبوابها في الساعة العاشرة صباحاً، ومصارعة الثيران، والأحاديث اللانهائية عن المواضيع القديمة ذاتها، الكحول، النساء، مزيد من مصارعة الثيران، مزيد من الكحول، مزيد من النساء، ومن المؤكد عدم وجود جدول زمني محدد.

وذات يوم أحد، وفيما كنا نسير باتجاه حانة تقدم الطعام طوال الليل، طرحت الموضوع المحرّم: الكتاب الذي قلت إني أكتبه. شربتُ زجاجة كاملة من الشيري، ورحت أضرب كلّ باب معدني أصادفه في طريق عودتنا بقبضتي، وأشتم كلّ من صادفته في الشارع، وسألتها لماذا تجشمت عناء السفر وقطعت كلّ هذا الطريق إذا كان هدفها الوحيد أن تجعل حياتي جحيماً وتدمر سعادتي. لم تنبس ببنت شفة، لكننا كنا نعرف أن علاقتنا قد وصلت إلى ذروتها. أمضيتُ ليلة دون أن أرى فيها أحلاماً، وفي صباح اليوم التالي، بعد أن اشتكيت إلى مشرف البناية من أن الهاتف لم يعد يعمل، وبعد أن وبخت المرأة المسؤولة عن التنظيف لأنها لم تغيّر الشراشف منذ أسبوع، وبعد أن أخذت حماماً طويلاً لأتخلص من الصداع الذي أصابني لأني احتسيت قدراً كبيراً من الكحول في الليلة الماضية، جلست إلى آلتي الكاتبة فقط لأري إستر أني أحاول العمل بصدق.

وفجأة وقعت المعجزة. كنت أنظر إلى المرأة التي كانت قد

صنعت بعض القهوة وراحت تقرأ الصحيفة. بدت عيناها مرهقتين بائستين. كانت هي ذات المرأة العادية الصامتة، التي لم تكن تظهر عواطفها دائماً في حركاتها وقسماتها؛ المرأة التي كانت تجعلني أقول نعم عندما كنت أريد أن أقول لا؛ المرأة التي أرغمتني على أن أحارب من أجل ما كانت تؤمن به، وكانت محقة في ذلك، بأنه علة وجودي؛ المرأة التي تركتني أنطلق وحدي لأن حبّها لي كان أعظم حتى من حبّها لنفسها؛ المرأة التي جعلتني أبحث عن حلمي، وفجأة، عندما رأيت تلك المرأة الصغيرة، الهادئة، التي كانت عيناها تقولان أكثر مما كانت تعبّر عنه أية كلمات؛ المرأة التي كانت في غالب الأحيان مذعورة من داخلها، لكنها كانت شجاعة دائماً في تصرفاتها؛ المرأة التي كانت تستطيع أن تحبّ دون أن تذلّ نفسها، والتي لم تكن تأسف أبداً عندما تقاتل من أجل رجلها ـ فجأة أخذت أصابعي تضغط على لوحة المفاتيح.

انبثقت الجملة الأولى. ثم الثانية.

أمضيت يومين دون أن أتناول طعاماً، نمت أقلّ ما أمكنني أن أنام، وبدا لي أن الكلمات كانت تنبثق من مكان مجهول، كما كانت تفعل عندما كنت أكتب الأغاني، عندما كنا أنا وشريكي الموسيقي نعرف، بعد الكثير من الجدال والأحاديث التافهة، «أنها» كانت هناك، جاهزة، وقد آن الآوان لوضعها في كلمات ونغمات. وكنت أعرف هذه المرة «أنها» جاءت من قلب إستر؛ فقد ولد حبّي من جديد، ورحت أكتب الكتاب لأنها كانت موجودة، لأنها اجتازت كلّ الأوقات العصيبة دون شكوى أو تذمر، دون أن ترى نفسها ولو لمرة واحدة أنها الضحيّة. بدأت أصف التجربة التي تركت في نفسي أثراً كبيراً في السنوات القليلة الماضية: الطريق إلى سانتياغو.

وما أن بدأت أكتب، حتى بدأت أدرك أن الطريقة التي كنت أرى فيها العالم قد طرأ عليها سلسلة من التغييرات الرئيسية. فلسنوات عديدة درست ومارست السحر والخيمياء والتنجيم؛ وكانت تسحرني

الفكرة بأن مجموعة صغيرة من الناس تمتلك قدرة هائلة يستحيل نقلها إلى باقي البشر، لأن وقوع مثل هذه الإمكانيات الهائلة بأيدي أشخاص تعوزهم الخبرة والحكمة يشكل خطراً كبيراً. فقد كنت عضواً في جمعيات سرية، وشاركت في فرق غريبة، واشتريت كتباً غامضة باهظة الثمن، وأمضيت وقتاً طويلاً وأنا أمارس طقوساً وصلوات. وكنت لا أنفك أنضمّ إلى جمعية أو أخوّة لكن سرعان ما أنفصل عنها، وكان يخيّل إليّ دائماً أني التقيت أخيراً بالشخص الذي يمكنه أن يكشف لي ألغاز العالم الخفي، لكن سرعان ما كنت أصاب بخيبة أمل بعد اكتشافي أن معظم هؤلاء الناس، مهما كانت نواياهم حسنة، كانوا يتبعون هذه العقيدة فقط، وينحون إلى التعصب، لأن التعصّب هو الوسيلة الوحيدة لوضع حدّ للشكوك التي تشغل الروح الإنسانية.

واكتشفت جدوى الكثير من هذه الطقوس، لكنني اكتشفت أيضاً أن الذين نصبّوا أنفسهم سادة على أسرار الحياة وسدنة لها، الذين يدّعون أنهم يعرفون السبل التي تمنحهم القدرة على تحقيق كلّ رغبة من رغباتهم، قد فقدوا الصلة تماماً بتعاليم القدماء. إن اتباع الطريق إلى سانتياغو، والتواصل مع الناس العاديين، واكتشاف أن للكون لغة خاصة يتحدث بها «لغة الإشارات» وأنه لفهم هذه اللغة، يجب أن ننظر بعقل مفتوح إلى كلّ ما يجري حولنا ـ كل هذا ـ جعلني أتساءل إن كان علم الغيب هو حقاً المدخل الوحيد إلى تلك الألغاز. وقد ناقشت في كتابي عن الطريق إلى سانتياغو، سبلاً ممكنة أخرى من النمو وتوصلت إلى هذه الفكرة: كلّ ما عليك أن تفعله هو أن تكون حذراً؛ فالدروس تأتي دائماً عندما تكون مهيأً لها، وإذا كان بوسعك أن تقرأ الإشارات فإنك ستتعلّم كلّ شيء تحتاج إلى معرفته كي تُقدِم على الخطوة التالية.

لدينا نحن البشر مشكلتان كبيرتان: الأولى معرفة متى يجب أن نبدأ، والثانية معرفة متى يجب أن نتوقف.

أنهيت بعد أسبوع المسودة الأولى والثانية والثالثة. لم تعد مدريد تقتلني، وقد حان الآوان للعودة إلى الوطن. وشعرت أن دورة قد انتهت، وعليّ أن أبدأ دورة أخرى بسرعة. ودّعت المدينة كما كنت أقول دائماً للحياة: الوداع ظناً مني أني أستطيع أن أغيّر رأيي وأعود ذات يوم.

عدت مع إستر إلى بلدنا، بعد أن اقتنعت أنه قد آن الآوان للبحث عن عمل آخر، لكن إلى أن يتم ذلك (ولن يتم ذلك لأني لست بحاجة إليه) واصلت مراجعة الكتاب. ولم أكن أصدق أن أحداً سيهتم كثيراً بتجارب شخص تبع مسلكاً رومانسياً لكنه شاق عبر إسبانيا.

وبعد أربعة أشهر، وفيما كنت منهمكاً في مسودّتي العاشرة، تبين لي أن النص المطبوع على الآلة الكاتبة وإستر قد اختفيا. كدت أفقد عقلي، وبدأ القلق ينهشني، لكنها سرعان ما عادت ومعها إيصال من مكتب البريد؛ فقد أرسلته إلى صديق قديم لها، يدير حالياً دار نشر صغيرة.

ونشر صديقها الكتاب. ولم تذكر الصحافة كلمة واحدة عنه، إلا أن عدداً قليلاً من الناس اشتروه. وأوصوا بقراءته إلى أشخاص آخرين، الذين اشتروه بدورهم وأوصوا بقراءته إلى آخرين وهكذا. وبعد ستة أشهر نفذت الطبعة الأولى. وبعد سنة أعيدت طباعته أكثر من ثلاث مرّات وبدأت أكسب نقوداً من الشيء الذي لم أكن أحلم بأنه سيدر عليّ مالاً ـ الأدب.

لم أكن أعرف إلى متى سيدوم هذا الحلم، لكني قررت أن أعيش كلّ لحظة وكأنها اللحظة الأخيرة من حياتي. وبدأت أرى أن هذا النجاح قد فتح لي الباب الذي طالما انتظرته: وأبدى ناشرون آخرون رغبة كبيرة في نشر كتابي القادم.

كان من الجلي أنه ليس بوسعي أن أتبع الطريق إلى سانتياغو كلّ سنة، لذلك كان السؤال المطروح عن أي شيء سأكتب في المرة

القادمة؟ هل يتعين عليّ أن أكابد الأمر ذاته وأجلس إلى الآلة الكاتبة لأجد نفسي أفعل كلّ شيء سوى كتابة الجمل والفقرات؟ فقد كان من المهم أن أواصل مشاركتي الآخرين في رؤيتي للعالم ووصف تجاربي في الحياة. حاولت بضعة أيام وعدة ليال أخرى، وتوصلت إلى قرار بأن ذلك كان أمراً مستحيلاً. ثم، وذات مساء، قرأت بالمصادفة قصة مثيرة من قصص *ألف ليلة وليلة*؛ فقد وجدت فيها رمز دربي، شيئاً يساعدني في فهم حقيقة من أنا، ولماذا استغرقت كلّ هذا الوقت كي أتخذ القرار الذي كان ينتظرني دائماً. واستخدمت تلك القصة أساساً لقصة أخرى عن راع ينطلق بحثاً عن حلمه، الذي كان عبارة عن كنز مخبأ في أهرامات مصر. تحدثت عن الحبّ الذي يقبع بانتظاره هناك، كما كانت إستر تنتظرتني فيما كنت أدور وأدور حول نفسي.

لم أعد ذلك الشخص الذي يحلم ليصبح شيئاً ما: فأنا. أنا ذلك الراعي الذي اجتاز الصحراء، لكن أين هو خيميائي القرون الوسطى الذي ساعده في إنجاز مهمته؟ وعندما أنهيت كتابة هذه الرواية لم أفهم تماماً ما كنت قد كتبته: إنها أشبه بحكاية خرافية للبالغين، في حين يبدي البالغون اهتماماً أكبر بالحرب وبالجنس، أو بالقصص التي تتحدث عن القوة. ومع ذلك فقد قبلها الناشر، وأصدر الكتاب، وضمه قرّائي مرة أخرى إلى قوائم أكثر الكتب رواجاً.

وبعد ثلاث سنوات أصبح زواجي في أفضل حال؛ وبدأت أفعل كلّ ما كنت أصبو إلى عمله دائماً؛ وهكذا ظهرت الترجمة الأولى، ثم الثانية، وأخذ النجاح - ببطء لكن بثقة - عملي إلى أركان الأرض الأربعة.

قررت أن أنتقل إلى باريس بسبب مقاهيها وكتّابها وحياتها الثقافية. وتبين لي أنه لم يعد شيئاً من هذا فيها: فالمقاهي تعجّ بالسيّاح وصور الأشخاص الذين جعلوا هذه الأماكن مشهورة. وأصبح معظم الكتّاب هناك يعنون بالأسلوب أكثر مما يعنون

بالمحتوى، وكانوا يسعون لأن يكونوا أصليين، لكنهم لم ينجحوا إلا في أنهم أصبحوا مملين. فقد حصروا أنفسهم في عالمهم الصغير، وتعلّمت عبارة فرنسية مثيرة: renvoyer l'ascenseur، وهي تعني حرفياً «إعادة المصعد»، لكنها كانت تستخدم مجازاً لتعني «ردّ الجميل». وهذا يعني من الناحية العملية أن أقول أشياء لطيفة عن كتابك، وأن تقول أشياء لطيفة عن كتابي، وبهذا نخلق حياة ثقافية جديدة كاملة، ثورة، فلسفة جديدة؛ إننا نعاني لأنه لا يوجد من يفهمنا، لكن هذا ما حدث لجميع عباقرة الماضي: فمن المؤكد أن عظمة الفنان تقاس بمدى ما يسيء معاصروه فهمه.

إنهم «يعيدون المصعد»، وفي البداية حقق هؤلاء الكتّاب شيئاً من النجاح: إذ لا يريد الناس أن يجازفوا وينتقدوا علناً شيئاً لا يفهمونه، لكنهم سرعان ما أدركوا أنهم كانوا مخدوعين ولم يعودوا يصدقون ما يقوله النقّاد.

لقد غيّر الإنترنت وبساطة لغته العالم. فقد برز عالم مواز في باريس: كتّاب جدد يسعون لجعل كلماتهم وأرواحهم مفهومة. وقد انضممت إلى هؤلاء الكتّاب الجدد في المقاهي التي لم يكن قد سمع بها أحد، وذلك لأنه لم يحقق الكتّاب ولا المقاهي الشهرة المطلوبة حتى الآن. ورحت أطوّر أسلوبي وحدي، وتعلّمت من أحد الناشرين كلّ ما كنت أحتاج إلى معرفته عن الدعم المتبادل.

«ما هو *بنك ردّ الجميل* هذا؟».

«إنك تعرفه جيداً. والجميع يعرفونه».

«ربما، ومع ذلك فلم أفهم تماماً ما تقصد قوله».

«كان أول من ذكره هو أحد الكتّاب الأمريكيين. إنه أقوى بنك في العالم، وتجده في كلّ مجال من مجالات الحياة».

«نعم، لكني قادم من بلد لا توجد فيه تقاليد أدبية».

«إنها الأفضال والخدمات التي أستطيع أن أقدمها لأي شخص؟».

«هذا لا يهمّ. لأعطيك مثالاً على ذلك: أعرف أنك كاتب واعد، وأنه سيصبح لك شأن كبير ذات يوم. أعرف هذا لأني كنت ذات يوم صادقاً ومستقلاً وطَموحاً مثلك أيضاً. ولم أعد أملك الطاقة التي كنت أمتلكها في الماضي، لكني أريد أن أساعدك لأني لا أستطيع أو لا أريد أن أتوقف. فأنا لا أحلم بالتقاعد، وما أزال أحلم بالكفاح الساحر وهو الحياة، والقوة، والمجد.

«بدأت أودع في حسابك - لا ودائع نقدية، بل اتصالات وعلاقات. لقد قدّمت إلى فلان وفلان من الناس؛ رتّبت بعض الصفقات، ما دامت قانونية. تعرف أنك تدين لي بشيء، لكني لم أطلب منك شيئاً مقابل ذلك».

«ثم، وذات يوم...».

«تماماً. سأطلب منك ذات يوم أن تسدي لي معروفاً، وبالطبع يمكنك أن ترفض، لكنك تعرف أنك مدين لي. تفعل ما أطلبه منك، واستمر في مساعدتك، ويرى أناس آخرون أنك شخص مخلص وكريم ولطيف لذلك فهم يودعون في حسابك أيضاً ـ دائماً في شكل اتصالات وعلاقات، لأن هذا العالم مكوّن من العلاقات ولا شيء آخر. وسيطلبون منك هم أيضاً أن تسدي لهم معروفاً ذات يوم، ويجب عليك أن تلبي ما يطلبه منك الأشخاص الذين قدموا لك مساعدة، ومع مرور الزمن تتوسع علاقاتك وتتشعب وتنتشر في أنحاء العالم، وتتعرف إلى كلّ من تحتاج لأن تتعرف عليه، وسيزداد تأثيرك قوة».

«هل يمكنني أن أرفض ما تطلبه مني».

«يمكنك ذلك. إذ إن بنك ردّ الجميل استثمار محفوف بالخطر، مثل أيّ بنك آخر. فإذا رفضت أن تسدي لي المعروف الذي طلبته منك، لأنك أصبحت تظن أني ساعدتك لأنك كنت تستحق المساعدة، لأنك الأفضل، وأنه يجب على الجميع أن يعترفوا بموهبتك تلقائياً، جيد، أقول لك شكراً جزيلاً وأطلب من شخص آخر كنت قد أودعت في حسابه ودائع مختلفة أيضاً؛ لكن منذ تلك اللحظة سيعرف الجميع، دون أن يتعين عليّ أن أقول كلمة واحدة، بأنه لا يمكن الوثوق بك.

«وعندها لن تبلغ إلا إلى نصف ما بلغته، وبالتأكيد لن تكبر إلى الحد الذي كنت تطمح إليه. وفي نقطة محددة ستبدأ حياتك في الانحدار، وستبلغ منتصف الطريق، ولن تبلغ الطريق إلى منتهاه، وستكون نصف سعيد ونصف حزين، وسيعتريك الإحباط ولن تحقق ما كنت تصبو إليه. لن تكون بارداً ولا ساخناً، بل فاتراً، وكما يقول أحد الرسل في الكتاب المقدس: «لا طعم للأشياء الفاترة».

كان الناشر قد أودع ودائع كثيرة ـ أو اتصالات وعلاقات في حسابي في بنك ردّ الجميل. وكنت قد تعلّمت، وعانيت، وتُرجمت كتبي إلى اللغة الفرنسية. وكنت أعرف أن الترحيب بالغريب أحد تقاليد هذا البلد. ليس هذا فقط، بل إنهم يعتبرون أن الغريب نجاح هائل. وبعد عشر سنوات أصبحت أملك شقة كبيرة تطل على نهر السين، وأحبني قرائي ومقتني النقّاد (الذين كانوا يعشقون كتبي إلى أن وصلت مبيعات الطبعة الأولى من كتابي 100,000 نسخة، لكني منذ ذلك الحين لم أعد ذلك «العبقري الذي أسيء فهمه»). وكنت أردّ دائماً وفي الحال أيّة ودائع أُودعت في حسابي، وسرعان ما أصبحت مقرضاً أيضاً للاتصالات والعلاقات. وازداد نفوذي. تعلّمت أن أطلب ردّ الجميل وأسدي للآخرين معروفاً يطلبونه مني.

حصلت إستر على تصريح بالعمل كصحافية في فرنسا. وبالإضافة إلى الخلافات العادية التي تنشأ في أيّ زواج رضيت بذلك. وللمرة الأولى فهمت أن كلّ الاحباطات التي أصابتني في علاقات الحبّ والزيجات السابقة لم يكن لها علاقة بالنساء، بل بإحساسي بالمرارة. إلا أن إستر كانت المرأة الوحيدة التي فهمت شيئاً بسيطاً جداً وهو: أنه لكي أجدها يجب عليّ أولاً أن أجد نفسي. فقد مضى على وجودنا معاً ثماني سنوات، وكنت أعتقد أنها كانت حبّ حياتي، ومع أني كنت أحياناً (أو لكي أكون صادقاً، غالباً) أقع في حبّ كل امرأة أراها في طريقي، ولم تكن فكرة الطلاق واردة على

الإطلاق، لم أسألها أبداً إن كانت تعرف شيئاً عن علاقاتي بالنساء الأخريات. وهي لم تعلق ولا مرة واحدة على الموضوع.

هذا ما أدهشني عندما قالت لي ونحن نغادر السينما، أنها أخبرت المجلة التي تعمل فيها أنها تستطيع أن تكتب تقريراً عن الحرب الأهلية في أفريقيا.

«ماذا تقولين؟».

«أريد أن أكون مراسلة حربية».

«إنك مجنونة. يجب ألا تفعلي ذلك. إنك تقومين بالعمل الذي تريدين أن تقومي به. وتكسبين قدراً جيداً من المال ـ لذلك لست بحاجة إلى نقود كي تعيشين. ولديك جميع الاتصالات والعلاقات التي تحتاجين إليها في بنك ردّ الجميل. وتتمتعين بالموهبة، وتحظين باحترام زملائك».

«حسناً إذن، أريد أن أقول أني بحاجة لأن أكون وحدي».

«هل هذا بسببي؟».

«لقد بنينا حياتنا معاً. وأنا أحبّ زوجي وهو يحبّني، مع أنه ليس دائماً أكثر الأزواج إخلاصاً».

«لم تذكري ذلك من قبل».

«لأن ذلك لا يهمني. أقصد ما هو الوفاء؟ هل هو الشعور بأني أمتلك جسداً وروحاً وهما ليسا لي؟ هل تظن أني لم أنم مع رجال آخرين خلال كلّ هذه السنوات التي عشناها معاً؟».

«لا يهمني معرفة ذلك ولا أريد أن أعرف».

«حسناً، ولا أنا».

«إذاً، لماذا تريدين أن تكتبي عن حرب في إحدى بقاع الأرض المهجورة؟».

«كما قلت، لأني بحاجة إلى ذلك».

«ألم تحصلي على كلّ شيء تريدينه؟».

«لديّ كلّ شيء يمكن أن ترغب به المرأة».

«ما العيب في حياتك إذن؟».

«هنا بيت القصيد. لديّ كلّ شيء، لكني لست سعيدة. وأنا لست الوحيدة في هذا، فخلال هذه السنوات التقيت وأجريت مقابلات مع أشخاص من مختلف المشارب: أغنياء، فقراء، **أقوياء**، ومتوسطي الحال. وكنت أرى دائماً المرارة اللانهائية ذاتها في عيونهم جميعهم، حزن ليسوا مستعدين للاعتراف بوجوده دائماً، لكن، مهما قالوا لي، فقد كان موجوداً. هل تسمع؟».

«نعم، أسمع. لقد سرحت قليلاً. إذن، برأيك أنه لا يوجد أحد سعيد؟».

«يبدو أن بعض الناس سعداء، لكنهم لا يفكرون بالأمر كثيراً. ويضع آخرون خططاً: سأتزوج ويصبح لديّ زوج، وبيت، وطفلان، وبيت في الريف. وفيما ينهمكون في تحقيق ذلك يصبحون كالثيران التي تبحث عن مصارع لها: فهم يتفاعلون بالغريزة، يتخبطون، ويواصلون حياتهم، دون أن تكون لديهم أدنى فكرة في أين يكمن الهدف. يشترون سيارة، بل ويحصلون أحياناً على سيارة من طراز فراري، ويخيّل إليهم أن هذا هو معنى الحياة، ويأخذون الأمر بدون جدال وسؤال. ومع ذلك فإن عيونهم تفضح الحزن الذي لا يعرفون أنهم يحملونه في أرواحهم. هل أنت سعيد؟».

«لا أعرف».

«لا أعرف إن كان الجميع غير سعداء أم لا. ما أعرفه هو أنهم

مشغولون على الدوام: يعملون عملاً إضافياً، يقلقون على أطفالهم، على أزواجهم، على مهنهم، على شهاداتهم الجامعية، وعلى ما سيفعلونه في الغد، وما يحتاجون إلى شرائه، وما يحتاجون إليه كي لا يشعروا بعقدة النقص، وما إلى ذلك. في الواقع قال لي البعض: أنا حزين. لكن معظمهم كانوا يقولون: إني على ما يرام، فلديّ كلّ شيء كنت أرغب في الحصول عليه. فأسألهم: ما الذي يجعلك سعيداً؟ فيجيبون: لديّ كلّ شيء يمكن أن يرغب الإنسان في الحصول عليه: أسرة، بيت، عمل، صحة جيدة. فأسأله ثانية: هل توقفت ذات مرة وسألت نفسك إن كان هذا هو كلّ شيء في الحياة؟ فيأتي الجواب: نعم، هذا كلّ ما في الحياة. فأعود وأسأل بإلحاح: إذن فمعنى الحياة هو العمل، الأسرة، الأطفال الذين سيكبرون ذات يوم ويهجرونك، وزوجة أو زوج يصبح صديقاً أكثر من أن يكون حبيباً حقيقياً، وبالطبع سينتهي عملك ذات يوم أيضاً. فماذا ستفعل عندما يحدث ذلك؟ فيأتي الجواب: لا يوجد جواب. ويغيّرون الموضوع.

«لا، إن ما يقولونه هو: عندما يكبر الأطفال، وعندما يصبح زوجي - أو زوجتي - صديقاً أكثر منه حبيباً لاهباً، عندما سأتقاعد عندها سيتوافر لديّ الوقت لأفعل ما كنت أرغب في أن أفعله طوال حياتي: السفر. وأسأل: لكن ألم تقل إنك سعيد؟ ألا تفعل ما كنت ترغب في أن تفعله دائماً؟ فيقولون إنهم مشغولون جداً ويغيّرون الموضوع.

«وإذا ألححت فهم يثيرون دائماً الموضوع الذي يفتقدونه. فرجل الأعمال لم يعقد بعد الصفقة التي كان يسعى إليها، وربّة البيت تريد أن تحصل على قدر أكبر من الاستقلالية وعلى مزيد من المال، والصبي العاشق يخشى أن يفقد صديقته، والخريج الجديد يتساءل إن كان قد اختار مهنته أم أنها اختيرت له، فطبيب الأسنان كان يريد أن يكون مغنياً، والمغني كان يريد أن يكون سياسياً، والسياسي كان يريد أن يكون كاتباً، والكاتب كان يريد أن يكون مزارعاً. بل وحتى

عندما تلتقي بشخص يفعل ما كان قد اختار أن يفعله هو فإن روحه تبقى في حالة من القلق والعذاب. إذ لم يجد أيضاً السلام والسكينة بعد. لذلك أسألك مرة أخرى: هل أنت سعيد؟».

«لا. فلديّ المرأة التي أحبها، المهنة التي طالما حلمت بها، الحرية التي يحسدني عليها كلّ أصدقائي، السفر، الشرف، المديح. لكن هناك شيء...».

«ما هو؟».

«ينتابني شعور بأني إذا توقّفت، فلن يعود للحياة معنى».

«ألا يمكنك أن تسترخي قليلاً. انظر إلى باريس، وأمسك يدي وردد هذه الكلمات: لقد حصلت على كلّ ما كنت أريده. الآن لنستمتع بما تبقى لنا من الحياة».

«أستطيع أن أنظر إلى باريس، وأمسك يدك، لكني لا أستطيع أن أردد هذه الكلمات».

«أراهنك بأن كلّ من يمرّ في هذا الشارع الآن يعتريه الشعور ذاته. فالمرأة الأنيقة الجميلة التي مرت من أمامنا الآن تمضي أيامها وهي تحاول أن توقف الزمن، فهي لا تكف عن مراقبة وزنها، لأنها تظن أن الحبّ يتوقف على جمالها ووزنها. انظر إلى الجانب الآخر من الشارع: رجل وامرأة مع طفليهما. يبدو أنهما يصبحان في غاية السعادة عندما يخرجان مع طفليهما، لكن العقل الباطن يجعلهما، في الوقت نفسه، في حالة دائمة من الرعب: فهما لا يكفان عن التفكير بالعمل الذي قد يفقدانه، بالمرض الذي يصيبهما، بالتأمين الصحي، بأن يُدهس أحد الأطفال. وفي محاولة منهما لصرف انتباههما يحاولان أن يجدا طريقة للتخلص من هذه المآسي، وحماية أنفسهما من العالم».

«والشحاذ عند الناصية؟».

«لا أعرف عنه شيئاً. فأنا لم أتحدث إلى شحاذ في حياتي. لا بد

أنه يمثل صورة البؤس، لكن عينيه، مثل عينيّ أيّ شحاذ، تبدوان وكأنهما تخفيان شيئاً. حزنه شديد الوضوح إلى درجة أني لا أستطيع أن أصدقه تماماً».

«ماذا تفتقدان؟».

«لا أعرف. أنظر إلى مجلات المشهورين حيث يبتسم الجميع ويبدون راضين وقانعين، لكني بما أني متزوجة شخصاً مشهوراً، فأنا أعرف أن الأمر ليس كذلك تماماً: ففي تلك الصورة الجميع يضحكون ويمضون وقتاً ممتعاً في تلك اللحظة، لكن في وقت لاحق من تلك الليلة، أو في الصباح، تصبح القصة مختلفة تماماً. ماذا يجب عليّ أن أفعل كي أواصل الظهور في هذه المجلة؟ كيف يمكنني أن أخفي الحقيقة بأني لم أعد أملك قدراً كافياً من المال كي أحافظ على أسلوب حياتي المترفة؟ كيف يمكنني أن أجعل أسلوب حياتي المترفة يبدو أكثر ترفاً من أي شخص آخر؟ فالممثلة الموجودة في الصورة معي والتي أبتسم وأحتفل معها قد تسرق جزءاً مما عندي غداً! هل أرتدي ثياباً أجمل من ثيابها؟ لماذا نبتسم في حين تكره إحدانا الأخرى؟ لماذا نبيع السعادة لقرّاء هذه المجلة ونحن في أشد التعاسة، عبيد الشهرة».

«إننا لسنا عبيد الشهرة».

«لا تخف فأنا لا أتحدّث عنا نحن».

«ماذا برايك إذن؟».

«قرأت منذ سنوات كتاباً يروي قصّة مثيرة. لنفترض أن هتلر كان قد انتصر في الحرب، وأباد جميع اليهود وتمكن من إقناع شعبه أنه يوجد فعلاً شيء مثل هذا الجنس المتفوق. عندها ستتغير كتب التاريخ، وبعد مائة سنة سيبيد ورثته جميع الهنود. وبعد ثلاثمائة سنة سيبيدون السود أيضاً. سيستغرق الأمر خمسمائة سنة، لكن آلة الحرب القوية ستنجح أخيراً في إزالة جميع الآسيويين من

على وجه الأرض أيضاً. فكتب التاريخ تتحدث عن المعارك التي شنّت ضد البربر منذ قديم الزمان، لكن لا أحد يقرأ بدقة لأن هذا عديم الأهمية.

وبعد ألفي سنة من ولادة النازية، وفي إحدى الحانات في طوكيو، المدينة التي يقطنها منذ خمسة قرون أناس طوال القامة، زرق العيون، يستمتع هانز وفريتز باحتساء كأسي بيرة. وفي إحدى اللحظات، ينظر هانز إلى فريتز ويسأله: فريتز، هل تظن أن الأمر كان هكذا دائماً؟».

«ماذا؟» يسأل فريتز.

«العالم».

«بالطبع كان العالم هكذا دائماً، أليس هذا ما تعلمناه؟».

«طبعاً، لا أعرف ما الذي جعلني أسأل مثل هذا السؤال الغبي. قال هانز. أنهيا احتساء البيرة، وأخذا يتحدثان عن أشياء أخرى ونسيا السؤال تماماً».

«لا يتعين عليك أن تنطلق بعيداً إلى المستقبل، ما عليك إلا أن تعود ألفيّ سنة إلى الماضي. هل تستطيع أن ترى نفسك تعبد مقصلة، أو منصة الإعدام، أو كرسياً كهربائياً؟».

«أفهم ما ترمي إليه ـ أسوأ شيء في التعذيب البشري هو الصليب ـ أذكر أن شيشرون كان قد قال عنه إنه «عقاب بغيض» يُنزِل ألماً فظيعاً في الشخص المصلوب قبل أن يموت، ومع ذلك يتخذه الناس الآن رمزاً ويضعونه حول رقابهم، ويعلقونه على جدران غرف نومهم، ونسوا أنهم ينظرون إلى إحدى آلات التعذيب البغيضة».

«ومرت مئتان وخمسون سنة قبل أن يقرر أحدهم أنه حان الوقت لإلغاء المهرجانات الوثنية التي تحتفل بالانقلاب الشتوي، وهي الفترة التي تصبح فيها الشمس على أبعد مسافة من الأرض.

فقد انهمك الحواريون، ومن جاء بعدهم بنشر رسالة المسيح ولم يكترثوا بالاحتفال بولادة الشمس الذي كان يصادف 25 كانون الأول. ثم قرر أحد الأساقفة أن هذه المهرجانات الشمسية تهدد الإيمان وهكذا كان! وأصبحنا نحتفل الآن بالقداس، ومشاهد ميلاد المسيح، والهدايا، والمواعظ، وأطفال من البلاستيك في مزاود خشبية، وترسخ لدينا الإيمان بأن المسيح ولد في ذلك اليوم بالذات».

«ثم جاءت شجرة عيد الميلاد. هل تعرفين من أين جاءت؟».

«لا أعرف».

«قرر القدّيس بونيفايس أن يمسّح أحد الطقوس المتبعة لتكريم الإله أودين عندما كان طفلاً. ففي كلّ سنة كانت القبائل الألمانية تضع هدايا حول شجرة بلّوط كي يجدها الأطفال. وكانوا يعتقدون أن هذا الأمر يُدخل البهجة إلى قلب الإله الوثني».

«بالعودة إلى قصّة هانز وفريتز: هل تظنين أن الحضارة، والعلاقات الإنسانية، وآمالنا، وغزواتنا، كلها نتاج قصص محرَّفة أخرى؟».

«عندما كتبت عن الطريق إلى سانتياغو توصلت إلى النتيجة ذاتها، أليس كذلك؟ كنت تظن أن قلة قليلة فقط تعرف معنى الرموز السحرية، لكنك أصبحت الآن تدرك أننا كنا نعرف جميعنا المعنى، لكننا نسيناه».

«لا تهم معرفة ذلك. إذ يبذل الناس كلّ ما بوسعهم كي لا يتذكّروا ولا يقبلوا الإمكانيات السحرية الهائلة التي يملكونها، لأن ذلك سيصيب كونهم الصغير الأنيق بالبلبلة والاضطراب».

«لكننا نملك جميعنا هذه القدرات، أليس كذلك؟».

«بالتأكيد، لكننا لا نملك جميعنا الشجاعة التي تجعلنا نتبع أحلامنا ونتبع الإشارات. ربما كان هذا مصدر الحزن».

«لا أعرف. ولا أقول إني لست سعيدة طوال الوقت. فإني أُمضي وقتاً ممتعاً، وأحبك، وأعشق عملي. لكن بين الحين والآخر أشعر بهذا الحزن العميق، يختلط أحياناً بمشاعر الذنب أو الخوف؛ ويزول هذا الإحساس، لكنه يعود دائماً في ما بعد، ثم يزول ثانية. ومثل هانز أسأل ذلك السؤال نفسه؛ وعندما لا أستطيع أن أجيب عنه، أنساه. يمكنني أن أذهب وأساعد الأطفال الذين يموتون جوعاً وأنشيء مؤسسة لرعاية الأطفال المشردين، وأحاول إنقاذ الناس باسم المسيح، أفعل شيئاً يمنحني الإحساس بأني مفيدة لكني لا أريد».

«إذاً لماذا تريدين الذهاب لتغطية هذه الحرب؟».

«لأني أظن أنه في زمن الحرب، يعيش الرجال على حافة الحياة؛ فقد يموتون في اليوم التالي. وأي شخص يعيش هكذا يجب أن يتصرّف على نحو مختلف».

«إذاً فإنك تريدين أن تجدي جواباً عن سؤال هانز؟».

«نعم».

اليوم، في هذا الجناح الجميل في فندق بريستول، والأضواء في برج إيفل تتلألأ مدة خمس دقائق كلما دقت الساعة تمام الساعة، وبجانبي زجاجة نبيذ فارغة، وسجائري تنفد بسرعة، ويحييني الناس كما لو أن شيئاً هاماً لم يحدث، سألت نفسي: هل بدأ كلّ شيء منذ أن خرجنا من السينما؟ هل كان عليّ أن أتركها تذهب وتبحث عن تلك القصة المحرّفة، أم كان عليّ أن أكون حاسماً معها وأطلب منها أن تنسى الفكرة كلها لأنها زوجتي ويجب أن تبقى معي، ولأني بحاجة إلى دعمها؟

هراء. كنت أعلم آنذاك، كما أعرف الآن، أنه لم يكن أمامي من خيار سوى أن أقبل ما كانت تريد أن تفعله. فلو قلت لها: «إما أنا وإما أن تصبحي مراسلة حربية» لخنت كلّ ما قامت به إستر من أجلي. ومع أني لم أكن مقتنعاً بهدفها المعلن ـ البحث عن «قصّة محرّفة» ـ فقد كنت أعرف أنها كانت بحاجة إلى شيء من الحرية، إلى أن تنطلق وتختبر مشاعر وتجارب جديدة. وما الضير في ذلك؟

قبلتُ، لكن ليس قبل أن أوضح لها أن هذا يعتبر انسحاباً من بنك ردّ الجميل (الذي أصبح يبدو لي الآن، عندما أفكر بذلك، أمراً تافهاً). فقد تعرضت إستر منذ سنتين لصراعات عنيفة، وكانت تتنقل وتغيّر القارات أكثر مما كانت تغيّر أحذيتها. وعندما كانت تعود كان يخيّل إليّ أن هذه المرة ستكون الأخيرة، فلا يمكن أن تعيش فترة طويلة في بقعة لا يتوافر فيها طعام جيد، ولا حمّام يومي، ولا

دور سينما أو مسارح. وكنت أسألها إن كانت قد وجدت الجواب عن سؤال هانز، فكانت تجيب دائماً بأن الأمور تسير على ما يرام وأن لا أقلق عليها. وفي بعض الأحيان، كانت تُمضي شهوراً كاملة وهي بعيدة عن البيت، بعكس ما يرد في «تاريخ الزواج الرسمي» (بدأت أستخدم المصطلح الذي كانت تستخدمه) بأن البُعد لا يقوّي دعائم حبنا، ولا يظهر مدى أهمية كلّ منا للآخر. وكانت علاقتنا، التي خيّل إليّ أنها كانت قد وصلت إلى ذروتها المثالية عندما انتقلنا إلى باريس، في تحسن مستمر.

وكما علمت فقد التقت بميخائيل عندما كانت بحاجة إلى مترجم يرافقها إلى بعض البلدان في آسيا الوسطى. وكانت في البداية تتحدث عنه بحماس زائد بأنه ـ شخص مرهف الحسّ، شخص يرى العالم كما هو بالفعل لا كما قيل لنا إنه يجب أن يكون. وكان يصغرها بخمس سنوات، لكنه يتمتع بصفة تميزه قالت إستر إنها «سحرية». كنت أصغي إليها بصبر وأدب، كما لو كنت مهتماً حقاً بذلك الشاب وبأفكاره، لكني كنت في واقع الأمر، أحلّق بعيداً عنها، وكانت تدور في رأسي جميع الأشياء التي كان يجب أن أفعلها، أفكار لكتابة مقالة، الإجابة عن أسئلة الصحافيين والناشرين، ووضع خطط بكيفية إغواء امرأة معيّنة كانت تُظهر اهتماماً بي، وخطط لترويج الكتاب في المستقبل.

لا أعرف إن كانت إستر قد لاحظت ذلك. وبالتأكيد لم أكن قد لاحظت أنها لم تعد تذكر ميخائيل في أحاديثنا. وبدأ سلوك إستر يزداد غرابة. فحتى عندما كانت في باريس كانت قد بدأت تخرج عدّة ليالي في الأسبوع، وكانت تقول إنها تجري أبحاثاً لكتابة مقال عن الشحاذين.

خيّل إليّ أنها كانت على علاقة حبّ. أحسست بالعذاب أسبوعاً كاملاً، وسألت نفسي: هل يجب أن أحدّثها عن شكوكي، أم أتظاهر وكأن شيئاً لم يحدث؟ قرّرت أن أتجاهل الأمر وفق المبدأ القائل «لا عين رأت، لا قلب يحزن». وكنت واثقاً من أنها لن تتركني؛ فقد بذلت جهداً كبيراً في مساعدتي كي أصبح ذلك الشخص الذي هو أنا الآن،

لذلك لم يكن من المنطقي أن تنسى كلّ ذلك من أجل علاقة عابرة.

لو كنت مهتماً حقاً بعالم إستر لتعينّ عليّ، على الأقل، أن أسأل ما حدث لمترجمها وحساسيته «السحرية» التي كان يتمتع بها. كان يجب أن أشكّ بذلك الصمت، بعدم الحديث عنه وعدم توافر معلومات عنه. كان يجب أن أطلب أن أرافقها إلى إحدى «رحلات البحث» تلك التي تزور فيها الشحاذين.

وحين كانت تسألني أحياناً إن كنت أهتم بعملها، كنت أجيبها دائماً بالردّ نفسه: «بالطبع إني أهتمّ، لكني لا أريد أن أتدّخل في عملك، أريدك أن تكوني حرة في تحقيق حلمك وأن تسلكي الدرب الذي اخترته لنفسك، تماماً كما ساعدتني في أن أفعل الشيء ذاته».

وبالطبع، كان هذا بمثابة القول إني لم أكن أبدي أيّ اهتمام. لكن بما أن الناس يصدقون ما يريدون أن يصدقوه فقد بدا أن إستر قد اقتنعت بجوابي هذا.

تذكرت الكلمات التي قالها لي المفتش عندما أطلق سراحي من الزنزانة: إنك رجل حرّ. لكن ما هي الحرية؟ هل هي أن تري أن زوجك لا يهتمّ بما تفعلينه؟ هل هي الشعور بالوحدة وأن لا يكون هناك أحد يشاركك في أعمق أعماق مشاعرك، لأن الشخص الذي تزوّجته يركّز جلّ اهتمامه على عمله، على مهنته الصعبة الرائعة المهمة؟

أعود وأنظر إلى برج إيفل: مرت ساعة أخرى، وعادت الأضواء تتلألأ كما لو كانت قطعة من الماس. لا أعرف كم مرّة حدث ذلك منذ أن كنت جالساً عند النافذة.

أعرف أني، باسم حرية زواجنا، لم ألحظ أن ميخائيل كان قد بدأ يختفي من أحاديث زوجتي شيئاً فشيئاً، ليعود ويظهر مرة أخرى في إحدى الحانات ويختفي ثانية، ليأخذها معه هذه المرة، وتهجر كاتباً مرموقاً تطبق شهرته الآفاق، ويصبح مشتبهاً رئيسياً.

بل والأسوأ من كلّ ذلك، أن يصبح رجلاً هجرته زوجته.

مسألة هانز



في بوينس آيرس، الظاهر عبارة عن قطعة نقدية معدنية متداولة تبلغ قيمتها 20 سنتافو، حيث اتخذ الحرفان ن و ت والرقم شكل سكين أو فتّاحة رسائل على أحد الوجهين، فيما نُقش على وجهها الآخر التاريخ 1929. (وفي غوجارات في نهاية القرن الثامن عشر، كان الظاهر نمراً؛ وفي جاوه كان رجلاً كفيفاً في مسجد سوراكارتا قام المؤمنون برجمه؛ وفي بلاد فارس كان عبارة عن أسطرلاب أمر الشاه نادر بإلقائه في البحر؛ وفي سجون المهدي قرابة العام 1892، كان عبارة عن بوصلة صغيرة لمسها رودولف كارل فون سلاتين بيده...).

مرّ عام كامل. أفقت وأنا أتذكر قصة خورخي لويس بورخيس، التي يتحدث فيها عن شيء لا يمكن أن يُنسى إذا ما لمسته اليدان أو وقعت عليه العينان، والذي يبدأ يستحوذ علينا وعلى أفكارنا شيئاً فشيئاً إلى أن نفقد عقلنا وندخل في مرحلة الجنون. أما ظاهري أنا فلم يكن مجازاً رومانسياً ـ كفيفاً، أو بوصلة، أو نمراً، أو قطعة نقود معدنية. بل كان شخصاً يحمل اسماً، واسمه إستر.

ما أن خرجت من السجن حتى كانت صوري تملأ أغلفة مختلف الصحف التي تعنى بالفضائح: فقد زعمت أنه توجد جريمة محتملة، ولكي لا يفضي زعمها هذا إلى أن أقاضيها، خَلُصتْ جميعها إلى

القول بأني قد بُرِّئت (بُرِّئت؟ فأنا لم أُتَّهم أصلاً كي أُبرأ). انتظرت هذه الصحف أسبوعاً لترى إن كان حجم مبيعاتها سيرتفع (بالفعل فقد ازداد حجم المبيعات، لأني كنت كاتباً يعلو على الشبهات، وكان الجميع يريدون معرفة كيف يمكن لرجل يكتب عن الروحانيات أن يكون في هذا الجانب المظلم). ثم عادت لتستأنف هجومها، وزعمت أن زوجتي هربت بسبب علاقاتي النسائية العديدة: بل وألمحت مجلة ألمانية إلى وجود علاقة محتملة بيني وبين مغنّية تصغرني عشرين عاماً، زعمت أنها التقت بي في أوسلو بالنرويج (وهذا صحيح، لكن اللقاء كان قد تم بسبب بنك ردّ الجميل، فقد طلب مني أحد الأصدقاء أن ألتقي هذه المغنية ولم يبارحنا طوال فترة العشاء). وصرحت المغنّية إنه لم تكن ثمة علاقة بيننا (إذن لماذا يضعون صورتنا على الغلاف؟) لكنها استغلت الفرصة لتعلن أنها في سبيلها إلى إطلاق ألبوم جديد: فقد استخدمتني أنا والمجلة، ولا أعرف حتى الآن إن كان الألبوم قد فشل بسبب هذه الدعاية الرخيصة. (لم يكن الألبوم سيئاً. بالمناسبة فإن ما دمّر كلّ شيء هو البيانات والتصريحات الصحفية).

لم تدم الفضيحة التي أثيرت عن الكاتب الشهير طويلاً. ففي أوروبا، ولا سيما في فرنسا، لا تُعد الخيانة الزوجية مقبولة فحسب، بل تحظى كذلك بالإعجاب سراً. ولا يريد أحد أن يقرأ عن شيء يمكن أن يحدث له بسهولة.

واختفى الموضوع من الأغلفة الأمامية، لكن الفرضيات لم تتوقف: فهي قد اختُطفت، غادرت البيت بسبب الإساءة الجسدية (صورة نادل يقول إننا كنا نتجادل ونتشاجر في معظم الأحيان: وبالفعل فإني أذكر أننا كنا قد تجادلنا أنا وإستر في أحد المطاعم حول رأيها بكاتب من أمريكا الجنوبية، الذي كان يخالف رأيي تماماً). وزعمت إحدى الصحف الشعبية البريطانية ـ ولحسن الحظ

لم ينطو ذلك على أية نتائج سلبية ـ بأن زوجتي التجأت إلى إحدى المنظمات الإرهابية الإسلامية.

وبما أن عالمنا هذا مليء بالخيانات، وحوادث الطلاق، وجرائم القتل، ومحاولات الاغتيال، فقد نسي الناس موضوعنا بعد شهر. وقد علمتني السنوات الكثيرة من التجربة بأن هذا النوع من المزاعم لن يؤثّر على قرّائي المخلصين (فقد حدث شيئاً من هذا القبيل في الماضي، عندما زعم صحافي في أحد البرامج التلفزيونية الأرجنتينية أن لديه «إثباتات» بأني كنت قد التقيت سراً في تشيلي بالمرأة التي ستصبح سيدة البلاد الأولى. ورغم ذلك فقد بقيت كتبي تتصدر قوائم الكتب الأكثر رواجاً). وكما قال فنان أمريكي: إن الملذات الحسية لا تدوم أكثر من خمس عشرة دقيقة. غير أن اهتمامي الرئيسي كان مختلفاً تماماً: وهو أن أعيد تنظيم حياتي، أن أجد حباً جديداً، أن أعود إلى تأليف الكتب، وأن أضع أية ذكريات عن زوجتي في الدرج الصغير على الحدود التي تفصل بين الحبّ والحقد.

أم هل يجب عليّ أن أقول ذكريات «زوجتي السابقة» (يجب أن أعتاد على استخدام هذه العبارة).

كان قد جرى جزء مما كنت أتوقعه في غرفة الفندق تلك. ولفترة من الزمن، لم أكد أغادر الشقّة: إذ لم أكن أعرف كيف أواجه أصدقائي، كيف أنظر في عيونهم وأقول لهم بكل بساطة: «لقد هجرتني زوجتي من أجل رجل يصغرني سناً». وعندما كنت أخرج من البيت لم يكن يسألني أحد شيئاً، لكن بعد بضعة كؤوس من النبيذ كنت أجد نفسي مضطراً لإثارة الموضوع ـ كما لو كان باستطاعتي أن أقرأ عقولهم، كما لو كنت أظن حقاً أنه لا يوجد شيء يشغلهم سوى ما يحدث في حياتي. لكن هل كانوا في غاية التهذيب، أم كانوا على درجة من الاعتداد بأنفسهم لا تسمح لهم أن يقولوا شيئاً عن هذا الموضوع. وحسب تقلبات مزاجي كنت أعتبر إستر قدّيسة تستحقّ

الأفضل، أو خائنة وغادرة، أوقعتني في هذا الوضع المعقّد الذي جعل الآخرين يعتقدون بأني مجرم.

في البداية كنت أنصت إلى الأصدقاء والمعارف والناشرين وممن كنت أجالسهم في حفلات العشاء التي كنت اضطر إلى حضورها بشيء من الفضول. لكني كنت ألاحظ أنهم كانوا يرغبون في أن يغيّروا الموضوع، لأنهم كانوا مهتمين بهذه القضية في الماضي، لكنها لم تعد تشغل حيزاً من فضولهم الآن: بل كانوا يُبدون اهتماماً أكبر بالتحدّث عن الممثلة التي قتلها أحد المغنين، أو عن الفتاة المراهقة التي ألّفت كتاباً عن علاقاتها الغرامية مع السياسيين المشهورين. وفي مدريد لاحظت ذات يوم أن عدد الزوّار الذين كانوا يحضرون المناسبات وحفلات العشاء قد بدأ يتناقص. ومع أنه قد يكون من الجيد بالنسبة لروحي أن أحرّر نفسي من مشاعري بأن أوّجه اللوم إلى إستر أو بأن أباركها، بدأت أدرك أني بدأت أتردى إلى حالة أسوأ حتى من حالة زوج مغدور: فقد بدأت أصبح ذلك الشخص المملّ الذي لا يريد أحد أن يجالسه.

ومنذ ذلك الحين قررت أن أتألم بصمت. ومرة أخرى بدأ سيل الدعوات يتدفق إلى صندوق بريدي.

أما *الظاهر*، الذي كنت أفكر فيه في البدء بشيء من الغضب أو بشيء من المودّة، فقد استمر يزداد نمواً في روحي. ورحت أبحث عن إستر في كلّ امرأة أصادفها. فقد بدأت تلوح لي في كلّ حانة، وفي كلّ دار سينما، وعند مواقف الحافلات. وكم من مرة طلبت إلى سائق التاكسي أن يتوقّف في منتصف الشارع، أو أن يتبع شخصاً ما لأتأكد أن ذلك الشخص ليس الشخص الذي أبحث عنه.

وعندما بدأ *الظاهر* يستحوذ على تفكيري بدأت أشعر بالحاجة إلى ترياق، إلى شيء لا يدفعني إلى حافة اليأس.

ولم يكن هناك سوى حلّ واحد وهو أن أتخذ لي خليلة.

التقيت بثلاث أو أربع نساء خيّل إليّ أني انجذبت إليهن. لكني عندما التقيت بماري، الممثلة الفرنسية التي لا تتجاوز الخامسة والثلاثين من العمر، اكتشفت أنها المرأة الوحيدة التي لم تكن تردد ذلك الهراء مثل: «أحبك كرجل، لا لأنك رجل مشهور يتمنى أن يلتقي به الجميع» أو «كم كنت أتمنّى أنك لم تكن مشهوراً جداً»، بل والأسوأ من كل ذلك عبارة «أنا لا أهتم بالمال». فقد كانت ماري المرأة الوحيدة التي أبدت سعادة حقيقية بنجاحي، لأنها كانت أيضاً مشهورة، وتعرف أن للشهرة أهميتها. فالشهرة مثيرة للشهوة. ومن الجيد لغرور المرأة أن تكون مع رجل، وأن تعرف أنه اختارها مع أنه اختار أخريات كثيرات قبلها.

بدأنا في أحيان كثيرة نُشاهد معاً في حفلات الاستقبال؛ وأثير لغط كثير عن علاقتنا، إلا أن أحداً منا لم يؤكد أو ينكر شيئاً، وتُركت المسألة معلقة، وكان كلّ ما تنتظره المجلات أن تنشر صورة القبلة الشهيرة التي لم تحدث أبداً، لأننا كنا نعتبر أن هذا الاستعراض في الأماكن العامة شيئاً سوقياً وغير جيد. واستمرت في تصوير الفيلم الذي كانت تمثّل فيه، وواصلت أنا عملي؛ وكلما كان بوسعي كنت أسافر إلى ميلانو، وكلما أتيح لها ذلك كانت تلتقي بي في باريس؛ كنا قريبين من بعضنا، لكن لم يصبح أحد منا عالة على الآخر.

وتظاهرت ماري بأنها لا تعرف شيئاً عما يعتمل في روحي، وتظاهرتُ بأني لا أعرف شيئاً عما يعتمل في روحها (حبّ مستحيل لجار متزوّج، مع أنه كان بوسعها أن تحظى بالرجل الذي تريده). كنا صديقين، رفيقين، وكنا نتمتع بالأشياء ذاتها. حتى أني يمكنني القول إنه كان يوجد بيننا نوع من الحبّ، لكنه حبّ مختلف عن الحبّ الذي كنت أكنّه لإستر، أو الحبّ الذي كانت ماري تكنّه لجارها.

عدت إلى المشاركة في حفلات توقيع كتبي، وبدأت أقبل الدعوات لإلقاء محاضرات، وكتابة مقالات، وحضور حفلات عشاء خيرية، والظهور في برامج تلفزيونية، والمساعدة في مشاريع

للفنانين الشبان الواعدين. لقد فعلت كلّ شيء إلا الشيء الذي كان يجب عليّ أن أفعله، وهو تأليف كتاب.

لكن ذلك لم يكن ذا أهمية بالنسبة لي، ففي أعماقي كنت أظن أن مهنتي ككاتب قد انتهت، لأن المرأة التي جعلتني أبدأ لم يعد لها وجود. لقد عشت حلمي إلى آخره، ونلت أكثر مما ناله الناس الأوفر حظاً، وكان بوسعي أن أمضي بقية حياتي في قضاء وقت ممتع.

كان ذلك يجول في رأسي صباح كلّ يوم. وفي فترة بعد الظهر كنت أدرك أن الشيء الوحيد الذي كنت أحبه حقاً هو الكتابة. وفي المساء كنت أحاول أن أقنع نفسي مرة أخرى بأني حققت حلمي وأني يجب أن أجرّب شيئاً جديداً.

كانت السنة التالية مقدّسة في إسبانيا، سنة القديس كومبوستيلانو، وهي السنة التي يصادف فيها يوم ولادة القديس جيمس كومبوستيلا 25 تموز، ويكون يوم أحد. ويظل باب خاص يفضي إلى الكاتدرائية في سانتياغو مفتوحاً لمدة 365 يوماً، ووفق التقاليد الشائعة ينال الشخص الذي يجتاز ذلك الباب سلسلة من البركات الخاصة.

وكانت هناك مناسبات تذكارية عديدة في إسبانيا في ذلك الحين. وبما أني كنت أشعر بامتنان شديد للحجّ الذي قمت به، قرّرت المشاركة في ما لا يقل عن مناسبة واحدة منها إلقاء محاضرة في شهركانون الثاني في الباسك. ولكي أخرج نفسي من الرتابة اليومية ـ محاولة أن أؤلف كتاباً/ أذهب إلى حفلة/ إلى المطار/ زيارة ماري في ميلانو/ الخروج للعشاء/ إلى فندق/ إلى المطار/ تصفّح الإنترنت/ الذهاب إلى المطار / إلى مقابلة / إلى مطار آخر ـ اخترت أن أقود وحدي مسافة 1400 كيلومتر.

وفي كل مكان كانت الأماكن التي لم أكن قد زرتها من قبل تذكّرني بظاهري. فقد كنت أفكّر كيف ستحبّ إستر رؤية هذا المكان، وكم ستجد متعة في تناول الطعام في هذا المطعم، أو تتمشى على ضفة هذا النهر. أمضيت الليلة في بايون، وقبل أن أخلد إلى النوم، فتحت التلفاز وعلمت أنه يوجد قرابة خمسة آلاف شاحنة عالقة على

الحدود بين فرنسا وإسبانيا، بسبب عاصفة ثلجية عنيفة لم تكن متوقعة على الإطلاق.

استيقظت وقلت لنفسي يجب أن أعود إلى باريس: أصبح لديّ عذر مقنع جداً لإلغاء ارتباطي، ومن المؤكد أن المنظمين سيتفهمون ذلك حق الفهم ـ فقد كانت تعتري حركة المرور فوضى شديدة، وكان الجليد يكسو الطرقات وقد نصحت الحكومتان الفرنسية والإسبانية الناس بعدم مغادرة بيوتهم في عطلة نهاية الأسبوع هذه بسبب ارتفاع إمكانية خطر وقوع حوادث. كان الوضع أسوأ مما كان عليه في الليلة الماضية: وأفادت الصحيفة الصباحية أن سبعة عشر ألف شخص كانوا محصورين على امتداد طريق واحد فقط، وأنه تمت تعبئة فرق الدفاع المدني لتزويد هؤلاء الناس بالطعام وبأجهزة تدفئة مؤقتة، لأن الوقود قد نفد من عدد كبير منهم ولم يعد باستطاعتهم استخدام أجهزة التدفئة في سياراتهم.

وقال لي موظف الاستقبال في الفندق إنه إذا كان يتوجب عليّ حقاً أن أسافر، وإذا كانت المسألة مسألة حياة أو موت، فهناك طريق فرعي يمكنني أن أسلكه، والذي، بما أني سأتفادى العوائق، سيزيد من فترة رحلتي قرابة ساعتين، ولا يمكن لأحد أن يضمن ما ستكون عليه حالة الطريق. وغريزياً قررت أن أمضي في رحلتي. كان ثمة شيء يدفعني إلى ذلك، إلى الإسفلت المكسو بالجليد وإلى ساعات الانتظار بصبر في هذه الطرق الضيقة.

لعله كان اسم المدينة: فيتوريا ـ النصر. لعله كان الشعور الذي اعتدت عليه بالاسترخاء والراحة الذي أفقدني القدرة على إيجاد حل سريع وقت الأزمات. ربما كان الحماس الذي يعتري الناس الذين يحاولون، في هذه اللحظة، ترميم كاتدرائية شيدت منذ عدة قرون، والذين وجهوا الدعوة إلى عدد قليل من الكتّاب ليلقوا محاضرات كي يلفتوا الانتباه إلى جهودهم. أو ربما كان المثل القديم الذي كان

المغامرون الذين احتلوا الأمريكيتين يرددونه: «ليست الحياة التي تهمّ، بل ما يهّم هو الرحلة نفسها».

لذلك واصلت طريقي. وبعد ساعات طويلة مشحونة بالتوتر وصلت إلى فيتوريا، حيث كان عدد من الناس ينتظرونني بتوتر شديد. وقالوا إنه لم تحدث عاصفة ثلجية كهذه منذ أكثر من ثلاثين سنة، وشكروني لأني تجشمت عناء هذه الرحلة، وواصلت البرنامج الرسمي الذي كان يشمل زيارة إلى كاتدرائية سانتا ماريا.

أخذت صبية ذات عينين براقتين تروي لي القصة. ففي البداية كان هناك سور المدينة الذي بقي، لكن جزءاً منه استخدم في بناء كنيسة صغيرة. وبعد عدة سنوات أصبحت الكنيسة الصغيرة كنيسة كبيرة. ومرّ قرن آخر وأصبحت الكنيسة كاتدرائية قوطية. وكانت للكاتدرائية أيام مجدها، وحدثت مشاكل في البنى الأساسية، فهجرها الناس لفترة من الزمن، ثم شوّهت أعمال الترميم الشكل الكامل للبناء، لكن كان يخيّل لكل جيل أنه تمكن من حلّ المشكلة، ويقوم بترميمها وفق المخطط الأصلي. وخلال القرون التي أعقبت ذلك أقام الناس سوراً هنا، وهدموا عموداً هناك، وأضافوا دعامة هنا، وأقاموا نوافذ ذات زجاج ملون هناك.

وقد صمدت الكاتدرائية في وجه كلّ ذلك.

رحت أتمشى داخل هيكل الكاتدرائية، أتمعن في أعمال الترميم القائمة حالياً: وهذه المرة كان المصمّمون على ثقة بأنهم وجدوا الحلّ المثالي. فقد كانت تنتصب في كل مكان دعائم معدنية، سقالات، نظريات كبيرة عما يتوجب عمله في المرحلة التالية، وقليل من الانتقاد حول ما تم إنجازه في الماضي.

وفجأة، وفيما كنت واقفاً وسط صحن الكنيسة، أدركت شيئاً في غاية الأهمية: أن الكاتدرائية هي أنا، هي نحن جميعنا. فجميعنا نكبر وتتغير أشكالنا، ونلاحظ بعض نقاط الضعف التي يجب

تصحيحها، ولا نختار دائماً أفضل الحلول، لكننا نواصل حياتنا دون أن نكترث، ونحاول أن نظل منتصبي القامة ومحترمين، كي لا نكرّم الجدران أو الأبواب أو النوافذ، بل الفراغ في الداخل، المكان الذي نعبد فيه ونبجّل أغلى وأهم ما لدينا.

نعم، جميعنا كاتدرائيات. لا مراء في ذلك، لكن ماذا يقبع في فضاء كاتدرائيتي الداخلية؟

إستر، *الظاهر*.

إنها تملأ كلّ شيء. إنها السبب الوحيد الذي يجعلني على قيد الحياة. أنظر حولي، أهيّئ نفسي للمحاضرة التي سألقيها، وأفهم لماذا تحدّيت الثلج، واكتظاظ المرور، والجليد الذي يكسو الطرق: كي أتذكر أني بحاجة في كلّ يوم لأعيد بناء نفسي ولأقبل للمرة الأولى في حياتي كلها أني أحبّ إنساناً آخر أكثر مما أحبّ نفسي.

وفي طريق عودتي إلى باريس ـ كان الطقس جيداً ـ كنت منتشياً: لم أكن أركّز على حركة المرور فقط. وعندما وصلت إلى البيت، طلبت من الخادمة أن لا تُدخل أحداً، وسألتها إن كان بإمكانها أن تمكث معي بضع ليال وتعد لي طعام الفطور والغداء والعشاء. ركلت الجهاز الصغير الذي يوصلني بالإنترنت، ودست فوقه وحطّمته بالكامل، وفصلت الهاتف، ووضعت هاتفي الخليوي في صندوق وأرسلته إلى ناشري، وطلبت منه أن لا يعيده إليّ إلا عندما آتي إليه شخصياً وأطلبه منه.

وطوال أسبوع رحت أتمشى كلّ صباح على ضفاف السين، ولدى عودتي كنت أحبس نفسي في غرفة مكتبي. وكما لو كنت أنصت إلى صوت ملاك رحت أكتب كتاباً، أو رسالة، رسالة طويلة إلى امرأة أحلامي، إلى المرأة التي طالما أحببتها، وسأظل أحبها دائماً. فلعل هذا الكتاب يقع في يدها ذات يوم، وحتى لو لم يقع في يدها، فقد أصبحت الآن رجلاً في سلام مع روحه. فلم أعد أصارع

كبريائي المجروح، ولم أعد أبحث عن إستر في كلّ ناصية، في كلّ حانة وفي كل دار للسينما، وفي كلّ حفل عشاء. لم أعد أبحث عنها في ماري أو في الصحف.

بل بالعكس، كنت سعيداً بوجودها، فقد أظهرت لي أني قادرٌ على حبّ لم أكن أعرف عنه شيئاً، وقد جعلني هذا في حالة من النعمة والراحة.

لقد قبلت *الظاهر*، وسأتركه يأخذني إلى حالة من القدسية أو الجنون.

«وقت للفتق ووقت للرتق» استمديت هذا العنوان من سطر من «سِفْر الجامعة» ـ نُشر في أواخر نيسان ـ وبحلول الأسبوع الثاني من شهر أيار، كان يتصدر قوائم الكتب الأكثر رواجاً.

زادت الملاحق الأدبية، التي لم تمتدحني قط، من شدة هجومها عليّ. اقتطعتُ بعض العبارات الرئيسية وألصقتها في دفتر ملاحظات مع مراجعات كتب من سنوات سابقة. كانت تردد بشكل رئيسي الشيء ذاته، ولم تغيّر سوى عنوان الكتاب:

«... مرة أخرى، ورغم الأوقات الصعبة والمضطربة التي نعيشها، يجعلنا المؤلف نهرب من الحقيقة برواية قصة عن الحبّ...» (كما لو أن بإمكان البشر أن يعيشوا بدون حبّ).

«... جمل قصيرة، أسلوب سطحي...» (كما لو أن الجمل الطويلة تعني العمق).

«... اكتشف المؤلف سرّ النجاح ـ التسويق...» (كما لو كنت قد ولدت في بلد يتمتع بتقليد أدبي طويل وأملك الملايين كي أستثمر في كتابي الأول).

«... سيباع كما بيعت جميع كتبه الأخرى، التي تثبت فقط كيف أن البشر غير مستعدين لمواجهة المأساة التي تحيط بهم...» (كما لو كانوا يعرفون ما معنى أن يكون المرء مستعداً).

غير أن بعض المراجعات عرضت الأمر على نحو مختلف، إذ أضافت أني أستغل فضيحة السنة الماضية لأجمع مزيداً من المال. وكما هو الحال دائماً، لم تسفر هذه المراجعات السلبية إلا عن زيادة مبيعات كتبي: ففي جميع الأحوال كان قرّائي يشترون الكتاب، أما الذين نسوا أعمالي فقد تذكّروها مرة أخرى واشتروا نسخاً منه، لأنهم كانوا يريدون أن يسمعوا قصة اختفاء إستر مني (بما أن الكتاب لم يكن عن ذلك، لكنه كان أنشودة حبّ، فلا بد أن يكونوا قد أصيبوا بخيبة أمل شديدة، ولا شكّ أنهم سيقولون إن النقاد محقين). وعلى الفور بيعت حقوق الكتاب إلى جميع البلدان التي كانت تُنشر فيها كتبي عادة.

أما ماري، التي قرأت المخطوطة المطبوعة على الآلة الكاتبة قبل أن أبعث بها إلى الناشر، فقد أثبتت أنها المرأة التي كنت أتمناها: فبدلاً من أن تعتريها الغيرة، أو تقول إنه لم يكن يتعين عليّ أن أفتح قلبي هكذا، شجّعتني على المضي قدماً، وسعدت كثيراً عندما حققت نجاحاً. وكانت حينها تقرأ تعاليم أحد الصوفيين الذي لم يكن معروفاً كثيراً، والذي اقتبست منه في جميع أحاديثنا.

«عندما يمتدحنا الناس يجب أن نراقب أنفسنا دائماً كيف نتصرّف».

«لم يمتدحني النقّاد أبداً».

«أعني قرّاءك: فقد تلقيت عدداً من الرسائل أكثر من أي وقت مضى. وسيُدخل ذلك في روعك أنك أفضل مما أنت في حقيقة الأمر، وستترك نفسك تنزلق في مهاوي إحساس مزيّف بالأمان، الذي قد يكون شديد الخطورة».

«منذ زيارتي إلى الكاتدرائية في فيتوريا بدأت أظن أني أفضل مما كان يخيّل إليّ، لكن لا علاقة لهذا برسائل القرّاء. ومع أن الأمر قد يبدو سخيفاً فقد اكتشفت الحبّ».

«عظيم. إن ما أحببته في الكتاب في الحقيقة أنك لم تنحِ باللائمة على زوجتك السابقة. كما لم تلمْ نفسك».

«لقد تعلّمت ألاّ أضيّع وقتي في عمل ذلك».

«جيد. إن الكون يقوم بتصحيح أخطائنا».

«إذاً هل تظنين أن اختفاء إستر كان نوعاً من التصحيح؟».

«أنا لا أؤمن بالقوى التي تشفي المعاناة والمأساة، فهي تحدث لأنها جزء من الحياة ويجب أن لا تُعتبر عقاباً. بشكل عام فإن الكون يعلمنا متى نكون مخطئين عندما يأخذ منا أهم الأشياء التي نملكها: أصدقاءنا. ويخيّل إليّ أني كنت محقة في قول ما حدث لك».

«لقد تعلّمت شيئاً مؤخراً: إن أصدقاءنا المخلصين هم الذين يكونون معنا عندما تحدث لنا الأشياء الجيدة. فهم يشجعوننا ويفرحون لانتصاراتنا. أما الأصدقاء المزيفون فلا يظهرون إلا في الأوقات العصيبة، بوجوههم الداعمة الحزينة، عندما تساعد معاناتنا، في الواقع، في مواساتهم على حياتهم البائسة. فعندما كانت الأمور سيئة في السنة الماضية ظهر أشخاص مختلفون لم يسبق لي أن رأيتهم لمواساتي. إني أكره ذلك».

«لقد حدث لي الشيء ذاته».

«لكني أشعر بالامتنان الشديد لأنك دخلت إلى حياتي يا ماري».

«لا تكن شديد الامتنان بهذه السرعة، فعلاقتنا ليست متينة بما يكفي. وفي الواقع فإني أفكّر بالانتقال إلى باريس، أو أن أطلب منك أن تأتي لنعيش في ميلانو: فلن يتأثر عمل أيّ منا. إذ إنك تعمل دائماً في البيت، وأنا أعمل دائماً في بلد آخر. هل تريد أن نغيّر الموضوع الآن أم نستمرّ في مناقشة هذا الأمر كاحتمالية؟».

«أودّ أن نغيّر الموضوع».

«إذن فلنتحدّث عن شيء آخر. لقد أخذ تأليف ذلك الكتاب منك الكثير من الشجاعة. وما يدهشني أنك لا تذكر الشابّ ولا مرّة».

«إنه لا يهمني».

«يجب أن يهمك. يجب أن تسأل نفسك بين الحين والآخر: لماذا اختارته؟».

«لم أسأل نفسي أبداً هذا السؤال».

«إنك تكذب. فمن المؤكد أني أحبّ أن أعرف لماذا لم يطلّق جاري زوجته المبتسمة المملّة، المنشغلة دائماً بالعمل المنزلي والطهي والأطفال والفواتير. فإذا كنت أسأل نفسي ذلك يجب أن تسأل نفسك أيضاً...».

«هل تقصدين أني أكرهه لأنه سرق زوجتي؟»

«لا، أريد أن أسمعك تقول إنك سامحته».

«لا أستطيع أن أفعل ذلك».

«أعرف أنه أمر صعب، لكنّ ليس أمامك خيار. فإذا لم تفعل ذلك لن تكف عن التفكير بالألم الذي سببه لك، وهذا الألم لن يزول. لا أعني أنك يجب أن تحبّه، ولا أقصد أنك يجب أن تبحث عنه، ولا أقترح أنك يجب أن تعتبره ملاكاً. ماذا كان اسمه الآن؟ إنه اسم روسي، أليس كذلك؟»

«لا يهمّ ما اسمه».

«أترى؟ إنك لا تريد حتى أن تذكر اسمه. هل تؤمن بالخرافات؟».

«ميخائيل. هذا هو اسمه».

«لن توصلك طاقة الكراهية إلى شيء؛ أما طاقة التسامح والمغفرة، التي تكشف عن نفسها من خلال الحبّ، فستحوّل حياتك بطريقة إيجابية».

«تتكلمين الآن كأحد حكماء التيبت، تتحدثين عن أشياء رائعة نظرياً، لكنها مستحيلة في الحياة العملية. لا تنسي أني طعنت».

«تماماً، وما تزال تحمل في داخلك الصبي الصغير، ذلك الصبي الضعيف في المدرسة، الذي كان عليه أن يخفي عن أبويه دموعه. إنك ماتزال تحمل آثار ذلك الصبي الصغير النحيل الذي لم يتمكن من مصادقة فتاة، والذي لم يتقن أيّ نوع من أنواع الرياضة. أنت لم تستطع أن تشفي الندوب التي خلفها فيك الظلم الذي مورس عليك في حياتك. لكن ما نفع كلّ ذلك؟».

«من قال لك ذلك؟».

«أعرف. أستطيع أن أرى ذلك في عينيك، ولن يجديك ذلك نفعاً.

كلّ ما تفعله هو أنك تغذّي باستمرار الرغبة في أن تشعر بالأسى على نفسك، لأنك كنت ضحيّة أناس أقوى منك. أو أنها تجعلك تذهب إلى الطرف الآخر، وتخفي نفسك كمنتقم على استعداد للقضاء على الناس الذين سببوا لك الأذى. أليس هذا مضيعة للوقت؟».

«إنه مجرد شعور إنساني».

«أوه، نعم، لكنه ليس بالشيء الذكي أو المعقول. أظهر شيئاً من الاحترام للزمن الذي تعيشه على هذه الأرض، واعلم أن الله قد غفر لك دائماً، وسيغفر لك على الدوام».

فيما كنت أتطلع حولي إلى الحشد الذي تجمّع لتوقيع كتابي في إحدى المكتبات الكبيرة في الشانزليزيه، قلت لنفسي: كم من هؤلاء عاش ذات التجربة التي عشتها مع زوجتي؟

قليل جداً. ربما كان شخصاً أو شخصين. ومع ذلك فإن معظمهم سيعتريه ذات الشعور الذي ورد في كتابي الجديد.

الكتابة إحدى أكثر النشاطات الفردية في العالم. إذ أجلس إلى الكمبيوتر مرة كلّ سنتين، أحدّق في بحر روحي المجهول، وأشاهد بضع جزر - أفكار انبثقت وأينعت وحان وقت سبرها واستكشافها. ثم أصعد إلى مركبي - الذي يدعى الكلمة - وأنطلق إلى أقرب جزيرة. وفي الطريق أواجه تيارات عاتية، رياح، وعواصف، لكني لا أتوقف عن التجذيف منهكاً، وأنا أعرف أني حدت عن مساري الذي كنت قد اخترته لنفسي ولم تعد الجزيرة التي كنت أحاول بلوغها أفقي وغايتي.

لم يعد بإمكاني أن أعود، ومع ذلك كان يتعين عليّ أن أواصل طريقي بأي شكل، وإلاّ تهت في عرض المحيط. وفي تلك اللحظة، لمعت في رأسي سلسلة من السيناريوهات المرعبة، مثل أن أُمضي ما تبقى من حياتي وأنا أتحدث عن أوجه النجاح التي حققتها في الماضي، أو أنتقد بحدّة كتاباً أعدت نشره، لأنه لم تعد لديّ الشجاعة لنشر كتب جديدة. ألم أكن أحلم في أن أصبح كاتباً؟ إذاً يجب أن

أستمرّ في استنباط جمل، وفقرات، وفصول، وأواصل الكتابة حتى أموت، وأن لا أدع نفسي أقع في فخاخ كالنجاح أو الفشل. وإلا ما معنى حياتي؟ أن يكون بوسعي أن أشتري طاحونة قديمة في جنوب فرنسا، وأقوم برعاية حديقتي؟ أن ألقي محاضرات لأن الكلام أسهل من الكتابة بكثير؟ أن أنسحب من العالم بطريقة غامضة محسوبة، لكي أخلق أسطورة من شأنها أن تحرمني من العديد من المتع؟

بعد أن هزتني هذه الأفكار المفزعة، وجدت القوة والشجاعة اللتين لم أكن أعرف أني كنت أمتلكهما: فهما تساعداني في المجازفة وولوج جزء مجهول من روحي. أدع التيار يجرفني وألقي بمرساتي أخيراً في الجزيرة التي جُرفت إليها. أمضي أياماً وليالٍ أصف ما أراه، وأتساءل لماذا أفعل ذلك، أقول لنفسي إن ذلك ليس جديراً بالألم والجهد، وبأني لست بحاجة لأن أثبت شيئاً لأحد، بأني نلت ما كنت أصبو إليه، بل وأكثر بكثير مما كنت أحلم به.

لاحظت أني كنت أمرّ في التجربة نفسها التي مررت بها عندما كتبت كتابي الأول: أستيقظ في الساعة التاسعة صباحاً، وأجلس أمام كمبيوتري فور انتهائي من تناول طعام الفطور، ثم أقرأ الصحف، وأخرج لأتمشى، وأتوجه إلى أقرب حانة لتجاذب أطراف الحديث، ثم أعود إلى البيت، وألقي نظرة على الكمبيوتر، وأكتشف أني يجب أن أجري عدّة مكالمات هاتفية، وأنظر إلى الكمبيوتر مرة أخرى، ويصبح بعدها طعام الغداء جاهزاً، فأجلس لتناول طعامي وأقول لنفسي إني يجب حقاً أن أبدأ الكتابة في الساعة الحادية عشرة، لكني أحتاج إلى شيء من القيلولة الآن. أستيقظ في الخامسة مساء، وأفتح الكمبيوتر أخيراً، لأقرأ رسائلي الإلكترونية، لكني أتذكّر أني كنت قد قطعت جميع اتصالات الإنترنت؛ ويمكنني أن أذهب إلى مكان يبعد مسيرة عشر دقائق حيث أستخدم الإنترنت، لكن ألا يمكنني، لكي أحرر ضميري من مشاعر الذنب هذه، أن أكتب لنصف ساعة على الأقل؟

أشرع في الكتابة بدافع من الإحساس بالواجب، لكن فجأة يستحوذ عليّ «الشيء»، ولا أعود أستطيع أن أتوقف. تدعوني الخادمة إلى تناول طعام العشاء لكني أطلب منها ألا تقاطعني. وبعد ساعة تدعوني مرة أخرى. أشعر بالجوع هذه المرة، لكن يجب أن أكتب سطراً آخر، جملة أخرى، صفحة أخرى. وعندما أجلس إلى المائدة يكون الطعام قد برد. أروح ألتهمه بسرعة لأعود إلى الكمبيوتر ـ لأعود أسيطر على المكان الذي كنت أضع فيه قدمي، فقد انكشفت لي الجزيرة، ودُفعت في دربها، ووجدت أشياء لم أكن أفكّر أو أحلم بها. أحتسي كوباً من القهوة، ثم كوباً آخر، وفي الساعة الثانية صباحاً أتوقّف عن الكتابة أخيراً لأني أشعر بإجهاد في عينيّ.

آوي إلى الفراش، وأُمضي ساعة أخرى وأنا أدون ملاحظات عن أشياء كي استخدمها في الفقرة التالية ـ ملاحظات يتبين دائماً أنها عديمة الفائدة، لا تسهم إلا في إفراغ رأسي حتى يغالبني النعاس ـ وأعد نفسي بأني سأبدأ الكتابة في الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي. وفي اليوم التالي، يحدث الشيء ذاته: أتمشى، أحاديث، تناول طعام الغداء، القيلولة، الإحساس بالذنب، ثم الانزعاج لأني أوقفت جميع اتصالات الإنترنت، إلى أن أجلس أخيراً وأكتب الصفحة الأولى...

فجأة، يمر أسبوعان، ثلاثة، أربعة، أحد عشر أسبوعاً، وأعرف أني على وشك النهاية. يتملكني إحساس بالفراغ، الإحساس الذي ينتاب الشخص الذي يدوّن كلمات كان يجب أن يحتفظ بها لنفسه. مع أنه ينبغي لي الآن أن أصل إلى الجملة النهائية، وقد فعلت ذلك.

عندما كنت أقرأ سير الكتّاب الذاتية، كان يخيّل إليّ أنهم يحاولون جعل مهنتهم تبدو أكثر إثارة عندما يقولون «إن الكتاب يكتب نفسه، والكاتب مجرد طابع». وأصبحت أعرف الآن أن هذا صحيح تماماً، إذ لا يعرف أحد لماذا جرفهم التيار إلى تلك الجزيرة

بالذات، وليس إلى الجزيرة التي كانوا يريدون بلوغها. وتبدأ العملية الاستحواذية المتمثلة في إعادة الصياغة والتحرير، وعندما لا أعود أستطيع احتمال قراءة الكلمات ذاتها مرة أخرى، أبعث بها إلى ناشري حيث يحررها للمرة الثانية، ينشرها.

وما يثير دهشتي دائماً أني أكتشف أن أشخاصاً آخرين كانوا يبحثون أيضاً عن تلك الجزيرة بالذات ويجدونها في كتابي. ويُعلِم شخص شخصاً آخر عنه، وتنمو السلسلة الغامضة، وما كان الكاتب يظن أنه ممارسة فردية منعزلة يصبح جسراً، قارباً، وسيلة يمكن فيها للأرواح أن تسافر وتتواصل.

ومنذ ذلك الحين لم أعد ذلك الرجل الذي تاه في وسط العاصفة: إذ كنت أجد نفسي من خلال قرّائي، وأفهم ما أكتبه عندما أرى أنهم يفهمونه أيضاً. وفي مناسبات نادرة، كالمناسبة التي توشك أن تحدث، أستطيع أن أنظر في عيون هؤلاء الناس لأعرف أن روحي ليست وحيدة.

بدأت توقيع الكتاب في الموعد المحدد. ثمة تواصل قصير جداً ومباشر بالعين وإحساس بالتضامن والبهجة والاحترام المتبادل. ثمة مصافحات، بضع رسائل، هدايا، تعليقات. وبعد انقضاء تسعين دقيقة طلبت استراحة لمدة عشر دقائق. لم يبدِ أحد تذمراً، وطلب ناشري (كما أضحى ذلك أمراً تقليدياً في حفلات توقيع كتبي في فرنسا) أن تقدم الشمبانيا لكلّ من كان مايزال واقفاً في الرتل. (حاولت أن أطبّق هذا التقليد في بلدان أخرى، لكنهم كانوا يقولون دائماً إن الشمبانيا الفرنسية غالية، لذلك كانوا يقدمون بدلاً عنها مياهاً معدنية. إلا أن ذلك يظهر أيضاً احتراماً للأشخاص الذين مايزالون ينتظرون أن أوقعّ لهم على الكتاب).

عدت إلى الطاولة. وبعد ساعتين، وعلى نحو غير متوقع، لم

أكن متعباً، بل كنت مفعماً بالطاقة والحيوية؛ وكان بوسعي أن أواصل عمل ذلك طوال الليل. أغلقت المكتبة أبوابها وبدأ عدد الناس يتناقص. كان هناك أربعون شخصاً داخل المكتبة، ثم أصبحوا ثلاثين، ثم عشرين، ثم أحد عشر، ثم خمسة، ثم أربعة، ثم ثلاثة، ثم اثنان... وفجأة التقت عيوننا.

«انتظرت كي أكون آخر شخص. لقد أردت أن أبقى حتى الأخير لأن لديّ رسالة أريد أن أسلمها لك».

لم أعرف ماذا أجيب. نظرت إلى جانبي، إلى الناشر، إلى القائمين على المبيعات، وإلى بائعي الكتب، الذين كانوا جميعهم يتحدثون بحماس. إذ كنا قد اتفقنا على الخروج لنتناول الطعام والشراب، ونتحدث عن الأشياء الغريبة التي جرت خلال توقيعي للكتاب.

لم أكن قد رأيته من قبل، لكني عرفت من هو على الفور. أخذت الكتاب منه وكتبت: «إلى ميخائيل، مع أطيب التمنيات».

لم أنبس بكلمة. يجب ألا أفقده، فقد تجعله أي كلمة، أو جملة، أو أي حركة مفاجئة يخرج ولا يعود أبداً. وبلمح البصر، فهمت أنه هو، وهو فقط، الذي يمكنه أن ينقذني من نعمة ـ أو لعنة ـ *الظاهر*، لأنه الشخص الوحيد الذي يعرف مكان وجودها، وسيصبح بوسعي أخيراً أن أطرح الأسئلة التي ما فتئت أكرّرها على نفسي منذ أمد بعيد.

«أريدك أن تعرف أنها بخير، بل وربما ستقرأ كتابك».

اقترب الناشر، والقائمون على المبيعات، وبائعو الكتب. عانقوني جميعهم وقالوا إن حفل التوقيع كان رائعاً. فلنذهب ونحتسي قليلاً من الشراب ونتحدث عما جرى.

قلت: «أودّ أن أدعو هذا الشابّ إلى العشاء. فقد كان آخر شخص في الرتل، ويمكنه أن يمثّل جميع القرّاء الآخرين الذين كانوا معنا اليوم».

«أخشى أني لا أستطيع، فلديّ ارتباط آخر».

استدار نحوي، وأضاف بقليل من الدهشة: «لقد أتيت لأعطيك هذه الرسالة».

«أيّ رسالة؟» سأل أحد القائمين على المبيعات.

فقال الناشر: «إنه لا يدعو عادة أحداً... هيا، لنذهب جميعنا ونتعشّ».

«إنه لطف كبير منك، لكن عندي اجتماع يجب أن أحضره كلّ يوم خميس».

«متى يبدأ؟».

«بعد ساعتين».

«أين يقع؟».

«في مطعم أرمني».

سأله سائقي الأرمني عن المطعم فقال إنه لا يبعد سوى خمس عشرة دقيقة من المكان الذي سنتناول فيه طعامنا. بذل الجميع ما بوسعهم لإدخال البهجة إلى نفسي: فقد كانوا يظنون أنه يجب أن يكون الشخص الذي أدعوه إلى العشاء سعيداً ومسروراً لهذا الشرف الذي منحته إياه، وأنه يمكنه أن يؤجل أي شيء آخر.

«ما اسمك؟» سألته ماري.

«ميخائيل».

«حسناً، يا ميخائيل»، ورأيت أن ماري قد فهمت كلّ شيء، «لماذا لا تصحبنا لساعة من الزمن، فالمطعم الذي سنذهب إليه قريب من هنا. ثم سيوصلك السائق حيثما أردت. وإن كنت تفضّل يمكننا أن نلغي حجزنا ونذهب جميعنا ونتعشى في المطعم الأرمني ذاك. وبهذه الطريقة لن تقلق».

لم أرفع عينيّ عنه. لم يكن وسيماً، ولا قبيحاً. ولم يكن طويلاً ولا قصيراً. كان يرتدي ثياباً سوداء، بسيطة وأنيقة - وأعني بالأنيقة أنه لم يكن يرتدي ثياباً تحمل ماركات شهيرة.

شبكت ماري ذراعها بذراع ميخائيل وسارت به نحو باب الخروج. كان مايزال أمام بائع الكتب كومة من الكتب التي تنتظر توقيعي للقرّاء الذين لم يتمكنوا من المجيء لتوقيعها بأنفسهم، لكني وعدت بأني سآتي في اليوم التالي. كانت ساقاي ترتعشان، وقلبي يخفق بقوة، ومع ذلك كان عليّ أن أتظاهر بأن كلّ شيء كان على ما يرام، وبأني كنت سعيداً بنجاح حفل توقيع الكتاب، وبأني أبدي اهتماماً بما كان يقوله الآخرون. اجتزنا الشانزليزيه وكانت الشمس قد بدأت تميل إلى الغروب وراء قوس النصر، ولسبب ما أحسست بأنّ هذه إشارة، إشارة جيدة.

ما دمت أستطيع أن أسيطر على الموقف.

لماذا كنت أرغب في محادثته؟ سألني الناشر وأجبته بصورة تلقائية. لم يلحظ أحد أني كنت ساهماً، وأني أبذل جهدي لأفهم السبب الذي جعلني أدعو شخصاً إلى العشاء كان من المفترض أن أكنّ له الكراهية. هل أريد أن أعرف مكان وجود إستر؟ هل أريد أن أنتقم من هذا الشابّ، الضائع، الذي لا يشعر بالأمان، ومع ذلك فقد تمكّن من إغواء الشخص الذي أحبّه؟ هل أريد أن أثبت لنفسي بأني أفضل، أفضل منه بكثير؟ هل أريد أن أرشوه، أغويه، أجعله يقنع زوجتي بأن تعود إليّ؟

لم أتمكن من الإجابة عن أيّ من هذه الأسئلة، ولم يكن ذلك مهماً. وكان الشيء الوحيد الذي كنت قد قلته حتى ذلك الحين هو: «أودّ أن أدعو هذا الشابّ إلى العشاء». كنت قد تخيّلت هذا المشهد كثيراً من قبل: نلتقي، أمسك بتلابيبه، ألكمه، أوّجه له الإهانات أمام إستر، أو أضربه وأجعلها ترى كم أني أقاتل من أجلها، وأكابد في سبيلها. كنت قد تخيّلت كثيراً مشاهد الاقتتال، أو كنت أتظاهر

باللامبالاة أو بفضيحة عامة، لكن عبارة «أودّ أن أدعو هذا الشابّ إلى العشاء» لم تخطر ببالي من قبل.

لم يكن ثمة حاجة لأن أسأل ماذا سأفعل بعد ذلك، فكلّ ما يجب أن أفعله الآن هو أن أراقب ماري بدقة، التي سبقتني ببضع خطوات، وهي ممسكة بذراع ميخائيل، كما لو كانت صديقته. ولم تكن تدعه يذهب، ومع ذلك رحت أتساءل، في أثناء ذلك، لماذا تساعدني وهي تعرف أن اللقاء بهذا الشابّ يعني أيضاً أني سأكتشف مكان زوجتي.

وصلنا إلى المطعم. حرص ميخائيل على أن يجلس بعيداً عني. لعله كان يريد أن يتحاشى الدخول معي في حديث. ضحك وشمبانيا وفودكا وكافيار ـ ألقيت نظرة على قائمة الطعام، واعتراني الفزع عندما رأيت أن صاحب المكتبة قد أنفق قرابة ألف دولار على المقبلات فقط. دارت أحاديث عامة. سُئل ميخائيل عن رأيه بحفل التوقيع فقال إنه كان جيداً. وسُئل عن الكتاب، فقال إنه استمتع به كثيراً. ثم نُسي وجوده، وتوّجه الاهتمام إليّ ـ هل كنت سعيداً بالطريقة التي سارت فيها الأمور، هل أعجبني تنظيم الرتل، وهل كان فريق الأمن عند حسن ظني؟ كان قلبي مايزال يخفق، لكني تمالكت أعصابي وظللت هادئاً. شكرتهم على كلّ شيء، وعلى الكفاءة التي أداروا بها حفل التوقيع في مساء ذلك اليوم.

وبعد نصف ساعة من الحديث، والكثير من الفودكا لاحقاً، لاحظت أن ميخائيل قد بدأ يسترخي ويشعر بالراحة. فلم يعد مركز الاهتمام، ولم يكن يتعين عليه أن يقول الكثير، بل كان كلّ ما عليه أن يفعله هو أن يتحمّل الوضع لفترة أطول قليلاً، وعندها يمكنه أن يذهب. كنت أعرف أنه لم يكن يكذب بشأن المطعم الأرمني، لذلك كوّنت فكرة على الأقل. وقلت إنه لا بد أن زوجتي ماتزال في باريس! وكان عليّ أن أتظاهر بأني ودود، وأحاول أن أحوز على ثقته، فقد تلاشت التوتّرات الأولية.

مرت ساعة. نظر ميخائيل إلى ساعته وكان بإمكاني أن أرى

أنه كان على وشك المغادرة. كان يجب أن أفعل شيئاً ـ الآن. وفي كلّ مرّة كنت أنظر فيها إليه، كان إحساسي بالتفاهة يزداد، ولم أفهم كيف يمكن لإستر أن تستبدلني بشخص يبدو تافهاً لا قيمة له (كانت قد ذكرت أنه يتمتع بقوة «سحرية»). ومهما بلغت صعوبة التظاهر بأني مرتاح تماماً وأنا أتحدث مع شخص هو عدوي، كان عليّ أن أفعل شيئاً.

«دعونا نعرف المزيد عن قارئنا»، قلت، وساد الصمت على الفور، «فهو على وشك أن يغادرنا، ولم يكد يحدثنا شيئاً عن حياته. ماذا تعمل؟».

رغم كؤوس الفودكا التي شربها بدا ميخائيل فجأة أنه استعاد رصانته.

«إني أنظّم اجتماعات في المطعم الأرمني».

«وما هي هذه الاجتماعات؟».

«أقف على المسرح وأحكي قصصاً. وأترك أشخاصاً من الحضور يحكون قصصهم أيضاً».

«أفعل الشيء ذاته في كتبي».

«أعرف، بهذه الطريقة التقيت أولاً...».

وكان على وشك أن يقول بمن التقى!

«هل ولدت هنا؟» سألته ماري، لتوقفه عن إكمال جملته.

«لقد ولدت في بوادي كازاخستان».

كازاخستان. من هو الشجاع الذي سيسأل أين تقع كازاخستان؟

«أين تقع كازاخستان؟» سأل ممثل المبيعات.

مباركون هم الذين لا يخشون الاعتراف بأنهم لا يعرفون شيئاً ما.

«كنت أنتظر أن يطرح أحد هذا السؤال»، وبدت في عينيّ ميخائيل نظرة فرح، «عندما أقول أين ولدت، يقول الناس بعد حوالى عشر دقائق بأني من باكستان أو أفغانستان... يقع بلدي في آسيا الوسطى. ولا يكاد يبلغ عدد سكانه أربعة عشر مليون نسمة، ومساحته أكبر بكثير من مساحة فرنسا التي يزيد عدد سكانها عن ستين مليوناً».

«إذاً فهو مكان لا يمكن فيه لأحد أن يعترض على ضيق المكان»، قال ناشري مازحاً.

«إنه مكان لم يكن يحق لأحد خلال القرن الماضي أن يتذمر فيه من أيّ شيء، حتى لو رغب في ذلك. فعندما ألغى النظام الشيوعي الملكية الخاصة هُجِّرت الماشية، ومات 48,6 في المائة من السكان. هل تفهمون ماذا يعني ذلك؟ أي أن ما يقرب من نصف سكان بلدي قضوا جوعاً بين العامين 1932 و 1933».

ساد صمت. مع ذلك تقف المآسي في طريق الاحتفالات، وحاول أحد الحاضرين أن يغيّر الموضوع. لكني أصرّيت على أن يحدّثنا «قارئي» المزيد عن بلده.

سألته: «كيف تصف لنا البادية؟».

«إنها سهول شاسعة، لا يكاد ينبت فيها زرع، وأنا متأكّد من أنك تعرف ذلك».

أعرف، لكن جاء دوري لأطرح سؤالاً، كي يتواصل الحديث.

«لقد تذكّرت الآن شيئاً عن كازاخستان» قال الناشر: «منذ فترة أرسل لي كاتب يعيش هناك مخطوطة مطبوعة على الآلة الكاتبة، يصف فيها الاختبارات الذرّية التي تُجرى في البادية».

«تربة بلادنا مروية بالدم وروحها جريحة. لقد غيّرت تلك الاختبارات ما لا يمكن أن يتغيّر، وسندفع الثمن لأجيال عديدة قادمة. حتى أننا تسببنا في اختفاء بحر بكامله».

جاء دور ماري في الكلام.

«لا يمكن لأحد أن يجعل بحراً يختفي».

«أنا في الخامسة والعشرين من عمري، وهذه هي الفترة، جيل واحد فقط، التي استغرقتها عملية تحول المياه الموجودة منذ آلاف السنين إلى تراب. فقد قرر المسؤولون في النظام الشيوعي تحويل نهرين، أمو داريا وسير داريا، لريّ بعض مزارع القطن. أخفقوا، لكن بعد فوات الأوان فلم يعد للبحر وجود، وتحولت الأرض المزروعة إلى صحراء.

«لقد أثّر شحّ الماء على المناخ برمته. وتنتشر حالياً عواصف رملية واسعة 150,000 طناً من الملح والغبار في كلّ سنة. وقد تأثر خمسون مليون شخص في خمسة بلدان بقرار البيروقراطيين السوفييت المستهترين، الذي لم يكن قابلاً للنقض. أما القدر القليل المتبقي من المياه، فهو ملوّث وأصبح مصدراً لجميع أنواع الأمراض».

دوّنتُ ملاحظة عقلية عما كان يقول. فلعلها تفيدني في إحدى المحاضرات التي ألقيها. تابع ميخائيل، ولم تعد نبرة صوته فنية، بل مأساوية.

«يقول جدّي إن بحر آرال كان يسمى في الماضي بالبحر الأزرق، بسبب لون مياهه. ومع أنه لم يعد له وجود، فقد رفض الناس هجر منازلهم والانتقال إلى أماكن أخرى: فهم مايزالون يحلمون بالأمواج والأسماك، وما زالوا يمتلكون قصبات صيد السمك، وما زالوا يتحدّثون عن المراكب».

«لكن هل الاختبارات الذرّية صحيحة؟» سأله ناشري.

«أظن أن كلّ من ولد في بلدي ينتابه الإحساس نفسه الذي ينتاب الأرض، لأن كلّ كازاخي يحمل أرضه في دمه. ولمدة أربعين عاماً كانت سهول البادية تهتز بسبب القنابل النووية أو القنابل

النووية الحرارية التي بلغ مجموعها 456 قنبلة في العام 1989. ومن بين تلك الاختبارات أجري 116 اختباراً في العراء، تزيد قوتها ألفين وخمسمائة مرة على قوة القنبلة التي ألقيت على هيروشيما أثناء الحرب العالمية الثانية. ونتيجة لذلك أصيب آلاف الناس بالتلوث الإشعاعي وأصيبوا بسرطان الرئة، بينما ولد آلاف الأطفال وهم مصابون بعوز الحركة، وبدون أطراف، أو مشاكل عقلية».

نظر ميخائيل إلى ساعته.

«الآن، إن لم يكن لديكم مانع، يجب أن أذهب».

أحسّ نصف المتحلقين حول المائدة بالأسف، فقد بدأ الحديث يصبح مثيراً للاهتمام. وكان النصف الآخر سعيداً: ومن السخف التحدث عن مثل هذه الأشياء المأساوية في هذه المناسبة السعيدة.

ودّع ميخائيل الجميع بإيماءة من رأسه وعانقني، لا لأنه كان يشعر بمودّة معيّنة نحوي، بل ليهمس في أذني:

«كما قلت لك، إنها بخير. لا تقلق».

قال: «لا تقلق». لماذا أقلق من أجل امرأة هجرتني؟ فبسببها استجوبتني الشرطة، وانتشر الخبر على جميع الصفحات الأولى لصحف الفضائح، وبسببها أمضيت كلّ تلك الأيام والليالي الممضة، وفقدت جميع أصدقائي تقريباً و...».

«... وكتبت «وقت للفتق ووقت للرتق». هيا، فكلانا بالغان راشدان، ونتمتع بالكثير من التجربة والخبرة في الحياة. هيا لا تجعلنا نخدع أنفسنا. بالطبع إنك تريد أن تعرف كيف حالها. وفي الحقيقة سأمضي أبعد من ذلك وأقول إنك تريد أن تراها».

«إذا كنت متأكّدة تماماً من ذلك فلماذا ساعدتني في إقناعه لمرافقتنا إلى العشاء؟ الآن أصبحت أعرف مفتاح اللغز: فهو يظهر كلّ يوم خميس في ذلك المطعم الأرمني».

«أعرف. من الأفضل أن تتابع ذلك».

«ألا تحبينني؟».

«أكثر من البارحة وأقل من الغد، كما هو مكتوب في تلك البطاقات البريدية التي يمكنك أن تشتريها من محلات بيع القرطاسية. نعم، طبعاً أحبك. إني عاشقة متيمة إن كنت تريد أن تعرف. حتى أني أفكر في أن أغيّر عنواني وآتي لأعيش في شقتك الفارغة الضخمة هذه، لكني عندما أقترح ذلك فإنك تغيّر الموضوع دائماً. ومع ذلك

فقد نسيت كبريائي، وأحاول أن أوضح لك مدى أهمية هذه الخطوة بأن نعيش معاً، وأنت تردد أنه لم يحن الوقت لذلك بعد؛ ربما كنت تخشى أن تفقدني كما فقدت إستر، أو ربما كنت ماتزال تنتظر عودتها، أو ربما كنت لا تريد أن تفقد حريتك، أو كنت تخشى في الوقت نفسه من العيش وحيداً وتخاف من أن تعيش برفقة أحد - باختصار، علاقتنا مصيبة تامة. لكن بما أنك تسأل الآن فإن جوابي هو: أحبّك كثيراً».

«لماذا ساعدتني إذن؟».

«لأني لا أستطيع أن أعيش إلى الأبد مع شبح امرأة غادرت دون أن تفسر سبب مغادرتها. لقد قرأت كتابك. أظن أن قلبك لن يصبح لي حقاً إلا إذا وجدتها وحلّيت هذا اللغز. هذا ما حدث للجار الذي كنت أحبه. كنت قريبة منه بشكل جعلني أتمكن من رؤية كم كان جباناً عندما يتعلق الأمر بعلاقتنا، كيف أنه لم يكن قادراً على الالتزام بالشيء الذي كان يريد أن يفعله من كلّ قلبه، وكان يشعر دائماً أن ذلك يشكل له خطراً كبيراً. كنت تردد غالباً أنه لا توجد حرية مطلقة، وأن الشيء الموجود هو حرية أن تختار شيئاً ثم تلتزم بالقرار الذي اتخذته. وكلما اقتربت أكثر من جاري كنت ازداد إعجاباً بك: رجل قرّر أن يستمر في حبّ زوجته التي هجرته، والتي لم تعد ترغب في أن تعيش معه. إنك لم تقرر أن تفعل ذلك فحسب، بل أعلنت قرارك على الملأ. هذا ما تقوله في كتابك؛ إنه مقطع حفظته عن ظهر قلب:

«عندما لم يعد لديّ شيء أخسره، مُنحت كلّ شيء. وعندما توقّفت عن أن أكون من أنا، وجدت نفسي. ومع أني أُهنت واصلت سيري، وفهمت أني كنت حراً في اختيار قدري. ربما كان ثمة خلل فيّ، لا أعرف، ربما كان زواجي حلماً لم أستطع أن أفهمه، لكنه استمر. كلّ ما أعرفه هو أني رغم قدرتي على العيش بدونها، فماأزال أريد أن أراها، لأقول لها ما لم أقله عندما كنا معاً: أحبّك أكثر مما أحبّ نفسي. لو استطعت قول ذلك، لتمكنت من مواصلة العيش في سلام مع نفسي، لأن ذلك الحبّ أعتقني».

«قال لي ميخائيل إن إستر ربما قرأت كتابي، وهذا يكفي».

«ربما، لكن بالنسبة لك، كي تتمكن من حبها تماماً يجب أن تعثر عليها وتخبرها بذلك في وجهها. قد لا يكون ذلك ممكناً، وقد لا تريد أن تراك، لكنك تكون قد حاولت على الأقل. سأتحرر أنا من المرأة المثالية، وتتحرر أنت من الوجود المطلق الذي تدعوه الظاهر».

«إنك امرأة تتحلين بالشجاعة».

«لا، لست شجاعة. لكن ليس أمامي من خيار».

في صباح اليوم التالي أقسمت أن لا أبذل أي محاولة لمعرفة المكان الذي تعيش فيه إستر. فمنذ سنتين كنت أفضّل لا شعورياً أن أعتقد أنها أرغمت على المغادرة، وأنها اختطفت، أو أن جماعة إرهابية قد ابتزتها. أما الآن، وبعد أن عرفت أنها ماتزال على قيد الحياة، وتتمتع بصحة جيدة (كما أعلمني الشاب)، فلماذا يتعين عليّ أن أحاول أن أراها ثانية؟ فمن حقّ زوجتي السابقة أن تبحث عن السعادة، ويجب عليّ أن أحترم قرارها.

استمرت هذه الفكرة تجول في رأسي قرابة أربع ساعات. وبعد ظهر ذلك اليوم ذهبت إلى كنيسة، وأضأت شمعة، ووعدت وعداً آخر، هذه المرة وعداً طقسياً مقدّساً: وهو أن أحاول العثور عليها. كانت ماري محقة. فقد وصلتُ إلى عمر لم يعد بإمكاني أن أستمرّ في خداع نفسي، وأزعم أني لا أعير أهمية لذلك. فقد احترمت قرارها في أن تتركني، إلا أن الشخص الذي ساعدني في بناء حياتي كاد يحطمني. لقد كانت دائماً تتحلى بالشجاعة. لكن لماذا هربت، هذه المرة، مثل لصّ في الليل، دون أن تواجه زوجها وتشرح له سبب مغادرتها؟ فقد أصبحنا كلينا في سن يجعلنا نتصرّف ونكون مسؤولين عن نتائج عملنا: إذ لم يكن سلوك زوجتي (أو بالأحرى زوجتي السابقة) مبرراً، وأريد أن أعرف السبب.

مرّ أسبوع آخر ـ دهر ـ قبل «العرض» في المطعم. وكنت قد

وافقت في الأيام القليلة التي أعقبت ذلك على إجراء مقابلات، لم أكن لأقبل أن أجريها عادة. وكتبت عدة مقالات صحيفة، ومارست اليوغا والتأمل، وقرأت كتاباً عن رسّام روسي، وكتاباً آخر عن جريمة ارتكبت في نيبال، وكتبت مقدّمات لكتابين، وتوصيات لأربعة كتب أخرى، وهو الشيء الذي كان الناشرون يطلبونه مني دائماً، وكنت أرفضه عادة.

كان مايزال أمامي الكثير من الوقت، لذلك قرّرت أن أسدد بضعة ديون عليّ في بنك ردّ الجميل: قبول دعوات للعشاء، إلقاء محاضرات قصيرة في المدارس حيث يدرس أولاد بعض الأصدقاء، زيارة نوادي الغولف، توقيع كتاب في مكتبة في أفنيو دي سوفرين يملكها أحد الأصدقاء (وضع إعلاناً على الواجهة الزجاجة قبل ثلاثة أيام وجاء عشرون شخصاً). ولاحظت سكرتيرتي أني كنت سعيداً جداً، لأنها لم ترني نشيطاً بهذا الشكل منذ زمن بعيد؛ وقلت إن وجود كتاب على قائمة الكتب الأكثر روَاجاً شجّعني على العمل أكثر من المعتاد.

شيئان اثنان لم أفعلهما في ذلك الأسبوع. الأول، لم أقرأ أيّ مخطوطة من المخطوطات التي أُرسلت لي دون أن أطلب ذلك: فحسب محاميّ، يجب أن أعِيدها فوراً إلى مرسليها، وإلا فإني أجازف بأن يدّعي عليّ أحدهم بأني انتحلت إحدى قصصه. (لا أفهم لماذا يرسل لي الناس مخطوطاتهم ـ فأنا لست ناشراً).

والثاني، لم أنظر في الأطلس لأعرف أين تقع كازاخستان، مع أني كنت أعرف أني يجب أن أحاول معرفة المزيد عن موطن ميخائيل لأكسب ثقته.

الناس ينتظرون بفارغ الصبر أن يُفتح الباب المفضي إلى الغرفة الكائنة خلف المطعم، الذي لا يتمتع بسحر الحانات التي تنتشر في سان جيرمان دي بري، ولا يقدم القهوة مع كأس من الماء، ورواده ليسوا من الطبقة الراقية. ولا يتمتع بفخامة ردهات المسارح، ولا بسحر العروض الأخرى التي تقدم في الحانات الصغيرة في أرجاء المدينة، حيث يبذل الممثلون قصارى جهدهم، أملاً في أنّ يكون أحد متعهدي الحفلات المشهورين بين صفوف الجمهور، ويعرّفهم على نفسه في نهاية العرض، ويقول لهم إنهم كانوا رائعين، ويدعوهم لتقديم عروضهم في أحد المراكز الفنية الهامة.

وصدقاً، لم أستطع أن أفهم سبب امتلاء المكان إلى هذه الدرجة: فلم أر إعلاناً عنه في المجلات التي تعلن عن أماكن الترفيه والفنون في باريس.

فيما كنت أنتظر أخذت أتكلم إلى صاحب المطعم الذي قال إنه يزمع أن يحوّل المطعم إلى مسرح.

وقال: «إن عدد الأشخاص الذين أصبحوا يرتادون المطعم يتزايد باستمرار في كلّ أسبوع. لقد وافقت مبدئياً لأن صحافياً كان قد طلب مني معروفاً، وقال إنه سينشر بالمقابل مقالاً في المجلة

التي يعمل فيها يتحدث فيه عن مطعمي. كما أنه نادراً ما تُستخدم الغرفة أيام الخميس، وبينما ينتظر الناس، يتناولون وجبة طعام. في الحقيقة أرجو أن أجمع قدراً من المال يوم الخميس أكبر من أيّ ليلة أخرى من ليالي الأسبوع. والشيء الوحيد الذي يشغل بالي هو أن الممثلين قد يكونوا منتمين إلى طائفة ما. فكما تعرف فإن القوانين هنا صارمة جداً».

نعم، أعرف. حتى أن بعض القراء ألمحوا إلى أنّ كتبي ذات وجهة فلسفية خطيرة، فيها خيط من التعاليم الدينية التي تتعارض مع القيم المقبولة عموماً. وقد أصاب فرنسا، المتحررة جداً عادة، شيء من الذعر حول هذا الموضوع. فقد صدر مؤخراً تقرير طويل عن عملية «غسل الدماغ» التي تمارس على بعض الناس غير الواعين. كما لو كان بوسع هؤلاء الناس أن يمارسوا جميع الخيارات الأخرى المتعلقة بالمدرسة، والجامعة، ومعجون الأسنان، والسيارات، والأفلام، والأزواج، والزوجات، والأحبة، لكن عندما يتعلق الأمر بالإيمان، فإنه يتم التلاعب بعقولهم بسهولة.

«وكيف يعلنون عن هذه الأحداث؟» سألته.

«لا أعرف. لو كنت أعرف لاستخدمت الشخص نفسه كي يروّج لمطعمي».

ولإزالة أية شكوك، بما أنه لا يعرف من أنا، أضاف: «بالمناسبة إنها ليست طائفة. بل فهم مجرد ممثلين».

كان باب أحد الغرف مفتوحاً. وبدأ الناس يتدفقون، يضعون خمسة يورو في سلة صغيرة. وفي الداخل، كان يقف بهدوء على خشبة المسرح المرتجلة، شابان وشابتان، يرتدون جميعهم تنورات بيضاء منشّاة بشدة كي تزداد بروزاً. وبالإضافة إلى هؤلاء الأربعة

كان هناك رجل مسن يحمل طبلاً أفريقياً، وامرأة تحمل صناجاً برونزياً ضخماً مغطى بزينات ويصدر رنيناً؛ وفي كلّ مرّة كانت تُلمس هذه الآلة ينبعث منها صوت كالمطر المعدني.

كان ميخائيل أحد هذين الشابين، مع أنه بدا لي شخصاً مختلفاً تماماً عن الشخص الذي رأيته عند توقيع الكتاب: فقد كانت عيناه المثبتتان على نقطة معينة في الفضاء تشعّان وميضاً خاصاً.

جلس الجمهور على كراسي متناثرة داخل الغرفة. شبان وشابات يرتدون ثياباً لو رأيتهم في الشارع لظننت أنهم من متعاطي المخدّرات. مديرون متوسطو العمر، أو موظفون حكوميون مع زوجاتهم. بضعة أطفال في التاسعة أو العاشرة من العمر، ربما كانوا بصحبة آبائهم. وآخرون مسنون، الذين لا بدّ أنهم بذلوا جهداً كبيراً للقدوم إلى هنا، بما أن أقرب محطة مترو كانت تبعد مسافة خمسة شوارع.

كانوا يشربون، يدخنون، ويتحدثون بصوت مرتفع، كما لو أنه لم يكن هناك وجود للأشخاص على المسرح. وعندما كانت الأحاديث تزداد شيئاً فشيئاً كان يعلو الضحك؛ كان جواً احتفالياً حقيقياً. طائفة دينية؟ ربما كانت جمعية خيرية من المدخنين. أتطلع حولي بعينين قلقتين، وخيّل إليّ أني سأتمكن من رؤية إستر بين النساء الموجودات هنا، حتى لو لم يكن ثمة أي تشابه جسدي على الإطلاق بينهن وبين زوجتي. (لماذا لم أتعوّد أن أقول زوجتي السابقة؟).

أسأل امرأة ترتدي ثياباً أنيقة عن العرض. بدا أنها لم تكن ترغب في الردّ، بل نظرت إليّ كما لو كنت مبتدئاً، شخصاً يجب أن يتعلم ألغاز «قصص الحبّ»، وقالت «عن القصص والطاقة».

القصص والطاقة. ربما كان من الأفضل أن لا أتابع الموضوع، مع أن المرأة بدت طبيعية جداً. خطر لي أن أسأل شخصاً آخر، لكني

قرّرت أخيراً أنه من الأفضل أن ألوذ بالصمت، وعندها سأعرف كلّ شيء بنفسي. كان يجلس بجانبي رجل. نظر إليّ وابتسم:

«لقد قرأت كتبك، ولهذا فأنا أعرف سبب وجودك هنا».

دهشت. هل يعرف العلاقة بين ميخائيل وزوجتي - يجب أن أصحّح نفسي مرة أخرى - العلاقة بين شخص على المسرح وزوجتي السابقة؟

«لا بد أن مؤلفاً مثلك يعرف عن تينغري. إنهم يرتبطون بحميمية مع ما تطلق عليه أنت «فرسان النور»».

فقلت: «طبعاً»، وشعرت بالارتياح.

يخيّل إليّ أني لم أسمع شيئاً عن تينغري في حياتي.

بعد عشرين دقيقة، وبعد أن أصبح هواء الغرفة مثقلاً بدخان السجائر، سمعنا صوت الصنج النحاسي. ومن المثير للإعجاب، هو توقف الأحاديث فجأة، وبدا أن الجوّ الفوضوي قد أحيط بهالة دينية. وخيّم صمت مطبق على الجمهور وعلى المسرح. وكانت الأصوات التي يمكن سماعها هي الأصوات المنبعثة من المطعم المجاور.

بدأ ميخائيل، الذي كان يبدو وكأنه في غيبوبة وهو يحدّق في نقطة ما بعيداً، يقول:

«حسب أسطورة الخلق المنغولية: كان يوجد كلب برّي، أزرق ورمادي اللون ورفيقته الظبية».

بدا صوته مختلفاً الآن، يشي بمزيد من الأنوثة والثقة.

«وهكذا بدأت قصة حبّ أخرى. الكلب البرّي بشجاعته وقوته، والظبية بنعومتها ورقتها، وحدسها ورشاقتها. التقى الصياد والطريدة معاً وأحبّ أحدهما الآخر. وحسب قوانين الطبيعة كان على أحدهما أن يقضي على الآخر، لكن لا يوجد في الحبّ جيد ولا شرّ، لا يوجد بناء ولا دمار، بل كلّ ما هنالك حركة. والحبّ يغيّر قوانين الطبيعة».

وأشار بيده فتقدم الأشخاص الأربعة على خشبة المسرح.

«في البوادي، مسقط رأسي، يعتبر الكلب البرّي مخلوقاً أنثوياً. حساساً، قادراً على الصيد لأنه كان قد شحذ غرائزه، لكنه خجول أيضاً. فهو لا يستخدم القوة بعنف، بل يستخدم الإستراتيجية. إنه شجاع، وحذر، وسريع. ويمكنه أن ينتقل في ثانية واحدة من حالة الاسترخاء التام إلى التحفزّ الذي يحتاجه لينقضّ على فريسته».

وبما أني أكتب روايات وقصصاً قلت في نفسي: «وماذا عن الظبية؟» كان ميخائيل قد اعتاد كذلك على رواية القصص وأجاب عن السؤال المعلق في الهواء:

«وتتمتع الظبية بخصائص الذكر من حيث السرعة وفهم طبيعة الأرض. وهكذا راح الاثنان يطوفان في عالميهما الرمزيين، استحالتين، ووجد أحدهما الآخر. ولأنهما استطاعا التغلب على طبيعتيهما والعوائق التي تعترضهما جعلا العالم محتملاً أيضاً. هذه هي أسطورة الخلق المنغولية: كيف يولد الحبّ من طبيعتين مختلفتين. في التناقض ينمو الحبّ بعنفوان. وفي المواجهة والتحول يمكن الحفاظ على الحبّ.

«لدينا حياتنا. لقد استغرق العالم وقتاً طويلاً، وبذل جهداً كبيراً كي يصل إلى ما وصل إليه الآن، وإننا ننظّم أنفسنا على نحو أفضل. إنه ليس عالماً مثالياً، لكننا نحرز تقدماً. ومع ذلك، ثمة شيء ناقص، هناك دائماً شيء ناقص، ولهذا السبب فإننا نلتقي هنا الليلة ليساعد أحدنا الآخر في التفكير قليلاً عن سبب وجودنا. نحكي قصصاً لا معنى لها، نبحث عن حقائق لا تتواءم مع أسلوبنا المعتاد في إدراك الواقع لكي نتمكن، ربما بعد جيل أو جيلين، من أن نكتشف وسيلة أخرى في الرقص على موسيقى الجيف.

«وكما كتب دانتي في الكوميديا الإلهية، ففي اليوم الذي يُسمح فيه للإنسان أن يظهر الحبّ الحقيقي سيعتري الأشياء الجيدة

الاضطراب، وسينقلب كلّ شيء نؤمن بأنه صحيح رأساً على عقب. ولن يغدو العالم حقيقياً إلا عندما يتعلّم الإنسان كيف يحبّ. وإلى أن يتحقق ذلك سنحيا ونحن نظن أننا نعرف ما هو الحبّ؛ لكننا سنفتقر دائماً إلى الشجاعة لمواجهته كما هو بالفعل.

«إن الحبّ قوة جامحة. عندما نحاول السيطرة عليه يحطّمنا. وحين نحاول أن نجعله حبيساً يستعبدنا. وإذ نحاول أن نفهمه يجعلنا نشعر بالاضطراب والضياع.

«لقد جُعلت هذه القوة على الأرض لنكون سعداء، لنتقرّب من الله ومن جارنا، ومع ذلك وحسب الطريقة التي نحبّ فيها الآن فإننا نعيش ساعة من القلق لكلّ دقيقة من الهدوء والسلام».

صمت ميخائيل لبرهة. سُمع صوت الصنج النحاسي الغريب مرة أخرى.

«وكما اعتدنا في كلّ يوم خميس لن نحكي اليوم قصصاً عن الحبّ، بل سنحكي قصصاً عن عدمِ وجود الحبّ. سنرى ما يقبع على السطح ـ الطبقة التي نجد فيها كلّ عاداتنا وقيمنا ـ لنفهم ما يكمن تحتها. فعندما نغوص إلى أسفل تلك الطبقة، سنجد أنفسنا. من يريد أن يبدأ أولاً؟».

رفع عدّة أشخاص أياديهم. أشار ميخائيل إلى امرأة شابة تبدو عليها ملامح عربية. فالتفتت إلى رجل يجلس وحيداً، في الطرف الآخر من الغرفة.

«ألم يحدث أنه لم يحصل لديك انتصاب وأنت في السرير مع امرأة؟».

ضحك الجميع. لكن الرجل لم يجبها بشكل مباشر.

«هل تسألين ذلك لأن صديقك عنين؟».

مرة أخرى ضحك الجميع. وفيما راح ميخائيل يتحدث بدأ

يعتريني الشك مرة أخرى في أن هذه ليست في الواقع سوى طائفة جديدة، لكن عندما تجتمع هذه الجماعات لم أكن أتخيّل أنهم يدخّنون ويشربون، ويسألون أسئلة محرجة عن حياتهم الجنسية.

«لا، إنه ليس عنيناً»، قالت الفتاة بحزم. «لكن ذلك كان يحدث له بين الفينة والأخرى. أعرف أنك لو أخذت سؤالي بجدية لأجبت نعم، لقد حصل لي ذلك. فجميع الرجال، من جميع الثقافات والبلدان، ولا علاقة لذلك بمشاعر الحبّ، أو الجاذبية الجنسية، يصابون بالعجز بين الحين والآخر، وغالباً عندما يكونون مع امرأة يشتهونها كثيراً. إنه أمر طبيعي».

نعم، إنه أمر طبيعي، وقد أخبرني بذلك طبيب نفساني، كنت قد ذهبت لرؤيته عندما ظننت أن لديّ مشكلة.

وتابعت الفتاة:

«لكن الرواية الشائعة هي أنه بإمكان الرجال دائماً أن يحصلوا على انتصاب. وعندما لا يستطيع الرجل ذلك يعتريه شعور بأنه أصبح لا فائدة ترجى منه، وتقتنع المرأة بأنها ليست بتلك الدرجة من الجاذبية لإثارته. وبما أنه من المواضيع المحرّمة فلا يمكنه أن يحدّث أصدقاءه عنه. ويكذب على المرأة الكذبة القديمة المعهودة: هذه أول مرة يحدث فيها لي ذلك. يخجل من نفسه ويبدأ غالباً يتهرب من الشخص الذي كانت تربطه به علاقة جيدة. فقط لو يترك لنفسه فرصة ثانية، وثالثة، أو رابعة. ولو وثق أكثر بحبّ أصدقائه، ولو أخبرهم الحقيقة لوجد أنه ليس الوحيد في ذلك. ولو كان يثق أكثر بحبّ المرأة لما شعر بالمهانة».

سُمع تصفيق. أُشعلت السجائر، كما لو أن الكثير من الحاضرين ـ رجالاً ونساء ـ قد شعروا بارتياح كبير.

أشار ميخائيل إلى رجل كان يبدو أنه مدير تنفيذي في إحدى الشركات المتعددة الجنسيات الكبيرة.

«أنا محامي ومتخصص في أمور الطلاق المتنازع عليها».

«ماذا يعني ذلك؟» سأل شخص من الحضور.

«يعني أنه عندما لا يوافق أحد الطرفين على الانفصال»، أجاب المحامي، الذي أبدى امتعاضاً لمقاطعته، كما لو أنه وجد من السخف وجود أناس لا يعرفون معنى هذا المصطلح القانوني البسيط.

«تابع»، قال ميخائيل بنبرة متنفذة لم أكن أتخيّلها في هذا الشابّ الذي التقيت به عند توقيع الكتاب.

واصل المحامي:

«لقد تلقيت اليوم تقريراً من مؤسسة الموارد البشرية والقانونية التي يقع مقرّها في لندن. وهذا ما يقوله التقرير:

(أ) يقيم ثلثا الموظفون في شركة ما نوعاً من العلاقات الغرامية. تصوّروا! فهذا يعني أنه في أيّ مكتب يوجد فيه ثلاثة أشخاص هناك اثنان على علاقة حميمية.

(ب) عشرة في المائة من هؤلاء يتركون وظائفهم لهذا السبب، ويقيم أربعون في المائة علاقات تستمر لأكثر من ثلاثة أشهر. وفي بعض المهن التي تتطلّب أن يمضي الأشخاص فيها فترات طويلة بعيداً عن المنزل يقيم ما لا يقل عن ثمانية أشخاص من أصل عشرة علاقات جنسية».

«هل هذا يصدق؟».

«حسناً، طبعاً، يجب أن نحترم ما تقوله الإحصائيات»، قال واحد من مجموعة الشباب الذين كانوا يرتدون جميعهم ثياباً وكأنهم أعضاء في عصابة لصوص خطيرة. «كلنا نؤمن بالإحصائيات! هذا يعني أن أمي يجب أن لا تكون وفية لأبي، لكن هذا ليس ذنبها بل ذنب الإحصائيات».

تعالى مزيد من الضحك. مزيد من التدخين، ومزيد من الشعور بالارتياح، كما لو أن الحاضرين كانوا يستمعون إلى أشياء كانوا دائماً يخشون سماعها، وأن سماعها حررهم من شيء من القلق. أفكّر بإستر وبميخائيل وبالمهن التي تتطلّب من الأشخاص أن يمضوا فترات طويلة بعيداً عن منازلهم.

أفكّر بنفسي وبالأوقات الكثيرة التي حدث لي فيها ذلك. وهي، بعد كلّ شيء، مجرد إحصائيات. ونحن لسنا وحدنا.

ورويت قصص أخرى عن الغيرة والهجران والكآبة، لكني لم أعد أسمع. فقد عاد *الظاهر* بكثافته التامة ـ مع أني، ومنذ لحظات قليلة، كان يخيّل إليّ أني أشارك في نقاشات جماعية صغيرة للعلاج النفسي، فأنا موجود في حقيقة الأمر في الغرفة ذاتها مع الشخص الذي سرق زوجتي ـ وسألني جاري الذي عرفني إن كنت مسروراً. صرف انتباهي لبرهة عن ظاهري، وكنت سعيداً في أن أجيبه.

«لم أستطع حتى الآن أن أرى الهدف من هذا تماماً. فهؤلاء أشبه بمجموعة مساعدة ذاتية، مثل مدمني الخمور غير المعروفين أو استشارات زوجية».

«لكن ألا يبدو أن ما تسمعه صريحاً وصادقاً؟».

«ربما، لكن للمرة الثانية أقول إني لم أستطع أن أفهم النقطة الرئيسية».

«ليس هذا الجزء الهام من الأمسية، بل إنها مجرد وسيلة كي لا يشعر المرء بالوحدة. فبالتحدّث عن حياتنا ندرك أن معظم الناس يعيشون التجارب ذاتها».

«وماهو الهدف العملي من كلّ ذلك؟».

«عندما لا نكون وحدنا، تتوافر لدينا قوّة أكبر كي نعرف أين

تكمن نقاط فشلنا ونغيّر اتجاهنا. لكن كما قلت، هذه فترة فاصلة بين ما قاله الشاب في البداية واللحظة التي نستحضر فيها الطاقة».

«ومن هو الشاب؟».

قطع حديثنا صوت الصنج النحاسي.

في هذه المرة بدأ يتحدث الرجل المسن الذي يحمل الطبل.

«لقد انتهى وقت التفكير. ولننتقل الآن إلى الطقوس، إلى العاطفة التي تتوّج كلّ شيء وتحوّله. إلى الذين يحضرون للمرة الأولى هذه الليلة، نقول إن هذه الرقصة تطور قدراتنا على قبول الحبّ. فالحبّ هو الشيء الوحيد الذي ينشّط ذكاءنا وإبداعنا، والذي يجعلنا أنقياء ويحرّرنا».

أطفئت السجائر، وتوقف صوت قرع الكؤوس. وخيّم على الغرفة الصمت الغريب ذاته؛ وأخذت إحدى الشابات تتلو صلاة:

«سنرقص أيتها السيدة، ولاء لك. لعل رقصنا يرفعنا إلى السماء».

هل حقاً ما سمعت؟ هل قالت «السيدة»؟ نعم.

أشعلت الشابة الأخرى الشموع في أربعة شمعدانات، وأُطفئت الأضواء الأخرى. ونزل الأشخاص الأربعة الذين يلبسون أردية بيضاء، بتنوراتهم البيضاء المنشّاة، من على خشبة المسرح واختلطوا بالجمهور. وأخذ الشاب الثاني يرتل قرابة نصف ساعة، بصوت بدا أنه كان يخرج من بطنه، أغنية رتيبة، مكررة جعلتني على نحو غريب أنسى *الظاهر* قليلاً، واعتراني شيء من النعاس. حتى أن طفلة، لم تكن تتوقف عن الجري هنا وهناك خلال جلسة «الحديث عن الحبّ» هدأت الآن ومكثت صامتة، وثبّتت عينيها على المسرح. وأغمض بعض الحاضرين عيونهم، وراح آخرون يحدّقون في الأرض، أو في نقطة مجهولة في الفضاء كما كان ميخائيل يفعل.

وعندما توقّف عن الغناء، بدأ الصنج النحاسي والطبل يقرعان لحناً معروفاً لي من أحد الاحتفالات الدينية الأفريقية.

وبدأ الأشخاص المتشحون بالبياض يدورون حول أنفسهم، وفي ذلك المكان المكتظ أفسح لهم الناس مجالاً كي تتطاير حواف أرديتهم العريضة في الهواء. وراحت الآلات تعزف بوتيرة أسرع، وزادت سرعة دوران الأشخاص الأربعة أيضاً، وبدأت تنبعث منهم أصوات لا تمت إلى أي لغة معروفة، كما لو كانوا يتحدثون مباشرة مع الملائكة أو مع السيدة.

يستوي الشخص الجالس إلى جانبي واقفاً، ويبدأ يتمايل أيضاً ويدمدم كلمات غير مفهومة. وفعل عشرة أشخاص أو اثنا عشر شخصاً آخر من الحاضرين الشيء ذاته، بينما راح الباقون يتفرجون بمزيج من الوقار والدهشة.

لا أعرف إلى متى استمر الرقص، لكن صوت الآلات بدا أنه يتوافق مع توقيت ضربات قلبي، وأحسست برغبة كبيرة في أن أستسلم، أن أقول أشياء غريبة، أن أحرّك جسمي. وامتزج الإحساس بالتحكم بالذات بالإحساس بالسخف لأمنع نفسي من الدوران كالمجنون. وفي غضون ذلك، وعلى نحو لم يحصل من قبل، بدا لي أن قوام إستر، *الظاهر*، قد بدأ يتجلى أمامي، مبتسماً، يدعوني لمديح السيدة.

بذلت جهدي كي لا أدخل في هذا الطقس المجهول، وكنت أريد أن ينتهي كلّ ذلك بأسرع ما يمكن. حاولت أن أركّز على السبب الرئيسي الذي جعلني أذهب إلى ذاك المكان في تلك الليلة ـ أن أتكلم مع ميخائيل كي يأخذني إلى ظاهري ـ لكني وجدت أنه من المستحيل أن أمكث جالساً. نهضت عن كرسيّ، وفيما كنت أتخذ خطواتي الأولى بحذر واستحياء توقّفت الموسيقى فجأة.

وفي الغرفة التي لم تكن تضيئها سوى الشموع، لم أكن أسمع سوى أصوات تنفّس الأشخاص الذين شاركوا في الرقص. وشيئاً فشيئاً خفت الصوت، وأُشعلت الأضواء، وبدا أن كلّ شيء قد عاد إلى وضعه الطبيعي. ومُلئت الكؤوس ثانية بالبيرة، والنبيذ، والماء، والمشروبات الخفيفة، وبدأ الأطفال يجرون في المكان، ويتحدثون بصوت عالٍ. وسرعان ما أخذ الجميع يتحادثون وكأن شيئاً لم يكن، وكأن شيئاً لم يحدث على الإطلاق.

«إن الاجتماع على وشك الانتهاء»، قالت الصبية التي أضاءت الشموع. «ستحكي لكم ألما القصة الأخيرة».

كانت ألما هي المرأة التي تقرع الصنج النحاسي. راحت تتحدث بلهجة شخص يعيش في الشرق.

«كان السيد يملك جاموساً. وقد خيّل له أنه إذا تمكّن من الجلوس بين قرني الجاموس، فكأنه يجلس على عرش. وذات يوم غافل الحيوان وتسلّق ليجلس بين القرنين. لكن الجاموس انتفض على الفور، ووقف بتثاقل على أطرافه وألقى به. وعندما رأته زوجته راحت تبكي.

«لا تبكي»، قال السيد، «قد أكون عانيت لكني حققت حلمي».

بدأ الناس يغادرون. سألت جاري عن مشاعره. «يجب أن تعرف أنت. فأنت تكتب عن هذه الأشياء في كتبك».

لم أكن أعرف، لكنه كان عليّ أن أتظاهر بأنني أعرف.

«ربما كنت أعرف، لكني أريد أن أتأكد منك».

نظر إليّ بطريقة تشي بأنه لم يقتنع بكلامي، وبدأ يشكّ إن كنت أنا حقاً المؤلف الذي كان يظن أنه يعرفه.

أجاب: «كنت على تماس مع طاقة الكون. لقد مرّ الله عبر روحي».

وغادر لكي لا يفسّر ما قاله. ولم يتبق في الغرفة التي فرغت الآن سوى الممثلين الأربعة والموسيقيين وأنا. ذهبت النساء إلى حمّام السيدات لتغيير ثيابهن. وخلع الرجال أرديتهم البيضاء في الغرفة وارتدوا ثيابهم. وعلى الفور بدؤوا يضعون الشمعدانات والآلات الموسيقية في صندوقين كبيرين.

أخذ الرجل المسن الذي كان يقرع على الطبل يعّد النقود، ورتبها في ستة أكداس متساوية. عندها فقط لاحظ ميخائيل وجودي.

«كنت أظن أني سأراك هنا».

«وأظن أنك تعرف السبب».

«بعد أن تركت الطاقة الإلهية تعبر جسدي أصبحت أعرف سبب كلّ شيء. أعرف السبب الذي يدعو للحبّ وللحرب. أعرف لماذا يبحث الرجل عن المرأة التي يحبّها».

أحسست ثانية وكأني أسير على حدّ سكين. إذا كان يعرف أني هنا بسبب ظاهري، فهو يعرف كذلك أن هذا يشكل تهديداً لعلاقته بإستر.

«هل نستطيع أن نتحدث كرجلين شريفين يتقاتلان من أجل شيء ذي قيمة؟»

تردد ميخائيل قليلاً. ثم تابعت قولي:

«أعرف أنني سأخرج مكدوماً ومحطماً، كالسيد الذي أراد أن يجلس بين قرنيّ الجاموس، لكني أستحقّ ذلك. أستحقّ ذلك بسبب الألم الذي سببته ولو دون وعيّ مني. فأنا لا أظن أن إستر كانت ستتركني لو أني كنت أحترم حبها».

«إنك لا تفهم شيئاً»، قال ميخائيل.

أثارت هذه الكلمات حنقي. كيف يمكن لشاب في الخامسة

والعشرين من العمر أن يقول لرجل محنك، مجرّب في الحياة بأنه لا يفهم شيئاً؟ كان عليّ أن أضبط نفسي، أن أتواضع، لأقوم بما يجب عليّ عمله. فلا يمكنني أن أظل أعيش مع أشباح، لا يمكنني أن أسمح أن يهيمن على كوني كله *الظاهر*.

«ربما كنت لا أفهم فعلاً، لكني جئت إلى هنا لهذا السبب بالتحديد - لكي أفهم. كي أحرر نفسي بفهم ما حدث».

«لقد فهمت كلّ شيء بوضوح تام، ثم توقّفت فجأة عن الفهم؛ هذا على الأقل ما قالته لي إستر. كما يحدث مع جميع الأزواج، جاء وقت أصبحت تعامل فيه زوجتك كما لو أنها مجرد سلعة وقطعة من الأثاث».

شعرت بالرغبة في القول: «لماذا لم تخبرني بذلك هي بنفسها؟ لماذا لم تمنحني الفرصة لأصحح أخطائي، ولا تهجرني من أجل شاب في الخامسة والعشرين من عمره، سينتهي به الأمر بأن يعاملها تماماً كما فعلت». إلا أن كلمات حذرة أخرى خرجت من فمي.

«لا أظن أن هذا صحيح. فقد قرأت كتابي، وأتيت إلى حفل توقيع له لأنك كنت تعرف ما كنت أشعر به، وأردت أن تطمئنني. مايزال قلبي مفتتاً: هل سمعت بالظاهر؟».

«بما أني تربيت في كنف الدين الإسلامي فجوابي نعم، أنا أعرف الفكرة».

«حسناً، إن إستر تملأ كلّ فراغ في حياتي. خيّل إليّ إن أنا كتبت عن مشاعري فإني سأعتق نفسي من وجودها. أما الآن فأنا أحبّها بصمت، لكن لا يمكنني أن أفكر بأي شيء آخر. أرجوك، أتوسل إليك، سأفعل أيّ شيء تريد، لكن يجب أن توضح لي لماذا اختفت هكذا. وكما قلت أنت نفسك فأنا لا أفهم شيئاً».

كان الأمر شاقاً عليّ أن أقف هناك وأتوسل إلى عشيق زوجتي كي يساعدني في أن أفهم. ما الذي حدث. ربما كانت تلك اللحظة في

الكاتدرائية في فيتوريا، حيث اعترفت بحبّي لها وكتبت «وقت للفتق ووقت للرتق» كافية. لكن للقدر مخططات أخرى، وقد قلبت إمكانية التمكن من رؤية زوجتي مرة أخرى وهذا كلّ شيء.

«لنتناول طعام الغداء معاً»، قال ميخائيل بعد فترة طويلة من الصمت. «إنك حقاً لا تفهم شيئاً. لكن الطاقة الإلهية التي عبرت جسدي اليوم سخية معك».

اتفقنا على اللقاء غداً. وفي طريق عودتي إلى البيت تذكّرت حديثاً جرى بيني وبين إستر منذ ثلاثة أشهر قبل اختفائها.

كان حديثاً عن الطاقة الإلهية التي تعبر الجسد.

«كانت عيونهم مختلفة تماماً. فبالطبع كان ينبعث منها الخوف من الموت، لكن وراء ذلك كانت هناك فكرة التضحية. إن لحياتهم معنى، لأنهم مستعدون للتضحية بها في سبيل قضية معينة».

«إنك تتحدّثين عن الجنود، أليس كذلك؟».

«نعم، وأتحدث أيضاً عن شيء أجد من الصعوبة بمكان قبوله، لكني لا أستطيع أن أدّعي بأنني لا أراه. إن الحرب طقس. إنها طقس من طقوس الدم، لكنها طقس من طقوس الحبّ أيضاً».

«أنت مجنونة».

«ربما كنت. لكني التقيت بمراسلين حربيين آخرين أيضاً، يتنقلون من بلد إلى آخر، كما لو كان الموت جزءاً من حياتهم. كانوا لا يخشون شيئاً، ويواجهون الخطر كما يواجهه الجندي. وكلّ هذا ليكتبوا تقريراً إخبارياً؟ لا أظن ذلك. لم يعد بإمكانهم أن يعيشوا بدون مخاطرة، أو مغامرة، إن الأدرينالين يجري في دمهم. وقد أخبرني أحدهم، رجل متزوج وله ثلاثة أطفال، أن أكثر الأماكن التي يشعر فيها بالراحة هي مناطق الحروب، مع أنه يعشق عائلته ولا يكّف عن الحديث عن زوجته وأطفاله».

«لا أستطيع أن أفهم ذلك على الإطلاق. انظري يا إستر فأنا لا أريد أن أتدخّل في حياتك، لكني أعتقد أن هذه التجربة ستنتهي بأن تلحق بك ضرراً شديداً».

«إن الشيء الذي سيلحق ضرراً بي أكثر هو أن أعيش حياة بدون معنى. ففي الحرب يعرف الجميع أنهم يواجهون شيئاً مهماً».

«أتقصدين لحظة تاريخية؟»

«لا، فهذا ليس سبباً كافياً يجعلك تخاطر بحياتك. لا، بل أقصد أنهم يواجهون الجوهر الحقيقي للإنسان».

«الحرب؟».

«لا، الحبّ».

«لقد أصبحتِ مثلهم».

«أظن ذلك».

«أخبري وكالة الأنباء التي تعملين فيها أنك عانيت الكثير».

«لا أستطيع. إنه كالمخدّر. فما دمت في منطقة المعارك يصبح لحياتي معنى. تمر أيام دون أن استحم، آكل ما يأكله الجنود، أنام ثلاث ساعات في الليلة، وأستيقظ على صوت إطلاق النار. وأعرف أنه قد يلقي أحدهم في أي لحظة قنبلة يدوية في المكان الذي نجلس فيه، وهذا يجعلني أعيش. حقاً أعيش، أعني، أحبّ كلّ دقيقة، كل ثانية. لا يوجد مكان للحزن، للشكوك، لا لشيء. لا يوجد سوى حبّ كبير للحياة. هل تسمعني؟».

«طبعاً».

«إنها مثل نور إلهي يشرق في وسط كلّ معركة، في وسط أسوأ جميع الأوضاع المحتملة. إذ يوجد الخوف قبل المعركة وبعدها، لكن ليس عندما تُطلق النار، لأنك في تلك اللحظة ترى الرجال في أقصى قدراتهم، فيصبحون مستعدين للقيام بأكثر الأعمال البطولية، وأكثرها وحشية ولا إنسانية. يجرون تحت وابل من الرصاص لإنقاذ رفيق لهم، وفي الوقت نفسه يطلقون النار على أيّ شيء يتحرك ـ أطفال ونساء ـ أي شخص يقترب من مرمى نيرانهم سيُقتل. أشخاص قدموا من مدن إقليمية صغيرة، لم يحدث شيء هام في

حياتهم، كانوا فيها مواطنين محترمين دائماً، وفجأة يجدون أنفسهم يداهمون المتاحف، ويحطّمون قطعاً فنية يزيد عمرها على قرون كثيرة، ويسرقون أشياء ليسوا بحاجة إليها. ويلتقطون صوراً عن الأعمال الوحشية التي ارتكبوها هم أنفسهم، وبدلاً من أن يحاولوا إخفاءها، يتباهون بها. أما الأشخاص الذين كانوا يعرفون دائماً بالغدر والخيانة، فيعتريهم إحساس بالمودة والتضامن، ولا يعود بقدرتهم ارتكاب أعمال خاطئة. إنه عالم مجنون، مقلوب رأساً على عقب».

«هل ساعدك هذا في الإجابة عن السؤال الذي سأله هانز فريتز في الحانة في طوكيو في القصة التي حكيتها لي؟».

«نعم، يكمن الجواب في بعض الكلمات التي كتبها اليسوعي تيلهارد دي شاردن، الرجل الذي قال إن عالمنا تكسوه طبقة من الحبّ. فقد قال: يمكننا أن نسخّر طاقة الرياح والبحار والشمس. لكن الإنسان يتعلّم كيف يسخّر طاقة الحبّ، وتكمن أهمية ذلك في أهمية اكتشاف النار».

«ولا يمكنكِ أن تتعلمي ذلك إلا بالذهاب إلى منطقة حربية؟»

«لا أعرف تماماً، لكن ذلك أتاح لي أن أرى بوضوح، مع أنه يبدو أن في ذلك تناقضاً، إذ يغدو الناس سعداء في الحرب. فبالنسبة لهم يصبح للعالم معنى. وكما قلت لك فإن القوّة الكليّة، أو التضحية بأرواحهم تمنح حياتهم معنى. فهم قادرون على الحبّ بلا حدود، لأنه لم يعد لديهم شيء يخسرونه. فالجندي المصاب بجروح قاتلة لا يقول للفريق الطبي: أرجوكم أنقذوني! بل تكون كلماته الأخيرة عادة: *قولوا لزوجتي وابني إني أحبّهم*. إنهم يتحدثون عن الحبّ في اللحظة الأخيرة».

«إذن في رأيك لا يجد البشر أن للحياة معنى إلا عندما يكونون في حرب».

«لكننا دائماً في حرب. إننا في حرب مع الموت، ونحن نعرف أن الموت سينتصر في النهاية. وفي النزاعات المسلحة يصبح هذا الأمر أكثر وضوحاً، لكن الشيء نفسه يحدث في الحياة اليومية. إذ نترك أنفسنا نصبح حزينين دائماً».

«ماذا تريدينني أن أفعل؟».

«أحتاج إلى المساعدة. وهذا لا يعني أن تقول لي، اذهبي وقدمي استقالتك، لأن ذلك سيزيدني اضطراباً. يجب أن نجد وسيلة لتوجيه كلّ هذا، أن نسمح لطاقة الحبّ المطلق الصافي هذه أن تتدفّق عبر أجسامنا وتفيض حولنا. إن الشخص الوحيد الذي ساعدني في فهم هذا حتى الآن هو مفسّر زاهد في الدنيا يقول إنه يستطيع أن يكشف هذه الطاقة».

«هل تتحدّثين عن حبّ الله؟».

«إذا تمكن المرء من حبّ شريكه بلا قيد أو شرط، فعندها يظهر حبّ الله. وإذا ظهر حبّ الله، فسيحبّ جاره. وإذا أحبّ جاره فسيحبّ نفسه. وإذا أحبّ نفسه فسيعود كلّ شيء إلى مكانه الصحيح. إن التاريخ يتغيّر».

«إن التاريخ لا يتغيّر أبداً بسبب السياسات أو الغزوات أو النظريات أو الحروب، فذلك مجرد تكرار. إنه يسير هكذا منذ فجر التاريخ، والتاريخ لن يتغيّر إلا عندما نصبح قادرين على استخدام طاقة الحبّ، تماماً كما نستخدم طاقة الرياح والبحار والذرّة».

«هل تظن أن بوسعنا نحن أن ننقذ العالم؟»

«أظن أنه يوجد الكثيرون ممن يفكرون بالطريقة ذاتها. هل تساعدني؟»

«نعم، مادمت تقول لي ما يجب أن أفعله».

«لكن هذا بالضبط ما لا أعرفه».

كنت أحد الزبائن المنتظمين في مطعم البيتزا الرائع هذا منذ أول زيارة لي لباريس، إلى حد أنه أصبح جزءاً من تاريخي. وكنت قد أقمت مؤخراً حفل عشاء في هذا المطعم احتفالاً بحصولي على وسام ضابط الفنون والآداب الذي قدمته لي وزارة الثقافة، مع أن الكثيرين كانوا يرون أنه كان يجب عليّ أن أحيي مثل هذه المناسبة الهامة في مكان أرقى وأغلى، لكني أصبحت أتفاءل بروبيرتو، صاحب المطعم، وأعتبره يجلب لي حظاً سعيداً؛ فكلما كنت أذهب إلى مطعمه كان يحدث لي شيء جيد في حياتي.

«كان بوسعي أن أبدأ بالحديث عن النجاح الذي حققه كتاب «وقت للفتق ووقت للرتق» أو المشاعر المتناقضة التي اعترتني في الليلة الماضية وأنا أشاهد عرضك».

قال: «إنه ليس عرضاً، إنه اجتماع نحكي فيه قصصاً ونرقص حتى تعترينا طاقة الحبّ».

«يمكنني أن أتحدّث عن أيّ شيء يجعلك تشعر بالارتياح، لكننا نعرف سبب وجودنا هنا».

«نحن هنا بسبب زوجتك»، قال ميخائيل الذي أصبح الآن مفعماً بجموح الشباب، ولم يعد يشبه ذلك الصبي الخجول الذي رأيته عند توقيع الكتاب، أو الزعيم الروحي في ذلك «الاجتماع».

«تقصد زوجتي السابقة. وأودّ أن أطلب منك معروفاً: خذني إليها. أريدها أن تنظر إليّ مباشرة وتخبرني لماذا تركتني، وعندها فقط سأتحرر من *الظاهر*. وإلا فإني لن أكفّ عن التفكير بها ليلاً ونهاراً، وأتذكر قصتنا، وتاريخنا مراراً وتكراراً، محاولاً أن أحدد بدقة اللحظة التي أخطأت فيها وبدأت تتباعد دروبنا».

ضحك.

«إن مراجعة التاريخ فكرة عظيمة، فهذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكنك أن تجعل الأشياء فيها تتغيّر».

«ذكي جداً، لكني أفضّل أن أنحّي المناقشات الفلسفية جانباً الآن. وأنا واثق من أنك، مثل جميع الشباب، تظن أنك تستطيع أن تغيّر أوضاع العالم وتعيده إلى وضعه الطبيعي. إلا أنك، شأن جميع الشباب، ستصبح في عمري، وسترى عندها أن تغيير الأشياء ليس بالأمر السهل. لكن لا يوجد مجال للحديث عن ذلك الآن. هلّ يمكنك أن تمنحني هذا المعروف؟»

«أولاً، يجب أن أسألك شيئاً: هل ودّعتك؟».

«لا».

«هل قالت لك إنها ستسافر؟».

«لا، لم تقل. إنك تعرف ذلك».

«هل تظن أن إستر، حسب شخصيتها، يمكنها أن تهجر رجلاً عاشت معه لمدة تزيد على عشر سنوات دون أن تواجهه أولاً وتشرح له أسبابها؟».

«هذا بالضبط ما يزعجني. لكن إلى أي شيء تريد أن تصل؟».

قطع روبيرتو الحديث، الذي أراد أن يعرف إن كنا جاهزين للطلب. طلب ميخائيل بيتزا نابوليتانا وطلبت أنا من روبيرتو أن يختار لي هو ـ فلم أكن أهتم في هذه اللحظة بما كنت سأتناوله. أما

الشيء الوحيد الذي كنا بحاجة إليه بأسرع ما يمكن فقد كان قنينة من النبيذ الأحمر. وعندما سألني روبيرتو ما نوع النبيذ الذي أريده، همهمت جواباً غير مسموع، ففهم أنه يجب أن يتركنا وشأننا، وأن لا يسألني شيئاً آخر أثناء فترة الطعام، بل أن يتّخذ جميع القرارات الضرورية بنفسه، وهكذا تركني وشأني لأركّز على حديثي مع الشابّ الجالس أمامي.

وصل النبيذ بعد ثلاثين ثانية. أترع كأسانا. «ماذا تفعل؟».

«هل تريد حقاً أن تعرف؟».

أزعجني أن أتلقى سؤالاً ردّاً على سؤالي.

«نعم، أريد».

«إنها تصنع السجاد وتعطي دروساً باللغة الفرنسية».

السجاد! زوجتي (زوجتي السابقة، أرجوك، حاول أن تعتاد على قول هذا)، التي تملك كل ما تحتاج إليه من المال، وتحمل شهادة جامعية في الصحافة، وتتحدث أربع لغات، تضطر الآن لكسب قوتها بالعمل في نسج السجاد، وإعطاء دروس باللغة الفرنسية للأجانب؟ يجب أن أضبط أعصابي. فأنا لا أستطيع أن أجازف وأجرح كبرياء هذا الشاب، مع أني فكرت أنه من المخزي ألّا يستطيع أن يمنح إستر كلّ ما تستحقه.

«أرجوك، يجب أن تتفهم ما أعانيه منذ السنة الماضية أو أكثر. إني لا أشكّل تهديداً لعلاقتك مع إستر. فأنا بحاجة للجلوس معها مدة ساعتين فقط، أو ساعة واحدة، لا يهمّ».

بدا أن ميخائيل قد بدأ يستسيغ كلماتي.

«لم تجب عن سؤالي»، قال مبتسماً.

«هل تظن، حسب شخصية إستر، أنها يمكن أن تترك رجل

حياتها دون أن تودعه على أقل تقدير، ودون أن تفسّر السبب الذي جعلها تذهب؟».

«لا، لا أظن».

«إذن لماذا كلّ هذا الأمر حول هجرها لي؟ لماذا تقول إني لا أشكل تهديداً لعلاقتك مع إستر؟».

اضطربت. شعرت ببصيص أمل ينبعث في داخلي، لا لأني كنت أعرف ما كنت أتمنّاه، أو من أين جاء ذلك الأمل.

«هل تقول لي إن...».

«تماماً. إني أقول إنها لم تهجرك أو تهجرني. لقد توارت عن الأنظار لفترة من الزمن فقط، ربما إلى الأبد، لكننا يجب أن نحترم رغبتها في ذلك».

كما لو أن ضوءاً ساطعاً قد لمع فجأة في مطعم البيتزا ذاك، المكان الذي كان يجلب لي دائماً ذكريات جيدة وقصصاً جيدة. كنت أريد أن أصدق ما كان يقوله الشابّ. كان *الظاهر* ينبض حولي.

«هل تعرف مكانها؟».

«نعم، أعرف. لكني رغم ذلك، مشتاق إليها مثلك تماماً، ويجب أن أحترم صمتها. وأجد أن هذا الأمر يبعث على الاضطراب مثلك تماماً. قد تكون إستر وجدت رضى في الحبّ الذي يلتهم، قد تكون في انتظار أحدنا ليذهب ويبحث عنها، وربما التقت رجلاً جديداً، أو قد تكون انسحبت من العالم كله. مهما كانت الحقيقة، إذا قررت أن تذهب وتبحث عنها، فلا أستطيع أن أوقفك. لكنك إذا فعلت ذلك يجب أن تعرف شيئاً واحداً: يجب ألا تجد جسدها فقط، بل روحها أيضاً».

شعرت برغبة في الضحك. وودت أن أعانقه، أو ربما أقتله ـ لقد تغيّرت مشاعري بسرعة كبيرة.

«هل أنت وهي...».

«هل نمنا معاً؟ هذا الأمر ليس من شأنك. لقد وجدت في إستر الشريك الذي كنت أبحث عنه، الشخص الذي ساعدني في بدء المهمّة التي أوكلت إليّ، الملاك الذي فتح لي الأبواب، الطرق، الدروب التي سمحت لنا ـ إذا أرادت سيدتنا ـ أن نعيد طاقة الحبّ إلى الأرض. إننا نتقاسم المهمّة ذاتها، ولكي أطمئنك وأريح بالك: فأنا عندي خليلة، الفتاة الشقراء التي كانت تقف بجانبي على خشبة المسرح ليلة أمس. واسمها لوكريشيا. إنها إيطالية».

«هل تصدقني القول؟».

«نعم، باسم الطاقة الإلهية. أقول لك الحقيقة».

أخرج من جيبه قصاصة داكنة من القماش.

«انظر إلى هذه؟ إن اللون الأصلي لقطعة القماش هذه خضراء، وهي تبدو سوداء لأنها مكسوة بدم جاف. فقد طلب منها أحد الجنود في إحدى بقاع العالم قبل أن يموت أن تنزع عنه قميصه، ثم تقطعه إلى قطع صغيرة، وتوزّع تلك القطع على الأشخاص القادرين على فهم رسالة موته. هل لديك قطعة؟».

«لا، لم تذكر لي إستر ذلك من قبل».

«عندما تلتقي بشخص ترى أنه ينبغي أن يتلقى الرسالة تعطيه قليلاً من دم الجندي أيضاً».

«وما هي الرسالة؟».

«إذا لم تكن قد أعطتك قطعة من القميص، فلا أظن أنه يمكنني أن أقول لك، لا طبعاً، وخاصة أنها جعلتني أقسم على الاحتفاظ بالسر».

«هل تعرف شخصاً آخر يحمل قطعة قماش من هذه؟».

«جميع من ظهر معي في المطعم. إننا موجودون هناك لأن إستر جمعتنا».

كان يجب أن أكون حريصاً كي أقيم علاقة معه، لأودع في بنك ردّ الجميل. كما كان عليّ أن لا أثير فزعه أو أن أبدو متحمساً جداً. يجب أن أسأله عن نفسه وعن عمله، عن بلده الذي كان يتحدث عنه بهذا الفخر. كان يجب أن أعرف إن كان ما يقوله صحيحاً، أو إن كان لديه دافع خفي. كان يجب أن أتأكد تماماً بأنه مايزال على اتصال مع إستر، أو إن كان لا يعرف مكان وجودها. لعله جاء من بلد بعيد، حيث تتباين القيم، لكني أعرف أن بنك ردّ الجميل موجود في كل مكان: فهي مؤسسة لا تعرف حدوداً.

من ناحية، كنت أريد أن أصدّق كلّ ما كان يقوله، ومن ناحية أخرى كان قلبي قد عانى ونزف بما يكفي خلال الألف ليلة وليلة التي بقيت فيها صاحياً، أنتظر سماع صوت طقة المفتاح في الباب، كي تأتي إستر وتستلقي بجانبي دون أن تنبس بكلمة. وكنت قد وعدت نفسي بأنه إن حدث هذا فلن أسألها شيئاً. ولن أفعل شيئاً سوى أن أقبّلها وأقول لها نوماً هنيئاً يا حبيبتي، ونستيقظ في اليوم التالي يداً بيد، كما لو أنّ هذا الكابوس لم يحدث.

جاء روبيرتو بالبيتزا. بدا أنه موهوب بنوع من الحاسة السادسة التي كانت تعلمه متى أحتاج إلى الوقت للتفكير.

نظرت إلى ميخائيل ثانية. اهدأ، فإذا لم تتحكم بدقات قلبك فإنك ستصاب بنوبة قلبية. جرعت كأساً كاملاً من النبيذ، ولاحظت أنه فعل الشيء ذاته.

لماذا كان عصبياً جداً؟

«أوه، إني أصدّق كلّ ما تقوله. لكن أمامنا الكثير من الوقت كي نتحدث».

«هل ستطلب مني أن آخذك إليها».

لقد أفسد ما أرمي إليه. يجب أن أبدأ من جديد.

«نعم. سأحاول أن أقنعك. سأفعل ما بوسعي لأفعل ذلك، مع أني

لست في عجلة من أمري، فلدينا قطعة كاملة من البيتزا يجب أن نتناولها أولاً. كما أني أريد أن أعرف المزيد عنك».

لاحظت أنه كان يحاول أن لا تبدو يداه ترتعشان.

«إني أحمل مهمّة معينة. ولم أستطع أن أنجزها حتى الآن، لكني أظن أنه مايزال لديّ وقت كافٍ لإنجازها».

«ربما كان باستطاعتي مساعدتك».

«نعم يمكنك ذلك. أي شخص يمكنه ذلك. ما عليك إلا أن تساعد في نشر طاقة الحبّ في أرجاء العالم».

«يمكنني أن أفعل أكثر من ذلك».

لم أشأ أن أذهب أبعد من ذلك؛ لم أشأ أن أبدو وكأني أحاول أن أشتري ولاءه. يجب أن أكون حذراً للغاية. ربما كان صادقاً، لكن من الممكن أن يكون كاذباً أيضاً، يحاول أن يستغل معاناتي.

«لا أعرف سوى نوع واحد من طاقة المحبّة»، تابعت كلامي، «الطاقة التي أشعر بها تجاه المرأة التي غادرتني، أو بالأحرى، التي سافرت والتي تنتظرني. لو رأيتها ثانية لأضحيت رجلاً سعيداً، ولبات العالم مكاناً أفضل لأن روحاً واحدة ستكون راضية».

رفع بصره إلى السقف ثم عاد ونظر إلى الطاولة. وترك الصمت يسود أطول فترة ممكنة.

«يمكنني أن أسمع صوتاً» قال أخيراً ولم ينظر إليّ.

من أهم فوائد الكتابة عن الروحانيات هي معرفتي أني سألتقي بأناس يتمتعون بشيء من الموهبة. وبعض هذه المواهب حقيقية، وبعضها الآخر زائف وتتسم بالاحتيال، ويحاول بعض هؤلاء استغلالي، كما يحاول البعض الآخر اختباري وجس نبضي. رأيت العديد من الأشياء المدهشة التي لم يعد لديّ أدنى شكّ بأن هذه

المعجزات قد تحدث، وأن كلّ شيء ممكن، وبدأ الناس يتعلّمون مجدداً القوى الداخلية التي كانوا قد نسوها منذ عهد بعيد.

إلا أن هذه اللحظة لم تكن مناسبة للحديث عن مثل هذه الأمور. فلم أكن مهتماً إلا ب*الظاهر*. كنت أريد أن تصبح إستر *الظاهر* ثانية.

«ميخائيل...».

«ميخائيل ليس اسمي الحقيقي. اسمي الحقيقي أوليغ».

«أوليغ، إذن...».

«ميخائيل هو الاسم الذي اخترته عندما قرّرت أن أولد من جديد في الحياة. مثل الملاك المحارب، بسيفه الناري، يفتح طريقاً لكي - ماذا تسميها؟ لكي يتمكن «فرسان النور» من أن يجد بعضهم بعضاً. هذه هي مهمتي».

«ومهمتي أيضاً».

«أليس من الأفضل أن تتحدث عن إستر؟».

ماذا؟ هل كان يريد أن يغيّر الموضوع ليعود إلى الشيء الذي يثير اهتمامي؟

«إني لست على ما يرام». بدأت نظرته تجول في أرجاء المطعم كما لو لم أكن موجوداً. «لا أريد أن أتحدّث عن ذلك. الصوت...».

شيء غريب، شيء غريب جداً، كان يحدث. إلى أي مدى كان مستعداً في الاستمرار لإثارة إعجابي؟ هل سيطلب مني في نهاية الأمر أن أؤلف كتاباً عن حياته والقوى التي يتمتع بها كما فعل آخرون قبله؟

عندما يكون أمامي هدف واضح أفعل أيّ شيء لتحقيقه. وهذا ما قلته في كتبي ولا أستطيع أن أخون كلماتي. وكان لديّ هدف الآن: أن أحدّق مرة أخرى في عينيّ *الظاهر*. لقد قدّم لي ميخائيل معلومات جديدة كثيرة: فهو ليس عشيقها، وإستر لم تهجرني، وأنها

مسألة وقت قبل أن تعود. وكان من الممكن أن يكون هذا اللقاء في مطعم البيتزا مهزلة، وأن يكون مجرد شخص لا يملك سبيلاً آخر لكسب عيشه باستغلال ألم شخص آخر ليحقق غاياته الخاصة.

جرعت كأس نبيذ آخر، وفعل ميخائيل الشيء ذاته.

انتبه، قالت لي غريزتي.

«نعم، أريد أن أتحدّث عن إستر، لكني أريد أن أعرف المزيد عنك أيضاً».

«هذا ليس صحيحاً. إنك تحاول إغوائي فقط لإقناعي بأن أفعل أشياء أنا مستعد للقيام بها في جميع الأحوال. ألمك يمنعك من رؤية الأشياء بوضوح. أنت تظن أني قد أكون كذاباً، وأحاول أن أستغلّ الوضع».

ميخائيل يعرف تماماً ما أفكر به، لكنه كان يتكلّم بصوت أعلى مما تسمح به آداب السلوك. بدأ الناس يلتفتون ليروا ما يجري.

«أنت تحاول إثارة إعجابي فقط. إنك لا تدرك مدى تأثير كتبك على حياتي، أو كم تعلّمت منها. إن أعمالك هي التي جعلت روحك وضيعة، وجعلتك مهووساً *بالظاهر*. إنه ليس حبك لها الذي جعلني أقبل دعوتك لتناول الغداء. في الحقيقة لست متأكداً إن كنت مقتنعاً تماماً بحبك. قد يكون مجرد كبرياء مجروح. السبب الذي جعلني آتي إلى هنا هو...».

وبدأ صوته يزداد ارتفاعاً. كان مايزال يتطلع حوله بحدّة، كما لو أنه كان على وشك أن يفقد السيطرة على نفسه.

«الأضواء...».

«ما خطبها؟».

«السبب الذي أتى بي إلى هنا هو حبّها لك».

«هل أنت على ما يرام؟».

لاحظ روبيرتو أن ثمة شيئاً على غير ما يرام. جاء إلى الطاولة مبتسماً، ووضع يده بشكل عفوي على كتف ميخائيل.

«حسناً، كانت البيتزا سيئة جداً اليوم. لا حاجة لأن تدفع ثمنها، يمكنك أن تذهب عندما تشاء».

كانت تلك الوسيلة لإنهاء اللقاء. أصبح بوسعنا أن ننهض ونذهب، وهكذا نتحاشى المشهد الكئيب لشخص في مطعم بيتزا يدّعي بأنه على اتصال مع عالم الأرواح لإثارة إعجابي أو لإحراجي، مع أني أحسست أن هذا ليس سوى أداء مسرحي.

«هلّ تحسّ بهبوب الريح؟».

في تلك اللحظة تأكدت أنه لم يكن يمثّل. بل بالعكس كان يبذل جهداً كبيراً ليسيطر على نفسه، وكان يخشى مما يحدث أكثر مني.

«الأضواء، لقد بدأت الأضواء تنبعث! أرجوك أخرجني من هنا!»

بدأ جسده يرتعش. رأى الجميع ما كان يجري. نهض الأشخاص الجالسون إلى الطاولات الأخرى.

«في كازاخ...».

لم يستطع إكمال جملته. دفع الطاولة بعيداً عنه. تناثرت البيتزا والكؤوس والسكاكين والشوك، وأصابت الروّاد على الموائد الأخرى. تغيّرت قسمات وجهه تماماً. كان جسده كله يرتعش ولم تعد ترى فيه الآن إلا بياض عينيه. ألقى برأسه بقوة إلى الوراء، وسمعت صوت عظام تتصدّع. وقف أحدهم من إحدى الطاولات الأخرى. أمسك روبيرتو ميخائيل قبل أن يسقط، فيما أخذ رجل آخر ملعقة من على الأرض ووضعها في فم ميخائيل.

دام كلّ ذلك ثوان معدودات، إلا أن ذلك بدا لي دهراً. تخيّلت ما يمكن أن تصفه الجرائد الشعبية: كيف أن كاتباً مشهوراً ـ فرغم كلّ المراجعات المناوئة، كنت مرشحاً محتملاً لنيل جائزة أدبية

رئيسية ـ كان قد أعدّ جلسة من جلسات تحضير الأرواح في مطعم بيتزا للدعاية والترويج لكتابه الجديد. كان إحساسي بالذعر يكاد يخرج عن إرادتي. وسيكتشفون أن الوسيط المعني هو ذات الرجل الذي هرب مع زوجتي. وستبدأ القصة من جديد، وهذه المرة لن تكون لديّ الشجاعة أو الطاقة الضرورية للمواجهة.

كنت أعرف عدداً قليلاً من رواد المطعم الآخرين، لكن من هم من بين هؤلاء أصدقائي المخلصون؟ من سيكون بوسعه أن لا يتحدث عما رآه؟

توقّف جسد ميخائيل عن الارتعاش وشعر بالاسترخاء. وكان روبيرتو يمسكه منتصباً على كرسيه. أخذ الرجل الآخر نبض ميخائيل، وفحص عينيه، ثم التفت إليّ وقال:

«من الواضح أنها ليست المرة الأولى التي يحدث له فيها ذلك. منذ متى تعرفه؟».

«أوه، إنه من زبائني المنتظمين»، أجاب روبيرتو بعد أن رأى أني لم أعد قادراً على الكلام. «لكن هذه هي المرة الأولى التي تحدث أمام الناس، مع أن مثل هذه الحالات كانت قد حدثت في مطعمي من قبل بالطبع».

«نعم»، قال الرجل، «لقد لاحظت أنك لم تفزع أو تضطرب».

من الواضح أن هذه الملاحظة كانت موجهة لي، لأن وجهي اكتسى بشحوب الأموات. عاد الرجل إلى طاولته، وحاول روبيرتو أن يطمئنني.

قال: «إنه الطبيب الشخصي لممثلة مشهورة جداً، مع أنه يبدو لي أنك أنت بحاجة للرعاية الطبية أكثر من ضيفك».

كان ميخائيل ـ أو أوليغ أو مهما كان اسم الشابّ الجالس قبالتي ـ قد بدأ يعود إلى وعيه. تطلع حواليه، ودون أن يبدو عليه أي شعور بالحرج، ابتسم باستحياء.

قال: «أنا آسف، لقد حاولت أن أسيطر عليها».

بذلت ما بوسعي كي أحافظ على هدوئي. وهبّ روبيرتو مرّة أخرى لإنقاذي.

«لا تقلق. يملك كاتبنا مالاً كافياً لتسديد ثمن الصحون المكسورة».

ثم التفت إليّ وقال: «إنه الصرع. لقد كانت مجرد نوبة من الصرع. هذا كلّ ما في الأمر».

غادرت المطعم مع ميخائيل، الذي أشار إلى سيارة أجرة على الفور.

«لكننا لم نتحدث بعد! إلى أين أنت ذاهب؟».

«لست في وضع يمكنني من الكلام الآن. وأنت تعرف أين يمكنك أين تجدني».

هناك نوعان من العالم: العالم الذي نحلم به، والعالم الحقيقي.

في عالم أحلامي، أخبرني ميخائيل الحقيقة: كنت أمرّ في وقت صعب، أواجه نوعاً من سوء الفهم الذي يمكن أن يحدث في أي علاقة حبّ. وكانت إستر تنتظر بأناة في مكان ما أن أكتشف نقاط الفشل في زواجنا، ثم أذهب إليها وأطلب منها الصفح كي نستأنف حياتنا معاً.

في عالم الأحلام ذاك، تحدثنا أنا وميخائيل بهدوء، غادرنا مطعم البيتزا، أخذنا سيارة أجرة، وقرعنا جرس البيت الذي تقيم فيه زوجتي السابقة (أو زوجتي؟ طُرح السؤال بالطريقة المعاكسة الآن) حيث تنسج السجاد في الصباح، وتعطي دروساً باللغة الفرنسية بعد الظهر، وتنام وحدها في الليل، تنتظر مثلي أن يقرع الجرس، كي يدخل زوجها وهو يحمل باقة كبيرة من الورد، وتحملها لاحتساء الكاكاو في فندق بالقرب من الشانزليزيه.

أما في العالم الحقيقي، فكانت جميع اللقاءات مع ميخائيل مشوبة بالتوتر دائماً، لأني كنت أخشى أن يتكرر ما حدث في مطعم البيتزا. وأن يكون كلّ ما يقوله من نسج خياله. ومثلي لم يكن يعرف مكان وجود إستر. وفي العالم الحقيقي كنت في محطة الشرق، في الساعة 11:45 قبل الظهر،أنتظر وصول قطار ستراسبورغ، الذي يقلّ ممثلاً ومخرجاً أمريكياً مهماً أراد أن ينتج فليماً يستند إلى أحد كتبي.

وحتى ذلك الحين، عندما كان أحد يذكر إمكانية تحويل أحد كتبي إلى فيلم سينمائي، كان ردي دائماً، «لا، لست مهتماً بذلك». ففي رأيي أن كلّ قارئ يخلق فيلمه الخاص في مخيلته، يعطي وجوهاً للشخصيات، يبني كلّ مشهد، يسمع الأصوات، يشمّ الروائح. ولهذا السبب، عندما يذهب أحد القراء لمشاهدة فيلم يستند إلى رواية يحبها، يغادر الفيلم خائباً وهو يقول: «كان الكتاب أفضل بكثير من الفيلم».

هذه المرة كانت وكيلتي أكثر إلحاحاً. فقد قالت لي إن هذا الممثل ـ منتج الأفلام «يؤيدني»، ويتمنّى أن يفعل شيئاً يختلف تماماً عن أيّ من الاقتراحات الأخرى التي تلقيناها. وكان قد رتب اللقاء منذ شهرين، وكنّا سنتناول العشاء في تلك الليلة لنناقش التفاصيل، ونرى إن كنا حقاً نفكّر بالطريقة ذاتها.

لكن جدول أعمالي تغيّر في الأسبوعين الأخيرين تغيراً تاماً: فقد كان يوم الخميس، وكان عليّ أن أذهب إلى المطعم الأرمني، في محاولة لأعيد الصلة بذلك الشاب المصاب بالصرع الذي أقسم أنه يسمع أصواتاً، لكنه الشخص الوحيد الذي يعرف مكان *الظاهر*. وقد فسرت هذا بأنه إشارة بأن لا أبيع حقوق الكتاب ليصبح فيلماً سينمائياً، ولذلك حاولت أن ألغي الاجتماع مع الممثل. أصرّ وقال إنه يمكننا أن نتناول الغداء في اليوم التالي، وقال: «لا أحد يأسف على قضاء ليلة وحده في باريس»، ولم يترك لي إمكانية التراجع.

في عالم خيالي، كانت إستر ماتزال رفيقتي، وقد منحني حبّها القوة في المضي قدماً واستكشاف إمكانياتي وحدودي.

أما في العالم الحقيقي فقد كانت تستحوذ على أفكاري، تستنزف طاقتي، تشغل كلّ فضاءاتي المتاحة، وترغمني على بذل جهد هائل لمواصلة حياتي وعملي ولقاءاتي مع منتجي الأفلام، ولقاءاتي الصحفية.

كيف كان ممكناً أني لم أستطع أن أنساها حتى بعد سنتين؟ لم أحتمل الاستمرار في التفكير في هذا الموضوع أكثر من ذلك. أحلّل كلّ الاحتمالات، وأختبر مختلف السبل: قررت أن أتقبل الوضع، أؤلف كتاباً، أمارس اليوغا، وأزاول بعض الأعمال الخيرية، وأرى أصدقاء، وأغوي نساء، وأخرج إلى العشاء، وأرتاد دور السينما (وأتفادى دائماً الأفلام المقتبسة عن الروايات، وبالطبع، أبحث عن أفلام كتبت خصيصاً للسينما)، أو المسرح، أو أحضر حفلة باليه، أو لعبة كرة قدم، ومع ذلك، كان *الظاهر* يفوز على الدوام، فقد كان دائماً هناك يجعلني أظن أني أتمنّى أن تكون برفقتي الآن».

نظرت إلى ساعة المحطة ـ مايزال هناك خمس عشرة دقيقة. وفي عالم خيالي كان ميخائيل حليفاً. أما في العالم الحقيقي فلم تكن لديّ إثباتات ملموسة بذلك، ما عدا رغبتي الكبيرة في تصديق ما كان يقوله. فقد يكون عدواً متنكراً في زي صديق.

عدت إلى الأسئلة المعتادة: لماذا لم تقل لي شيئاً؟ أو هل كانت تحاول أن تفعل ذلك عندما طرحت عليّ السؤال الذي سألني إياه هانز؟ هل قرّرت إستر أن تنقذ العالم كما ألمحت في حديثنا عن الحبّ والحرب، وهل كانت تهيئني لأشاركها في هذه المهمة؟

كانت عيناي مثبتتين على مساريّ السكة الحديدية. وكنا أنا وإستر نمشي بحذاء بعضنا في خط متواز، لا يلمس أحدنا الآخر. قدران...

مسارا السكة الحديدية.

ما المسافة التي تفصل بين المسارين؟

بغية نسيان *الظاهر*، حاولت أن أسأل أحد موظفي المحطة.

أجاب: «يفصل بين المسارين مسافة 143,5 سنتيمتراً، أو أربعة أقدام وثماني بوصات ونصف»».

بدا أنه رجل هادئ مسالم مع الحياة، فخور بعمله، ولم يكن

يتطابق مع ما قالته إستر على الإطلاق، بأننا جميعنا نختزن في أرواحنا حزناً عظيماً.

لكن لم يكن لجوابه معنى على الإطلاق: 143,5 سنتيمتراً، أو أربعة أقدام وثماني بوصات ونصف؟»

شيء سخيف. فمن المنطقي يجب أن تكون المسافة إما 150 سنتيمتراً أو 5 أقدام. رقم كامل، سهل ليتذكره عمال عربات السكك الحديدية.

«لكن لماذا؟» سألت الرجل.

«لأن هذه هي المسافة التي تفصل بين عجلات القاطرات».

«لكن من المؤكد أن هذه هي المسافة بين العجلات، لأنها المسافة بين المسارات».

«انظر، لمجرد أني أعمل في محطة سكة الحديد لا يعني أني أعرف كلّ شيء عن القطارات. هكذا هي الأمور فقط».

لم يعد شخصاً سعيداً في سلام مع عمله. كان بوسعه أن يجيب عن سؤال واحد، لكنه لم يكن يستطيع أن يمضي أكثر من ذلك. اعتذرت منه، وأمضيت ما تبقى من الخمس عشرة دقيقة أحدّق في المسارات، أشعر بشكل حدسي، بأنها تحاول أن تقول لي شيئاً.

ومع أن ذلك كان يبدو غريباً. فقد بدا أن المسارات تخبرني شيئاً عن زواجي، وعن جميع الزيجات.

وصل الممثل. كان ألطف مما توقعته بكثير، رغم شهرته التي تطبق الأفاق. تركته في فندقي المفضّل وذهبت إلى البيت. ولدهشتي كانت ماري تنتظرني هناك، وقالت إن التصوير تأجل حتى الأسبوع التالي بسبب سوء الأحوال الجوية.

«بما أن اليوم الخميس، أظن أنك ستذهب إلى المطعم».

«هل تريد أن تأتي معي؟».

«نعم. لماذا؟ هل تفضّل أن تذهب وحدك؟».

«نعم».

«حسناً، لقد قرّرت أن آتي في أي حال. فلم يولد الرجل بعد الذي يمكنه أن يقول لي إلى أين يمكنني أن أذهب، وإلى أين لا يمكنني أن أذهب».

«هل تعرفين لماذا المسافة التي تفصل بين مساريّ السكة الحديدية هي 143,5 سنتيمتراً؟»

«يمكنني أن أعرف ذلك من الإنترنت. هل هذا الأمر مهم؟».

«جداً».

«ضع مسارات السكة الحديدية جانباً الآن. كنت أتحدث إلى بعض أصدقائي المعجبين بكتبك. إنهم يرون أن الشخص الذي يستطيع أن يؤلف كتباً مثل «وقت للفتق ووقت للرتق»، أو ذلك الكتاب عن الراعي أو الحجّ إلى سانتياغو، لا بد أن يكون: حكيماً يملك الجواب عن كلّ شيء».

«وهذا ليس صحيحاً كما تعرفين».

«ما الحقيقة إذن؟ كيف يمكنك أن تنقل إلى قرائك أشياء خارجة عن إطار معرفتك؟».

«إنها ليست أشياء خارج إطار معرفتي. إن كلّ ما هو مدوَّن في كتبي جزء من روحي، جزء من الدروس التي تعلّمتها خلال حياتي كلها، والتي أحاول أن أطبقّها على نفسي. فأنا قارئ لكتبي. إنها تُريني ما كنت أعرفه سابقاً، حتى ولو بشكل غير واعٍ».

«وماذا عن القارئ؟»

«أظن أن الشيء ذاته ينطبق على القارئ. إن أي كتاب - ونستطيع أن نتحدّث عن أيّ شيء هنا، فيلم، أو معزوفة موسيقية، أو حديقة، أو إطلالة من جبل، تكشف لنا شيئاً جديداً. وأعني بكلمة تكشف إماطة اللثام عن شيء وإعادة حجبه. وإن إماطة اللثام عن شيء لا يعني أني أحاول أن أعلّم الآخرين سرّ العيش في حياة أفضل».

إن الحبّ يجعلني أمر في وقت صعب الآن، كما تعرف. ويمكن اعتبار ذلك الآن هبوطاً إلى الجحيم أو يمكن اعتباره وحياً عندما كتبت «وقت للفتق ووقت للرتق» فهمت قدرتي على الحبّ. وقد تعلّمت ذلك عندما كنت أدوّن بالفعل الكلمات والجمل».

«لكن ماذا عن الجانب الروحي؟ ماذا عن الروحانية التي تبدو حاضرة في كلّ صفحة من صفحات كتبك؟».

«بدأت فكرة قدومك معي إلى المطعم الأرمني تروق لي، لأنك تحلمين، أو بالأحرى بدأت تدركين ثلاثة أشياء هامة. الأول: هو ما أن يقرر الناس مواجهة مشكلة ما حتى يدركوا أنهم لا يستطيعون مواجهتها أكثر مما كانوا يظنون. والثاني: هي أن الطاقة كلّها والمعرفة كلّها تأتي من ذات المصدر المجهول، الذي ندعوه عادة الله. إن ما حاولت أن أفعله في حياتي، منذ أن بدأت أعتقد أنه طريقي، هو أن أحترم تلك الطاقة، أن أرتبط بها كلّ يوم، أن أترك

الإشارات والرموز توجهني، أن أتعلّم ما أفعله، لا بالتفكير بما سأفعله».

«والثالث: أنه لا يوجد أحد وحيداً في مشاكله، فهناك دائماً شخص آخر يفكّر، يبتهج، أو يعاني بالطريقة ذاتها، وهذا ما يمنحنا القوة لمواجهة التحدي الماثل أمامنا».

«وهل هذا يشمل المعاناة من أجل الحبّ؟».

«إنه يشمل كلّ شيء. إذا كانت هناك معاناة فمن الأفضل قبولها، لأنها لن تتلاشى حين تتظاهر بأنها غير موجودة. وإذا كان هناك فرح، فمن الأفضل قبوله أيضاً، مع أنك تخشى أنه سينتهي ذات يوم. فبعض الناس لا يمكنهم أن يتعلّقوا بالحياة إلا من خلال التضحية ونكران الذات. والبعض الآخر لا يمكنهم إلا أن يشعروا بجزء من الإنسانية عندما يظنون أنهم سعداء. لكن لماذا كلّ هذه الأسئلة؟».

«لأني عاشقة وأخشى المعاناة».

«لا تخشي شيئاً. إن الوسيلة الوحيدة لتفادي تلك المعاناة هي رفض الحبّ».

«يمكنني أن أشعر بوجود إستر. لكن ما عدا نوبة الصرع التي انتابت ذلك الشابّ، لم تخبرني عن أي شيء آخر عما حدث في مطعم البيتزا. إنها إشارة سيئة لي، مع أنها قد تكون إشارة جيدة بالنسبة لك».

«قد تكون إشارة سيئة لي أيضاً».

«هل تعرف ماذا أريد أن أعرفه؟ أريد أن أعرف إن كنت تحبّني بقدر ما أحبك. لكني لا أملك الشجاعة لأن أسألك ذلك. لماذا لدي هذه العلاقة المحبطة مع الرجال؟ فأنا أشعر دائماً بأنه يجب أن تكون لديّ علاقة، وهذا يعني بأن علي أن أكون ذلك الشخص الرائع الاستثنائي الحسّاس الذكي. إن جهد الإغواء يرغمني على منح

أفضل ما عندي، وهذا الأمر يساعدني. بالإضافة إلى ذلك فمن الصعب أن تعيش وحدك، ولا أعرف إن كان ذلك الخيار هو الأفضل أيضاً».

«إذن تريدين أن تعرفي إن كان مايزال بإمكاني أن أحبّ امرأة، رغم أنها تركتني دون أن تفسر سبب ذلك بكلمة واحدة».

«لقد قرأت كتابك. أعرف أنك هكذا».

«هل تريدين أن تعرفي إن كنت، رغم محبتي لإستر، ماأزال قادراً على حبك؟».

«لا أجرؤ على سؤالك هذا السؤال لأن الجواب قد يدمِّر حياتي».

«هل تريدين أن تعرفي إن كان قلب الرجل أو قلب المرأة يستطيع أن يضم قدراً كافياً من الحبّ لأكثر من شخص واحد؟».

«بما أن هذا السؤال أقل مباشرة من السؤال السابق، نعم أريد جواباً».

«أظن أنه محتمل جداً ما دام أحد هذين الشخصين لا يتحوّل إلى...».

«... *الظاهر*. حسناً، سأكافح من أجلك على أية حال، لأني أعتقد أنك تستحق ذلك. فأيّ رجل قادر على أن يحبّ امرأة بقدر ما أحببت ـ أو تحبّ ـ إستر يستحقّ كلّ احترامي وكلّ جهودي. ولأظهر لك ذلك أريد أن أحافظ عليك بجانبي، لأبيّن لك كم أنت مهم في حياتي، وسأفعل ما تطلبه مني، مهما كان سخيفاً، سأعرف السبب الذي يجعل المسافة التي تفصل بين مساريّ السكة الحديدية هي دائماً 4 أقدام و ثمانية بوصات ونصف».

فعل صاحب المطعم الأرمني ما أخبرني بأنه يزمع أن يفعله: فقد كان المطعم كلّه، لا الغرفة في الخلف فقط، يعج الآن بالناس الذين قدموا لحضور الاجتماع. راحت ماري ترمقهم بشيء من الفضول، وأخذت تعلّق بين الحين والآخر على التباين في هذا الجمع من الناس.

«لماذا يحضرون معهم أطفالهم إلى عرض كهذا؟ إنه شيء سخيف».

«ربما لا يوجد لديهم أحد يمكنهم أن يتركونه عندهم».

في الساعة التاسعة تماماً صعد إلى خشبة المسرح المؤدّون الستة: الموسيقيان اللذان يرتديان لباساً شرقياً، والشباب الأربعة الذين يرتدون أردية بيضاء طويلة. وعلى الفور توقفت خدمة الطاولات وخيم الصمت.

«في أسطورة الخلق المنغولية، تلتقي ظبية وكلب برّي معاً»، قال ميخائيل بذلك الصوت الذي لم يكن صوته. «كائنان يتمتعان بطبيعتين مختلفتين تماماً: ففي البرية من المعتاد أن يقتل الكلب الظبية ويجعلها طعاماً له. وفي الأسطورة المنغولية فإن كلاً منهما يحتاج إلى صفات الآخر، إذا كان عليهما أن يعيشا في عالم متوحش فعليهما أن يوحّدا قوتيهما.

«وللقيام بذلك كان يجب أن يتعلّما أولاً أن يحبّا. ولكي يحبّا كان يتعين عليهما أن يتوقّفا عن كونهما ما هما عليه، وإلا فلن يتمكنا من العيش معاً. ومع مرور الزمن بدأ الكلب البرّي يتقبل أن غريزته التي تتركز دائماً على الصراع من أجل البقاء، تؤدي غرضاً أعظم الآن: إيجاد شخص يمكنه أن يبني معه العالم من جديد».

توقّف قليلاً.

«وعندما نرقص فإننا ندور حول الطاقة نفسها التي تصعد إلى سيدتنا ثم تعود إلينا مشبعة بكلّ قوتها، تماماً كما يتبخّر الماء في الأنهار، ويتحوّل إلى غيوم، ويعود على شكل مطر. وقصتي اليوم تدور حول دائرة الحبّ.

«في صباح أحد الأيام أخذ مزارع يقرع باب دير بقوة. وعندما فتح الأخ بورتر الباب دفع إليه المزارع عنقوداً رائعاً من العنب.

«أيها الأخ العزيز بورتر، هذا العنقود من أجود أنواع العنب التي اقتطفتها من كرمي. أرجو أن تقبله هدية مني».

«لماذا، شكراً! سآخذه مباشرة إلى رئيس الدير الذي سيبتهج بهذه الهدية».

«لا، لا. لقد جلبته لك».

«لي؟ لكنني لا أستحقّ مثل هذا الهدية الجميلة من الطبيعة».

«عندما قرعت الباب كنت أنت من فتح الباب. وعندما أتلف الجفاف الحصاد، كنت تقدم لي قطعة من الخبز وقدحاً من النبيذ كلّ يوم. أريد أن يجلب لك عنقود العنب هذا شيئاً من حبّ الشمس، من جمال المطر، ومن قوّة الله الخارقة».

«وضع الأخ بورتر عنقود العنب في مكان يمكنه أن يراه فيه، وأمضى الصباح كله وهو يبدي إعجابه به: كان حقاً عنقوداً رائعاً. ولهذا السبب قرّر أن يقدّمه إلى رئيس الدير الذي كانت كلماته الحكيمة تثلج صدره باستمرار.

«سُرّ رئيس الدير كثيراً بعنقود العنب، لكنه تذكّر بعدها أن راهباً آخر كان مريضاً وقال لنفسه: سأعطيه عنقود العنب. فمن يعرف فقد يدخل قليلاً من البهجة إلى حياته.

«لكن عنقود العنب لم يبق طويلاً في غرفة الراهب المريض، فقد قال لنفسه: لقد اعتنى بي الأخ كوك كثيراً، وهو يقدم لي أفضل الطعام. وأنا واثق من أن عنقود العنب هذا سيجلب له سعادة عظيمة. وعندما أحضر الأخ كوك الطعام له قدم له الراهب عنقود العنب.

«هذا لك. إذ إنك قريب من العطايا التي تمنحنا إياها الطبيعة، وإنك تعرف ماذا ستفعل بهذا الشيء الذي أنتجه الله».

«دهش الأخ كوك بجمال عنقود العنب، ولفت انتباه مساعده إلى كماله. كانت حبات العنب رائعة ومثالية بحيث لم يكن بوسع أحد أن يقدّرها أكثر من الأخ ساكريستان، المسؤول عن الطقس المقدّس، والذي كان يعتبره الكثيرون في الدير قديساً حقيقياً.

«وبدوره قدم الأخ ساكريستان عنقود العنب إلى أصغر الرهبان المبتدئين ليساعده في فهم أنه يمكن إيجاد عمل الله في أدق المخلوقات. وعندما أخذه الراهب المبتدئ امتلأ قلبه بمجد الله، لأنه لم ير في حياته عنقود عنب بهذه الروعة. وتذكّر في الوقت نفسه اليوم الذي وصل فيه إلى الدير والشخص الذي فتح له الباب. إذ إن بادرة فتح الباب تلك هي التي جعلته موجوداً بين هذا الجمع من الناس الذين كانوا يعرفون قيمة المعجزات.

«وقبل حلول الظلام بفترة وجيزة أخذ عنقود العنب إلى الأخ بورتر.

«تناول حباته وتمتّع بها. فإنك تمضي معظم أوقاتك وحيداً هنا، وستدخل حبات العنب هذه السرور إلى قلبك».

«فهم الأخ بورتر آنذاك أنه هو المقصود بالهدية، راح يتذوق كلّ حبة عنب بلذة، وأوى إلى فراشه سعيداً. وبهذه الطريقة اكتملت

الدائرة؛ دائرة السعادة والبهجة التي تلفّ دائماً من هم على اتصال بطاقة الحبّ».

قرعت المرأة التي تدعى ألما الصنج النحاسي.

«كما دأبنا على أن نفعل كلّ يوم خميس، فإننا نستمع إلى قصة حبّ، ونروي قصصاً عن الافتقار للحبّ. لننظر إلى ما هو موجود على السطح ومن ثم نفهم شيئاً فشيئاً ما يقبع في الأسفل: عاداتنا، قيمنا. وعندما يصبح بوسعنا أن نخترق تلك الطبقة سيكون باستطاعتنا أن نجد أنفسنا. من يريد أن يبدأ؟».

ارتفعت أيدي عديدة، بما فيها ـ لدهشة ماري ـ يدي. ازدادت الضوضاء ثانية، وبدأ الناس يتململون في مقاعدهم. أشار ميخائيل إلى امرأة جميلة طويلة ذات عينين زرقاوين.

«في الأسبوع الماضي، ذهبت لرؤية صديق شاب يعيش وحيداً في الجبال بالقرب من الحدود مع إسبانيا. كان يحبّ الأشياء الجميلة في الحياة، وكان يقول غالباً إن أيّ حكمة يحصل عليها تأتيه لأنه يعيش كلّ لحظة من لحظات الحياة بكاملها. ومنذ البداية كان زوجي يعارض ذهابي لرؤية هذا الصديق. فقد كان يعرف كيف يعيش، وكانت هوايته المفضّلة اصطياد الطيور وإغواء النساء. لكني كنت بحاجة لأن أتحدث إلى هذا الصديق؛ كنت أجتاز فترة عصيبة، وكان هو الشخص الوحيد الذي بوسعه أن يساعدني. وكان زوجي قد اقترح عليّ أن أرى طبيباً نفسانياً، أو أذهب في رحلة، حتى أننا تشاجرنا حول هذا الأمر، إلا أني رغم كلّ هذه الضغوط المنزلية ذهبت. جاء صديقي لاستقبالي في المطار، وأمضينا فترة بعد الظهر ونحن نتكلم؛ تناولنا العشاء، واحتسينا قليلاً من النبيذ، ثم تحدثنا أكثر قليلاً ثم آويت إلى الفراش. وعندما استيقظت في صباح اليوم التالي ذهبنا نتمشى بالقرب من المكان الذي كان يقيم فيه، ثم أوصلني إلى المطار.

«ما أن وصلت إلى البيت حتى بدأت الأسئلة. هل كان وحده؟ نعم. أتقصدين أنه لم يكن معه صديقة؟ لا. هل قدم لك شراباً؟ نعم. لماذا لا تريدين التحدّث عنه؟ لكني أتحدّث عنه! وحدكما معاً في بيت في الجبال، ايه؟ شيء رومانسي جداً. وماذا في ذلك؟ وكلّ ما فعلتماه هو أنكما كنتما تتحدثان، كما تقولين؟ نعم، هذا كلّ ما في الأمر. وهل تتوقّعينني أن أصدق ذلك؟ ولماذا لا تصدق ذلك؟ لأن ذلك يخالف الطبيعة الإنسانية ـ إذا اجتمع رجل وامرأة، وشربا قليلاً، وتحدثا عن أمور شخصية، فلا بد أن ينتهي بهما الأمر إلى السرير!

«أتفق مع زوجي. فإن ذلك يخالف كلّ ما تعلمناه. ولن يصدق القصة التي حكيتها له، لكنها صحيحة تماماً. ومنذ ذلك الحين، تحولت حياتنا إلى جحيم. سيمرّ الأمر، لكن المعاناة من هذا الألم عديمة الجدوى، وكلّ ذلك لأنه قيل لنا إنه إذا أعجب رجل بامرأة، وسمحت لهما الظروف، فإن الأمر سينتهي بهما إلى السرير».

تصفيق. أُشعلت السجائر. تعالت أصوات قرع الكؤوس والزجاجات.

«ماذا يجري؟» همست ماري. «نقاشات علاج جماعي للأزواج؟».

«إنه جزء من الاجتماع. لا أحد يقول إن كان ذلك صحيحاً أم خطأ، إنهم يروون قصصهم فقط».

«لكن لماذا يفعلون ذلك أمام الآخرين، بهذه الطريقة غير اللائقة، والناس يشربون ويدخّنون؟».

«ربما كان ذلك للتخفيف من أعبائهم. بهذه الطريقة أسهل. وهي تساعد في جعل الأمور أسهل، ما الخطأ في ذلك؟».

«أسهل؟ التحدث أمام مجموعة من الغرباء الذين يمكن أن يذهبوا ويحكوا هذه القصة إلى أزواجهم غداً؟».

بدأ شخص آخر الكلام، لذلك لم أستطع أن أقول لماري إن ذلك

لا يهم: فالجميع جاؤوا إلى هنا ليتحدثوا عن عدم الحبّ متنكراً في شكل الحبّ.

«أنا زوج المرأة التي حكت تلك القصة»، قال أحد الرجال، الذي كان يكبر الصبية الجميلة الشقراء بما لا يقل عن عشرين سنة، «كلّ ما قالته صحيح، لكن هناك شيء لا تعرفه، والذي لم تكن لديّ الشجاعة لأن أقوله لها. وسأفعل ذلك الآن.

«عندما ذهبت إلى الجبال لم يغمض لي جفن طوال الليل، وبدأت أتخيّل بالتفصيل ما كان يجري. فعندما وصلت كانت النار ماتزال موقدة. خلعت معطفها، وخلعت كنزتها، ولم تكن ترتدي حمالة صدر تحت قميصها الرقيق. وكان بإمكانه أن يرى شكل نهديها بوضوح.

«كانت تتظاهر بأنها لم تلحظ أنه كان ينظر إليها. قالت إنها ذاهبة إلى المطبخ لتأتي بزجاجة أخرى من الشمبانيا. كانت تلبس بنطال جينز ضيّقاً جداً، وأخذت تمشي ببطء، ولم تلتفت لترى إن كان يراقب كلّ حركة من حركاتها. عادت، وراحا يتحدّثان عن أمور شخصية جداً، تجعلهما يشعران بأنهما قريبان من بعضهما.

«أنهيا الحديث عن المشكلة التي ذهبت من أجلها. رنّ هاتفها الخليوي. كنت أنا، كنت أريد أن أعرف إن كانت على ما يرام. توجهت إليه، ووضعت السماعة على أذنه، وراحا يستمعان إلى ما كنت أقوله. كان حديثاً أخرق، لأني كنت أعرف أن الوقت قد تأخر كثيراً لأمارس عليها أي نوع من الضغط، فكان من الأفضل بأن أتظاهر أن كل شيء يسير على ما يرام، وبأن أقول لها أن تستمتع بوقتها في الجبال لأنها ستعود في اليوم التالي إلى باريس، وتعتني بالأطفال وتتسوّق.

«أغلقت سماعة الهاتف وأنا أعرف أنه سمع الحديث كله. كلاهما قبل ذلك كانا يجلسان على أرائك منفصلة، أما الآن فكان أحدهما يجلس ملاصقاً للآخر.

«في تلك اللحظة، توقّفتُ عن التفكير بما كان يجري في الجبل. نهضتُ، دخلت غرفة نوم أطفالي، توجهت إلى النافذة، ورحت أتطلع إلى باريس، وهل تعرفون بماذا شعرت؟ شعرت بالإثارة، شعرت بإثارة شديدة؛ إذ إن التفكير بأنهما معاً، وبأن زوجتي كانت في تلك اللحظة بالذات تقبّل الرجل الآخر، وتمارس الجنس معه، أثارني جنسياً.

«شعرت بالهلع. كيف يمكنني أن أشعر بالإثارة من شيء كهذا؟ وفي اليوم التالي تحدثت إلى صديقين. وبالطبع لم أستخدم نفسي كمثال، لكني سألتهما إن كان يثيرهما مشاهدة رجل آخر يحدّق في شقّ صدر زوجتيهما. فلم يجيبا عن سؤالي لأن الحديث في هذا الأمر يعد من المحرمات. لكنهما وافقا على أنه من الطريف دائماً أن تعرف أن زوجتك مرغوبة من رجل آخر، مع أنهما لم يستفيضا في الحديث أكثر من ذلك. هل هذه فانتازيا تتوارى في قلوب جميع الرجال؟ لا أعرف. كان الأسبوع الماضي بمثابة شيء من الجحيم لكلينا لأني لم أفهم مشاعري. ولأني لم أستطع أن أفهمها، فأنا ألومها لأنها أثارت فيّ مشاعر تجعل العالم يبدو خطراً فجأة».

هذه المرة أشعل عدد آخر من الأشخاص سجائر، لكن لم يكن هناك تصفيق. فقد بدا أن الخوض في هذا الموضوع مايزال يعتبر من المحرمات.

رفعت يدي مرة أخرى، وسألت نفسي في الوقت نفسه إن كنت أوافق على ما قاله الرجل. نعم، كنت أوافق. فقد تخيّلت سيناريوهات مماثلة تشمل إستر والجنود الذين التقت بهم في المناطق الحربية، لكني لم أجرؤ على قول ذلك حتى لنفسي.

تطلع ميخائيل باتجاهي وأومأ برأسه.

لا أعرف كيف استطعت الوقوف على قدميّ ورحت أنظر إلى الجمهور الذي كان مايزال يبدو مصدوماً من قصة الرجل الذي شعر

بالإثارة لمجرد التفكير بأن زوجته تمارس الجنس مع رجل آخر. كان يبدو أن أحداً لم يكن ينصت، مما ساعدني في أن أبدأ حديثي.

«أعتذر لأني لست على درجة من الصراحة التي تكلم بها من سبقوني في الحديث، لكني ومع ذلك أريد أن أدلي بدلوي. فقد ذهبت إلى محطة القطارات اليوم وعلمت أن المسافة التي تفصل بين مساريّ السكة الحديدية هي 143,5 سنتيمتراً، أو أربعة أقدام وثمانية بوصات ونصف. سألت صديقتي لماذا هذا القياس السخيف؟ وتوصلت إلى ما يلي: عندما صنعوا عربات القطار الأولى استخدموا ذات الأدوات التي كانوا يصنعون فيها العربات التي تجرها الأحصنة. ولماذا تلك المسافة التي تفصل بين عجلات العربات؟ لأن ذلك كان عرض الطرق القديمة التي كانت تسير عليها العربات. ومن قرّر أنه يجب أن تكون الطرق بهذا العرض؟ حسناً، لقد عدنا فجأة إلى الماضي البعيد. فقد كان الرومان، بناة الطرق العظماء الأوائل، هم الذين قرّروا أن يشقوا طرقهم بهذا العرض. ولماذا؟ لأن عرباتهم الحربية كان يجرها حصانان، وعندما كان يوضع الحصانان جنباً إلى جنب، كانت المسافة التي تفصل بين الحصانين آنذاك: 143,5 سنتيمتراً.

«لذلك فإن المسافة بين مساريّ السكة التي رأيتها اليوم، والتي تستخدمها أحدث أنواع قطاراتنا السريعة، كان قد حددها الرومان. وعندما بدأ الناس يذهبون إلى الولايات المتحدة، وبدؤوا يمدون السكك الحديدية هناك لم يخطر لهم أن يغيّروا عرضها، لذلك بقيت كما كانت. بل حتى أن ذلك أثّر على المكوك الفضائي. فقد فكّر المهندسون الأمريكيون بضرورة أن تكون خزّانات الوقود أوسع، إلا أن الخزانات صُنعت في يوتا، وكان يتعين نقلها بالقطار إلى مركز الفضاء في فلوريدا، ولم يكن بوسع الأنفاق أن تتسع لخزانات أوسع. لذلك اضطروا لقبول المسافة التي كان الرومان قد قرروا أنها المسافة المثالية. لكن ما علاقة كلّ هذا بالزواج؟».

توقّفت قليلاً. فلم يبدِ بعض الأشخاص أدنى اهتمام بمسارات السكة الحديدية، وبدؤوا يتحدثون فيما بينهم، فيما راح آخرون ينصتون باهتمام، بمن فيهم ماري وميخائيل.

«إن لها علاقة تامة بالزواج وبالقصتين اللتين سمعناهما الآن. ففي لحظة ما في التاريخ، خرج أحدهم وقال: عندما يتزوج شخصان يجب أن يظلا مجمّدين هكذا إلى آخر حياتهما. ويجب أن يسيرا جنباً إلى جنب كمساريّ السكة الحديدية، وأن يحافظا دائماً على تلك المسافة التي تفصلهما. حتى لو احتاج أحدهما أحياناً لأن يكون أبعد قليلاً أو أقرب قليلاً، فهذا يخالف القواعد السائدة. فالقواعد تقول: كونا عاقلين، فكّرا بالمستقبل، فكّرا بأطفالكما. وأنتما لا تستطيعان أن تتغيرا، ويجب أن تكونا مثل مساريّ السكة الحديدية اللذين يحافظان على مسافة متباعدة واحدة طوال الطريق بدءاً من نقطة انطلاقهما وحتى مكان المقصد. والقواعد لا تسمح بأن يتغير الحبّ، أو أن ينمو في البداية ويضعف في منتصف الطريق - إنه لأمر شديد الخطورة. ولذلك، وبعد حماس السنوات القليلة الأولى يحافظان على المسافة ذاتها، على الصلابة ذاتها، وعلى الطبيعة الوظيفية نفسها. إذ إن هدفكما يتمثل في السماح للقطار بالحفاظ على بقاء النوع واستمراريته: ولن يكون أطفالكما سعداء إلا إذا بقيتما كما أنتما - المسافة التي تفصل المسارين 143,5 سنتيمتراً. وإذا لم تكونا سعيدين فإن ذلك يجب ألا يغيّر شيئاً، فكّرا بالأطفال الذين أنجبتموهما إلى هذا العالم.

«فكّرا بجيرانكما. أظهرا لهم أنكما سعداء، تناولا اللحم المشوي أيام الأحد، شاهدا التلفاز، ساعدا المجتمع. فكّرا بالمجتمع. ارتديا ثيابكما بالطريقة التي تجعل كلّ شخص يعرف أنكما في غاية الانسجام. لا تنظرا إلى يمينكما أو إلى يساركما، فقد يكون ثمة شخص يراقبكما، مما يسبب إغراء، وقد يعني ذلك طلاقاً، أزمة، كآبة.

«ابتسما في الصور جميعها. ضعا الصور في غرفة الجلوس كي يراها الجميع. قصّا العشب، مارسا الرياضة ـ أوه، نعم، يجب أن تمارسا الرياضة كي تبقيا صلبين مع الزمن. وعندما لا تكفي الرياضة أجريا جراحة تجميل. لكن لا تنسيا، أن هذه القواعد كانت قد أرسيت منذ عهد بعيد ويجب احترامها. من وضع هذه القواعد؟ هذا لا يهمّ. لا تشككوا فيها، لأنها تنطبق في جميع الأوقات، حتى لو كنتم لا توافقون عليها».

جلست. كان هناك مزيج من التصفيق الحماسي واللامبالاة، وتساءلت إن كنت قد تجاوزت الحدود. وكانت ماري تنظر إليّ بمزيج من الإعجاب والدهشة.

قرعت المرأة على المسرح الصنج النحاسي.

طلبت من ماري أن تمكث في مكانها، بينما خرجت لأدخّن سيجارة.

«سيؤدّون الآن رقصة باسم الحبّ، باسم السيدة».

«تستطيع أن تدخّن هنا، أليس كذلك؟».

«نعم، لكني أريد أن أكون وحدي».

لعلنا كنا في مطلع الربيع، لكن الطقس كان مايزال شديد البرودة، ومع ذلك كنت في حاجة لأتنشق هواء نقياً. لماذا حكيت تلك القصة؟

لم يكن زواجي بإستر بالطريقة التي وصفتها: مسارا سكة حديدية، يسيران دائماً جنباً إلى جنب، نشكّل دائماً خطين مستقيمين صحيحين، فقد شهدنا تقلبات كثيرة في حياتنا، وكان أحدنا يهدد الآخر بين الحين والآخر بالمغادرة إلى الأبد، ومع ذلك استمرينا معاً.

حتى سنتين.

أو حتى اللحظة التي بدأت تريد أن تعرف فيها السبب الذي جعلها حزينة.

لا ينبغي لأحد أن يسأل نفسه مطلقاً: لماذا أنا حزين؟

يحمل السؤال في طياته الفيروس الذي سيحطّم كلّ شيء. فإذا سألنا هذا السؤال فإن هذا يعني أننا نريد أن نعرف ما الذي يجعلنا سعداء. وإذا كان ما يجعلنا سعداء يختلف عما نملكه الآن، فعندها إما يجب أن نتغيّر نهائياً أو أن نبقى كما نحن، ونشعر بمزيد من التعاسة.

لقد وجدت نفسي الآن في هذه الحالة تماماً: فقد كانت لديّ صديقة حيوية مثيرة، وكان عملي ناجحاً، وتتوافر لديّ جميع الفرص التي كانت تجعل الأمور، في الوقت الملائم، تسير من تلقاء ذاتها. ويجب أن أستسلم للوضع. ينبغي أن أقبل ما تمنحني إياه الحياة، وأن لا أحذو حذو إستر، لا أنظر إلى شخص آخر، بل أتذكّر كلمات ماري وأقيم معها حياة جديدة.

لا، لا أستطيع أن أفكّر بهذه الطريقة. وإذا تصرفت بالطريقة التي يتوقّع فيها الناس أن أتصرّف سأصبح عبداً لهم. إن الاستسلام يتطلب قدراً كبيراً من القدرة على التحكم بالذات، لأن ميلنا الطبيعي هو أننا نريد أن ندخل المتعة، حتى لو كان الشخص الذي سيكون مسروراً هو نحن. وإذا فعلت ذلك فلم أكن لأخسر إستر فقط، بل لخسرت كذلك ماري، وعملي، ومستقبلي، وأيّ احترام أكنّه لنفسي، ولِما قلته وكتبته.

عندما دخلت ثانية وجدت أن الناس قد بدؤوا يستعدون للمغادرة. جاء ميخائيل بعد أن غيّر ثيابه.

«اسمع، ماذا حدث في مطعم البيتزا...».

قلت: «أوه، لا تشغل بالك بذلك، لنذهب ونتمشى على ضفاف نهر السين».

فهمت ماري وقالت إنها يجب أن تنام في وقت مبكر. طلبت منها أن توصلنا بسيارة الأجرة التي استقلتها حتى الجسر قبالة برج إيفل، كي أتمكن من العودة إلى البيت مشياً على القدمين. فكّرت بأن أسأل ميخائيل عن مكان إقامته، لكني أحسست أنه قد يفسر السؤال بأني أحاول أن أتأكد بعينيّ أن إستر لا تعيش معه حقاً.

وفي الطريق لم تتوقف ماري عن سؤاله عن الهدف من الاجتماع، وكان يردّ دائماً الجواب ذاته: إنها طريقة للشفاء من الحبّ. وقال إنه أحبّ قصتي عن مساريّ السكة الحديدية.

«بهذه الطريقة ضاع الحبّ»، قال، «عندما بدأنا نضع القواعد حول متى يجب أن يظهر الحبّ ومتى يجب ألا يظهر».

«متى كان ذلك؟» سألت ماري.

«لا أعرف، لكني أعرف الآن أنه يمكن استرداد تلك الطاقة. أعرف لأني عندما أرقص، أو عندما أسمع الصوت يحدّثني الحبّ».

لم تعرف ماري ما كان يعني بقوله «سماع الصوت»، لكننا كنا قد وصلنا آنذاك إلى الجسر. ونزلنا أنا وميخائيل ورحنا نمشي في ليل باريس البارد.

«أعرف أنك خفت مما رأيت. إن الخطر الكبير هو عندما تنتاب المرء نوبة فيرجع لسانه إلى الخلف ويختنق. وكان صاحب المطعم يعرف ماذا يفعل، وهذا يعني أن هذا الأمر حدث في مطعمه من قبل. فهو ليس أمراً غير معتاد. لكن تشخيصك كان خاطئاً. أنا لست مصاباً بالصرع. إن ذلك يحدث عندما أتصل بالطاقة».

بالطبع لقد انتابته نوبة صرع، لكن لم يكن ثمة مجال لمخالفة ما يقول. حاولت أن أتصرف على نحو طبيعي. كنت أحاول أن أتحكم بتلك الحالة. وقد فوجئت بالسهولة التي وافق فيها على أن نلتقي ثانية.

«أنا أحتاج إليك. أريدك أن تكتب شيئاً عن أهمية الحبّ»، قال ميخائيل.

«الجميع يعرفون أنّ الحبّ مهم. معظم الكتب تتحدث عن ذلك».

«حسناً، دعني أوضح طلبي لك بطريقة أخرى. أريدك أن تكتب شيئاً عن عصر النهضة الجديد».

«وماهو عصر النهضة الجديد؟».

«إنه يشبه عصر النهضة الإيطالي في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، عندما رفض عباقرة مثل إراسموس، وليوناردو، ومايكل أنجلو قيود الحاضر والعادات الظالمة والمستبدة في زمنهم وتحولوا إلى الماضي. لقد بدأنا نرى العودة إلى اللغة السحرية، إلى الخيمياء وإلى فكرة الإلهة الأم، إلى أناس يستعيدون الحرية بعمل ما يؤمنون به، وليس كما تطلبه الكنيسة أو الحكومة منهم. وكما كان الحال في فلورنسا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، فإننا نكتشف أن الماضي يضم أجوبة عن المستقبل.

«قصتك عن مساريّ السكة الحديدية مثلاً: ما هي المجالات الأخرى في حياتنا التي نطيع فيها قواعد لا نفهمها؟ إن الناس يقرؤون ما تكتب ـ ألا يمكنك أن تعرض هذا الموضوع في مكان ما؟».

«ولكني لا أجري اتفاقات حول ما أكتب»، أجبت، وتذكّرت مرة أخرى أن عليّ المحافظة على احترام النفس. «لو كان موضوعاً مثيراً للاهتمام، لو كان في روحي، لو دعاني المركب فإن الكلمة ستحملني إلى تلك الجزيرة بعينها، يمكنني أن أكتب عنها. لكن ما علاقة هذا ببحثي عن إستر».

«لا أحاول أن أشترط عليك، فقط أقترح شيئاً يبدو لي مهماً».

«هل حدثتك عن بنك ردّ الجميل؟».

«نعم. لكن ليس لهذه المسألة علاقة ببنك ردّ الجميل. إنها تتعلق بمهمّة لا أستطيع أن أنجزها وحدي».

«وهل مهمتك هي ما تفعله في المطعم الأرمني؟».

«إنه مجرد جزء صغير جداً منها. إننا نفعل الشيء ذاته في أيام الجمعة مع مجموعة من الشحاذين. وفي أيام الأربعاء نعمل مع مجموعة من البدو الجدد».

البدو الجدد؟ كان من الأفضل ألا أقاطعه؛ فلم يكن في ميخائيل الذي كان يكلمني الآن ذلك الغرور الذي كان قد أبداه في مطعم البيتزا، ولا تلك الجاذبية التي أظهرها على المسرح، أو تلك الحساسية التي أظهرها في ذلك المساء عند توقيع الكتاب. بل كان شخصاً طبيعياً، زميلاً يلتقي أحدنا بالآخر على الدوام حتى ساعة متأخرة من الليل نناقش مشاكل العالم.

«لا يمكنني أن أكتب إلا عن الأشياء التي تلامس روحي حقاً»، قلت بإلحاح.

«هل تريد أن تأتي معنا لنتحدث إلى الشحاذين؟».

تذكّرت ملاحظة إستر حول الحزن المزيّف في عيون أولئك الذين يجب أن يكونوا أكثر الناس بؤساً في العالم.

«دعني أفكّر في الموضوع أولاً».

كنا نقترب من اللوفر، لكنه توقّف ليتكئ على الحاجز، ووقفنا نتأمّل المراكب التي تمخر النهر، التي أبهرتنا بأضوائها المتلألئة.

«انظر إليها»، قلت، لأني كنت بحاجة لأن أتحدث عن شيء، وكنت أخشى أن يشعر بالملل ويعود إلى البيت. «إنهم لا يرون إلا ما تريه لهم الأضواء. وعندما يعودون إلى بيوتهم يقولون إنهم يعرفون باريس. وفي الغد يذهبون ويشاهدون الموناليزا ويدّعون أنهم زاروا متحف اللوفر. لكنهم لا يعرفون باريس، ولم يزوروا اللوفر

على الإطلاق. وكلّ ما فعلوه هو أنهم ذهبوا في نزهة بالقارب، وشاهدوا لوحة، لوحة واحدة، بدلاً من مشاهدة مدينة كاملة، ومحاولة التعرف على ما يحدث فيها، ويرتادون حاناتها، والذهاب إلى الشوارع التي لا تظهر في الأدلة السياحية، والضياع في طرقاتها ليجدوا أنفسهم ثانية. إنه الفرق بين مشاهدة فيلم إباحي وممارسة الجنس».

«أنا معجب بقدرتك على ضبط النفس. فها أنت تتحدّث عن المراكب في نهر السين، فيما تنتظر اللحظة المناسبة لتسأل السؤال الذي جعلك تأتي لرؤيتي. كن حراً وتحدث بصراحة عن أيّ شيء تريد أن تتحدث عنه».

لم يكن صوته يشي بأي نبرة عدوانية، لذلك قررت أن أدخل في الموضوع مباشرة.

«أين إستر؟».

«جسدياً، هي على مسافة بعيدة، في آسيا الوسطى. وروحياً هي قريبة جداً، ترافقني ليلاً نهاراً بابتسامتها وذاكرة كلماتها المتقدة. فهي التي جلبتني إلى هنا، شاب فقير في الحادية والعشرين من عمره، بلا مستقبل، شاب منحرف في نظر الناس في قريتي، أو مجنون، أو ساحر متحالف مع الشيطان، أما في نظر الناس في المدينة فلست إلا فلاحاً يبحث عن عمل.

«سأروي لك قصتي في يوم آخر، لكني أقول باختصار بأنني كنت أجيد اللغة الإنكليزية، وبدأت العمل مترجماً لها. كنا نعيش بالقرب من حدود بلد كان الأمريكيون يبنون فيه الكثير من القواعد العسكرية، ويهيئون للحرب في أفغانستان، وكان يستحيل عليها أن تحصل على تأشيرة دخول. فساعدتها في عبور الجبال بشكل غير قانوني. وخلال الأسبوع الذي أمضيناه معاً جعلتني أدرك أنني لم أكن وحيداً، وأنها فهمتني.

«سألتها ماذا تفعل بعيداً عن وطنها. وبعد بضعة ردود مراوغة قالت لي أخيراً ما يجب أن تكون قد قالته لك: بأنها كانت تبحث عن المكان الذي يتوارى فيه الحبّ. حدثتها عن مهمتي بنشر طاقة الحبّ بحرية في العالم ثانية. من الناحية الجوهرية كنا نبحث كلانا عن الشيء ذاته.

«ذهبت إستر إلى السفارة الفرنسية وحصلت لي على تأشيرة دخول كمترجم باللغة الكازاخية، مع أن الجميع في بلدي يتكلمون اللغة الروسية فقط. وهكذا جئت لأعيش هنا. وكنا نلتقي دائماً عندما كانت تعود من مهماتها في الخارج؛ وزرنا كازاخستان معاً مرتين. كانت مفتونة بثقافة التينغري، وبالبدوي الذي التقت به وخيّلَ إليها أنه يحمل سرّ كلّ شيء».

كنت أحبّ أن أعرف ما هي التينغري، لكن كان يمكنني أن أسأله عنها في ما بعد. واصل ميخائيل كلامه، ورأيت في عينيه ذات الاشتياق لإستر الذي كنت أشعر به أنا نفسي.

«بدأنا نعمل هنا في باريس. وكانت فكرتها أن نجمع الناس معاً مرة في الأسبوع. قالت إن أهم شيء في العلاقة الإنسانية كلها هو المحادثة، فقد توقف الناس عن التحادث، ولم يعودوا يجلسون ليتحدثوا وينصتوا. فهم يرتادون المسرح والسينما، ويشاهدون التلفاز، ويستمعون إلى المذياع، ويقرؤون الكتب، لكنهم لا يكادون يتكلّمون. إذا أردنا أن نغيّر العالم، فيجب أن نعود إلى زمن كان المحاربون فيه يجتمعون حول النار ويحكون القصص».

أتذكّر قول إستر إن كلّ الأشياء المهمة في حياتنا حقاً كانت قد نشأت عن أحاديث طويلة عندما كنا نجلس إلى طاولة في إحدى الحانات أو نسير في شارع أو في حديقة عامة.

«كنت أرى أن تعقد هذه اللقاءات أيام الخميس لأنها تجري هكذا في التقليد الذي نشأت فيه. لكن فكرتها كانت تتمثل في أن نقوم

بزيارات عرضية إلى شوارع باريس في الليل. فقد قالت إن الشحاذين هم الوحيدون الذين لا يتظاهرون بأنهم سعداء، بل على العكس يدّعون بأنهم تعساء.

«وأعطتني كتبك لأقرأها. وأحسست أنك أنت أيضاً ـ ربما لا شعورياً ـ كنت تتصور ذات العالم الذي كنا نتخيّله. عندها أدركت أني لم أكن وحيداً، حتى لو كنت الوحيد الذي يسمع الصوت. وشيئاً فشيئاً، بعد أن بدأ عدد أكبر من الناس يحضرون هذه الاجتماعات، بدأت أعتقد أن باستطاعتي حقاً أن أنجز مهمتي وأساعد في استعادة طاقة الحبّ، حتى لو كان ذلك يعني العودة إلى الماضي، العودة إلى اللحظة التي غادرت فيها تلك الطاقة أو اختفت».

«لماذا تركتني إستر؟».

هل كان ذلك كلّ ما كنت مهتماً به؟ أزعج السؤال ميخائيل قليلاً.

«بدافع الحبّ. لقد استخدمت اليوم مثال مساريّ السكة الحديدية. حسناً، إنها ليست مجرد مسار آخر يجري بجانبك. لا أظن أنها من ذلك النوع الذي يتقيد بالقواعد، ألا تظن ذلك. أنا مشتاق إليها أيضاً».

«إذن....».

«إذن لو أردت أن تجدها يمكنني أن أخبرك عن مكانها. لقد اعتراني الدافع ذاته، لكن الصوت يقول لي إن هذه ليست اللحظة المناسبة، ويجب ألا يقاطع أحد لقاءها بطاقة الحبّ. فأنا أحترم الصوت، فالصوت يخمينا، ويحميني، ويحميك، ويحمي إستر».

«ومتى تأتي اللحظة المناسبة؟».

«ربما غداً، أو بعد سنة، أو لعلها لا تأتي أبداً، وإذا كان الحال كذلك علينا أن نحترم هذا القرار. فالصوت هو الطاقة، لذلك تجمع الناس معاً عندما يكونون مهيئين لتلك اللحظة حقاً. ومع ذلك سنحاول ونرغم الوضع حتى لو كان يعني ذلك سماع الكلمات التي لا

نريد أن نسمعها: ابتعد. فأيّ شخص لا يطيع الصوت ويصل في وقت أبكر أو في وقت متأخر عن الوقت الذي يجب أن يصل فيه لن يحصل على الشيء الذي يريده».

«إني أفضّل أن أسمعها تطلب مني أن أبتعد على أن يلتصق بي *الظاهر* ليلاً نهاراً. لو قالت هي ذلك فستتوقف على أن تستحوذ على تفكيري على الأقل وتصبح عندها امرأة ذات حياة مختلفة وأفكار مختلفة».

«لن تكون هي *الظاهر* بعد الآن، لكن ذلك سيكون بمثابة خسارة كبيرة. إذا تمكن الرجل والمرأة من إظهار طاقتيهما عندها سيتمكنان من مساعدة جميع رجال ونساء العالم».

«إنك تثير فزعي. فأنا أحبّها، وأنت تعرف ذلك، وأنت تقول إنها ماتزال تحبّني. لا أعرف ماذا تعني بأن أكون مستعداً؛ فأنا لا أستطيع أن أعيش وفق توقّعات الآخرين حتى لو كانت إستر».

«كما فهمت من الأحاديث التي دارت بيني وبينها فقد تهتَ في لحظة ما. وكان العالم قد بدأ يدور حولك».

«هذا غير صحيح. لقد كانت حرّة في أن تشق طريقها. قرّرت أن تصبح مراسلة حربية، مع أني لم أكن أرغب في ذلك. لقد أرادت أن تكتشف السبب الذي يجعل الناس حزينين، مع أني قلت لها إن هذا من ضرب المستحيل. هل تريدني أن أعود وأصبح مسار سكة حديدية يسير بجانب مسار السكة الآخر، ونحافظ دائماً على تلك المسافة الغبية، فقط لأن الرومان كانوا قد قرّروا أنه يجب أن يكون الأمر كذلك؟».

«بالعكس».

عاد ميخائيل يسير، وتبعته.

«هل تؤمن بأني أسمع صوتاً؟».

«لكي أصدقك القول لا أعرف. لكن بما أننا الآن هنا دعني أريك شيئاً».

«يظن الجميع أنه تنتابني نوبة صرع، وقد تركتهم يظنون ذلك لأن هذا الأمر أسهل. لكن الصوت يحدثني منذ أن كنت طفلاً، عندما رأيت السيدة لأول مرة».

«أيّ سيدة؟».

«سأحدثك عنها في ما بعد».

«عندما أسألك شيئاً تقول: سأحدثك في ما بعد».

«إن الصوت يقول لي شيئاً الآن. أعرف أنك قلق وخائف. في مطعم البيتزا، عندما أحسست بهبوب تلك الريح الدافئة ورأيت الأضواء، عرفت أنها كانت أعراض اتصالي بالقوّة، عرفت أنها هناك لكي تساعدنا نحن الاثنين. إذا ظننت أن جميع الأشياء التي أحكيها لك مجرد هذيان شاب مصاب بالصرع يريد أن يتلاعب بمشاعر كاتب مشهور، فإني سأحضر خريطة غداً وأريك عليها المكان الذي تعيش فيه إستر، ويمكنك أن تذهب وتراها. لكن الصوت يقول لنا شيئاً».

«هل ستقول ما هو بالضبط أم أنك ستخبرني به لاحقاً؟».

«سأخبرك بعد قليل. فلم أفهم الرسالة جيداً بعد».

«لكنك وعدت بأن تعطيني العنوان والخريطة».

«أعدك. باسم الطاقة الإلهية للحبّ، أعدك. الآن ماذا كنت تريد أن تريني؟».

أشرت إلى تمثال ذهبي لشابة تمتطي حصاناً. «هذه. كانت تسمع أصواتاً. وما دام الناس يحترمون ما كانت تقوله فقد كان كلّ شيء على ما يرام. وعندما بدؤوا يشكون فيها غيّرت رياح النصر اتجاهها».

جان دارك، وصيفة أورليانز، بطلة حرب المائة عام، التي أصبحت وهي في السابعة عشرة من عمرها قائدة للقوات الفرنسية لأنها سمعت أصواتاً، وأخبرتها الأصوات عن أفضل استراتيجية لإلحاق الهزيمة بالإنكليز. وبعد سنتين أدينت وأحرقت، واتهمت بالسحر. لقد استخدمت جزءاً من الاستجواب، المؤرخ 24 شباط 1431 في أحد كتبي. لقد استجوبها المحامي جان بيوبير. وعندما سألها متى سمعت الصوت أجابت:

«سمعته ثلاث مرات، البارحة واليوم. في الصباح في فيسبير، ومرة أخرى عندما قرعت أف ماريا أجراسها في المساء...».

وعندما سئلت إن كان الصوت في الغرفة، أجابت أنها لا تعرف، لكن الصوت أيقظها. لم يكن ذلك في الغرفة بل في القلعة.

سألت الصوت ما ينبغي لها أن تفعله، فطلب منها الصوت أن تنهض من فراشها وأن تضم راحتيّ يديها معاً.

ثم قالت للأسقف الذي كان يستجوبها:

«تقول إنك القاضي الذي يحاكمني. احذر مما تفعله لأن اللّه أرسلني، وتضع نفسك في خطر كبير. وقد أخبرتني الأصوات التي أسمعها بأشياء لكي أنقلها إلى الملك، لا إليك. فالصوت جاءني من عند الله. وأنا أخشى أن أقول لك أشياء تغضبه على أن أجيبك».

«هل تلمح إلى أن...».

«إلى أنك تجسيد لجان دارك؟ لا، لا أظن ذلك. فقد ماتت ولما تبلغ التاسعة عشرة من عمرها، وأنت في الخامسة والعشرين. وقد قادت جيش الفرنسيين، وحسب ما قلته لي فإنك لا تستطيع أن تتسلم زمام قيادة حياتك أنت».

جلسنا على السور على ضفاف السين.

قلت: «إني أؤمن بالإشارات، أؤمن بالقدر. وأؤمن أنه في كلّ

يوم تقدم للناس الفرصة بأن يتخذوا أفضل قرار ممكن عن كلّ شيء يفعلونه. وأعتقد أني فشلت، وفي لحظة ما فقدت اتصالي بالمرأة التي كنت أحبها. والآن فإن كلّ ما أحتاج إليه هو أن أوقف تلك الدورة. ولهذا السبب فإني أريد الخريطة كي أتمكن من الذهاب إليها».

نظر إليّ وبدا مرة أخرى ذلك الشخص الذي كان على خشبة المسرح، ودخل في حالة من النشوة. خشيت أن تنتابه نوبة صرع أخرى في منتصف الليل، هنا، في مكان يكاد يكون مهجوراً.

«لقد أعطتني الرؤية قوّة. والقوّة تكاد تكون مرئية: يمكنني أن أتدبرها، لكني لا أستطيع التحكّم بها».

«إن الوقت متأخر قليلاً على مثل هذا الضرب من الأحاديث. فأنا متعب، وأنت كذلك. هل ستعطيني الخريطة والعنوان؟».

«الصوت...» نعم، سأعطيك الخريطة غداً بعد الظهر. ما هو عنوانك؟».

أعطيته عنواني وفوجئت أنه لم يكن يعرف أين كنا نعيش أنا وإستر.

«هل تظن أني نمت مع زوجتك؟».

«لن أسألك هذا السؤال. هذا الأمر لا يعنيني».

«لكنك سألتني هذا السؤال عندما كنا في مطعم البيتزا».

نسيت. بالطبع كان ذلك يهمني لكني لم أعد أهتم بجوابه.

تغيّرت عينا ميخائيل. تحسست جيبي لعلي أجد شيئاً أضعه في فمه إذا انتابته النوبة، لكنه بدا هادئاً ومتحكماً بنفسه.

«أنا أسمع الصوت الآن. سأحضر لك الخريطة غداً، الاتجاهات بالتفصيل، وأوقات الرحلات الجوية. أظن أنها تنتظرك. أظن أن العالم سيكون أكثر سعادة إذا كان هناك شخصان، حتى مجرد

شخصين، سعيدين. مع أن الصوت يقول لي إننا لن نرى بعضنا غداً».

«سأتناول الغداء مع ممثل جاء من أمريكا، ولا أظن أني أستطيع أن ألغي الموعد، لكني سأكون موجوداً في البيت بعد الظهر».

«ليس هذا ما يقوله لي الصوت».

«هل الصوت يمنعك من مساعدتي في العثور على إستر؟».

«لا، لا أظن ذلك. إنه الصوت الذي شجعني على الذهاب إلى حفل توقيع الكتاب. ومنذ ذلك الحين تقريباً كيف ستصبح عليها الأمور لأني قرأت: وقت للفتق ووقت للرتق».

«حسناً، إذن». وخشيت أن يغيّر رأيه، «دعنا نحافظ على ما اتفقنا عليه. سأكون في البيت بدءاً من الساعة الثانية».

«لكن الصوت يقول إن اللحظة ليست مناسبة».

«لقد وعدت».

«حسناً».

مدّ يده وقال إنه سيأتي إلى شقتي بعد ظهر غد. وكانت كلماته الأخيرة لي في تلك الليلة:

«يقول لي الصوت إنه لن يسمح بأن تحدث هذه الأشياء إلا في الوقت الملائم».

فيما كنت أسير عائداً إلى البيت، كان الصوت الوحيد الذي كان بوسعي أن أسمعه هو صوت إستر وهي تتحدث عن الحبّ. وعندما تذكّرت ذلك الحديث أدركت أنها كانت تتحدّث عن زواجنا.

«عندما كنت في الخامسة عشرة من عمري كنت أتوق لمعرفة أشياء عن الجنس. لكن ذلك كان يعتبر خطيئة، أمراً محرماً. ولم أكن أفهم لماذا كان يعتبر خطيئة، هل يمكنك أن تفهم ذلك؟ هل تستطيع أن تقول لي لماذا تعتبر جميع الأديان المنتشرة في العالم، حتى أكثر الأديان والثقافات بدائية، أن الجنس شيء يتوجب تحريمه؟».

«كيف دخلنا في هذا الموضوع؟ حسناً، لماذا يعتبر الجنس شيئاً محرماً؟»

«بسبب الطعام».

«الطعام؟».

«منذ آلاف السنين، كانت القبائل دائمة الترحال، وكان بمقدور الرجال أن يمارسوا الجنس مع أكبر عدد من النساء، وبالطبع كانت النساء ينجبن الأطفال. لكن كلما كانت القبيلة أكبر ازدادت فرصة اندثارها. فقد كانت القبائل تتصارع فيما بينها من أجل الطعام، وكانت تقتل الأطفال أولاً، ثم النساء، لأنهم كانوا الأضعف. فقد كان البقاء للأقوى، لكنهم كانوا جميعهم من الرجال. وبدون النساء لا يستطيع الرجال الحفاظ على بقاء النوع.

«ثم رأى أحدهم ما يحدث في قبيلة مجاورة فقرّر أن يمنع حدوث ذلك في قبيلته، فاختلق قصة حرمّت فيها الآلهة الرجال من

ممارسة الجنس عشوائياً مع أي امرأة في القبيلة. وقال إنه لا يمكنهم ممارسة الجنس إلا مع امرأة واحدة فقط، أو على الأكثر امرأتين. وكان بعض الرجال عاجزين جنسياً، وكانت بعض النساء عاقرات، ولم يكن لدى بعض أفراد القبيلة، لأسباب طبيعية، أطفال على الإطلاق، إلا أنه لم يكن يسمح لأحد بأن يغيّر شريكه.

«وصدّقوا جميعهم القصة، لأن الرجل الذي رواها كان يتحدث باسم الآلهة. وكان يجب أن يكون مختلفاً بطريقة ما: فربما كانت لديه عاهة، مرض يسبّب له تشنّجات، أو يتمتع بموهبة خاصة، شيء يميزه عن الآخرين، لأن الزعماء الأوائل برزوا بهذه الطريقة. وبعد بضع سنوات ازدادت شوكة القبيلة قوة، وأصبح لديها ما يكفي من الرجال لتوفير الطعام، وأصبح لديها ما يكفيها من النساء القادرات على إنجاب عدد من الأطفال يحلون محل الرجال الذين يقومون بأعمال الصيد ومحل النساء اللاتي ينجبن. هل تعرف ما أكثر الأشياء التي تمنح المرأة المتعة في الزواج؟».

«الجنس».

«لا، إعداد الطعام. مشاهدة زوجها وهو يتناول الطعام. تلك هي أعظم لحظة من لحظات سعادة المرأة، لأنها تمضي نهارها كلّه وهي تفكّر بالطعام. ولا بد أن السبب الذي يكمن وراء تلك القصة القابعة في الماضي البعيد هو الجوع، التهديد بالانقراض، ومعرفة السبيل إلى البقاء».

«هل أنت نادم لأنه ليس لديك أطفال؟».

«إنه شيء لم يحدث، أليس كذلك؟ كيف أندم على شيء لم يحدث؟».

«هل تظن أن ذلك كان سيغيّر زواجنا؟».

«كيف يمكنني أن أعرف؟ أنظر إلى أصدقائي، الذكور منهم والإناث. هل هم أكثر سعادة لأن لديهم أطفالاً؟ بعضهم سعداء،

وبعضهم تعساء. وإذا كانوا سعيدين بأطفالهم فإن ذلك لا يجعل علاقتهم أفضل أو أسوأ. فهم مايزالون يظنون أن لديهم الحقّ في أن يتحكم أحدهم بالآخر. إنهم مايزالون يظنون أن الوعد بالعيش حياة سعيدة دائماً يجب أن يبقى، حتى لو كان ذلك على حساب عدم توافر السعادة اليومية».

«الحرب لا تصلح لك يا إستر. إنها تجعلك على تماس بحقيقة تختلف تماماً عن الحقيقة التي نعيشها هنا. أعرف أني سأموت ذات يوم، لكن ذلك يجعلني أعيش كلّ يوم كما لو كان معجزة. إنه لا يجعلني أفكر بالحب والسعادة والجنس والطعام والزواج إلى حد الهوس».

«إن الحرب لا تترك لي الوقت الكافي لكي أفكّر. أنا مجرد نقطة في آخر السطر. عندما يخطر لي، في أية لحظة، بأنه من الممكن أن تصيبني رصاصة طائشة، فإني أقول لنفسي: حسناً، على الأقل ليس عليّ أن أقلق بما سيحدث لطفلي. لكني أقول لنفسي أيضاً: يا للعار، سأموت ولن يبقى شيء مني. أنا لست قادرة إلا على فقدان حياة، لا على أن أجلب حياة إلى هذا العالم».

«هل تظنين أن ثمة عيباً في علاقتنا؟ أسأل هذا لأني أشعر أحياناً بأنك تريدين أن تقولي لي شيئاً، لكنك تمسكين نفسك عن قوله».

«نعم. ثمة خلل في علاقتنا. نشعر بأنه يجب علينا أن نكون سعداء معاً. أنت تظن أنك مدين لي بكلّ ما وصلت إليه، وأنا أشعر بأني محظوظة بوجود رجل مثلك إلى جانبي».

«لديّ زوجة أحبها، لكني لا أتذكّر ذلك دائماً وأجد نفسي أسأل: ما العيب فيّ؟».

«من الجيد أنك تستطيع إدراك ذلك، لكني لا أظن أنه يوجد عيب فيك، أو فيّ، لأني أسأل نفسي السؤال ذاته. إن العيب يكمن في

الطريقة التي نُظهر فيها حبّنا الآن. فإذا اعترفنا بأن هذا الأمر هو الذي يخلق المشاكل، وبإمكاننا أن نعيش مع هذه المشاكل ونكون سعيدين ستكون معركة مستمرة، لكنها ستبقينا على الأقل نشيطين ومبتهجين، وتكون أمامنا عوالم عديدة يجب أن نفتحها؛ إنّ المشكلة هي أننا نسير باتجاه نقطة تصبح فيها الأشياء مريحة للغاية، حيث يتوقّف الحبّ عن خلق مشاكل ومواجهات، وتصبح عوضاً عن ذلك مجرّد حلّ».

«وما العيب في ذلك؟».

«كلّ شيء. لم يعد بإمكاني أن أشعر بطاقة الحبّ التي يطلق عليها الناس العاطفة التي تتدفّق في جسدي وفي روحي».

«لكن بقي شيء».

«بقي؟ هل يجب على كلّ زواج أن ينتهي بهذه الطريقة، أن تفسح العاطفة المجال لشيء يدعوه الناس «علاقة ناضجة»؟ أنا بحاجة إليك. أشتاق إليك. أغار أحياناً. أحبّ أن أفكر بما سأقدمه لك على العشاء، مع أنك أحياناً لا تلاحظ ماذا تأكل. ومع ذلك فإنك لا تشعر بالبهجة».

«لا، لا توجد. عندما تكونين مسافرة أتمنّى أن تكوني قريبة مني. أتخيّل الأحاديث التي ستدور بيننا عندما تعودين، أو حين أعود أنا من إحدى رحلاتي. إني أهاتفك لأتأكد من أن كلّ شيء على ما يرام. أحتاج إلى سماع صوتك كلّ يوم. ماأزال متقد العاطفة تجاهك، أنا واثق من ذلك».

«وأنا أشعر بذلك أيضاً، لكن ماذا يحدث عندما نكون معاً؟ نتجادل، نتشاجر على لا شيء، يريد أحدنا أن يغيّر الآخر؛ يريد أن يفرض عليه رأيه أو رأيها في حقيقة الأمر. إنك تطلب مني أشياء لا معنى لها على الإطلاق، وأنا أفعل الشيء ذاته. أحياناً نقول لأنفسنا في صمت قلوبنا: كم من الجيد أن نكون أحراراً، وأن لا نكون مرتبطين بالتزامات».

«صحيح. وفي لحظات كتلك أشعر بالضياع، لأني أعرف أني مع المرأة التي أريد أن أكون معها».

«وأنا مع الرجل الذي كنت أريد دائماً أن يكون بجانبي».

«هل تظنين أن ذلك يمكن أن يتغيّر؟».

«فيما يتقدم بي العمر، وينظر إليّ حفنة من الرجال أقول لنفسي: دعي الأمور كما هي. أنا واثقة من أني أستطيع خداع نفسي بالسعادة بقية حياتي. ومع ذلك، عندما أذهب لأغطي إحدى الحروب أرى أنه يوجد حبّ أعظم، أعظم بكثير من الكراهية التي تجعل الرجال يقتلون بعضهم بعضاً. وعندها، وعندها فقط، أظن أن باستطاعتي تغيير الأشياء».

«لكنك لا تستطيعين أن تغطّي الحروب باستمرار».

«ولا يمكنني كذلك أن أعيش باستمرار في هذا النوع من السلام الذي أجده معك. إنه يدمّر الشيء الوحيد الهام الذي أملكه: علاقتي معك، حتى لو بقيت قوة حبّي كما هي».

«لكن الملايين من البشر في أنحاء المعمورة يفكرون بهذا، وهم يقاومون بشدة ويتركون لحظات الكآبة تمرّ. إنهم يصمدون في وجه أزمة، أزمتين، ثلاث أزمات، وأخيراً يجدون السكينة».

«أنت تعرف أن الأمور ليست هكذا. وإلا لما كتبت الكتب التي ألفتها».

رتّبت للقاء الممثل والمخرج الأمريكي كي نتناول طعام الغداء في مطعم بيتزا روبيرتو. كنت أشعر بالحاجة إلى العودة إلى هذا المكان بأسرع ما يمكنني لأبددّ أيّ انطباع سيء قد أكون كونته. وقبل أن أغادر المنزل قلت للخادمة والمشرف على البناية بأني إذا لم أعد في الوقت المحدد، وإذا جاء شابّ ذو قسمات منغولية يريد أن يسلمني طرداً بريدياً، أن يصحباه إلى شقّتي، وأن يطلبا منه انتظاري في غرفة الجلوس، وأن يقدما له كل ما يريد. وإذا، ولسبب ما، لم يكن بوسع الشابّ أن ينتظر فعليهما أن يطلبا منه أن يترك الطرد مع أحدهما.

والأهم من كلّ ذلك أن لا يدعاه يغادر دون أن يسلمهما الطرد.

أخذت سيارة أجرة، وطلبت من السائق أن يوصلني إلى ناصية جادة سان جيرمان وشارع ستس بيريز. كان الرذاذ يهمي، لكن المكان لم يكن يبعد سوى بضعة ياردات عن المطعم، وعن لافتته الجميلة، وابتسامة روبيرتو الواسعة الذي كان يقف أحياناً في الخارج، يدخّن سيجارة. كانت هناك امرأة تدفع عربة طفل وتسير باتجاهي على الرصيف الضيّق، ولعدم وجود مكان يتسع لكلينا نزلت عن الرصيف لأدعها تمرّ.

في تلك اللحظة، وبحركة بطيئة، ترنّح العالم وراح يتمايل أمامي بقوة: فقد أصبحت الأرض السماء، وأصبحت السماء الأرض؛ وأتيح

لي قليل من الوقت تمكنت خلاله من تأمل بضع تفاصيل معمارية فوق بناية عند الناصية ـ كنت قد مررت من أمامها كثيراً من قبل، لكني لم أنظر إلى الأعلى على الإطلاق. أتذكّر ذلك الإحساس بالمفاجأة، الإحساس بريح تهّب في أذني، وصوت كلب ينبح من بعيد، ثمّ تحوّل كلّ شيء إلى ظلام.

قُذفت بقوة إلى حفرة مظلمة كان في طرفها الآخر نور. وقبل أن أصل إليها كانت هناك أيد خفية تسحبني بفظاظة، واستيقظت على أصوات وصيحات من حولي: قد يكون كلّ ذلك استمر لثوانٍ معدودات فقط. وأحسست بطعم الدم في فمي، ورائحة الإسفلت الرطب، ثم أدركت أن حادثاً قد وقع لي. كنت واعياً وفاقد الوعي في آن واحد. حاولت عبثاً أن أتحرّك. ربما كنت قد جذبت شخصاً آخر وجعلته يتمدّد على الأرض بجانبي، إذ كنت أشمّ رائحة عطر ذلك الشخص، خيّل إليّ أنها لا بد أن تكون المرأة التي كانت تدفع عربة طفلها على الرصيف. أوه، يا إلهي!

تقدم أحدهم وحاول مساعدتي؛ صرخت أن لا يمسّني أحد، فأيّ حركة قد تشكّل خطراً عليّ. فخلال حديث عادي ذات ليلة علمت أنه إذا أصيبت رقبتي بأذى فإن أيّ حركة مفاجئة قد تجعلني أصاب بالشلل الدائم.

بذلت جهدي كي أظل في كامل وعيي. كنت انتظر ألماً لم يأت. حاولت أن أتحرّك، ثم رحت أفكّر على نحو أفضل. انتابني شعور يشبه التشنج، كالخدر. وطلبت من الناس مرة أخرى أن لا يحركوني. سمعت صفارة سيارة الإسعاف من بعيد، وعرفت آنذاك أن بإمكاني أن أخلد إلى النوم، وأني لم أعد بحاجة لأن أكافح لإنقاذ حياتي. وسواء ربحتها أو خسرتها لم يعد ذلك شأني، بل أصبح الأمر بيد الأطباء والممرضات والقدر و«الشيء» والله.

سمعت صوت طفلة ـ قالت لي اسمها، لكني لم أسمعها جيداً ـ

طلبت مني أن أحافظ على هدوئي ورباطة جأشي، ووعدتني بأني لن أموت. كنت أريد أن أصدق ما قالته، رجوتها أن تبقى بجانبي، لكنها اختفت. أدركت أن أحداً يضع شيئاً بلاستيكياً حول رقبتي، وقناعاً على وجهي، وخلدت إلى النوم ثانية، وفي هذه المرة لم تكن هناك أحلام.

عندما استعدت وعيي كان كلّ ما أمكنني سماعه هو طنين هائل في أذنيّ؛ أما ما عدا ذلك فكان مجرد صمت وظلام مطلقين. وفجأة أحسست أن كلّ شيء يتحرك، كنت واثقاً من أنني كنت محمولاً في تابوتي، وأني كنت على وشك أن أدفن حياً!

حاولت أن أقرع على الجدران، لكن لم يكن بإمكاني أن أحرّك عضلة واحدة. ولما بدا شيئاً أبدياً، أحسست وكأني قُذفت إلى الأمام وأنا عاجز تماماً. ثم استجمعت ما تبقى من قوّتي، وأطلقت صيحة تردّد صداها في الفضاء المغلق وعادت إلى أذنيّ، وكادت تصيبني بالصمم؛ لكني كنت أعرف أني ما أن أصرخ حتى أصبح في أمان، لأن ضوءاً بدأ يظهر في الحال عند قدميّ: أدركوا أني لم أمت!

نور، النور المبارك ـ الذي أنقذني من أسوأ أنواع التعذيب والاختناق ـ بدأ يضيء جسدي كله شيئاً فشيئاً: وأخيراً أخذوا يرفعون غطاء التابوت. غمرني العرق البارد، شعرت بأشد أنواع الألم، لكني كنت كذلك سعيداً وشعرت بالراحة أيضاً بأنّهم أدركوا خطأهم، وبأن تلك البهجة قد تعود إلى العالم!

أخيراً وصل النور إلى عينيّ: يد ناعمة لمست يدي، وراح شخص ذو وجه ملائكي يمسح العرق من فوق حاجبي.

«لا تقلق»، قال الوجه الملائكي بشعره الذهبي وثوبه الأبيض. «أنا لست ملاكاً، إنك لم تمت، وهذا ليس تابوتاً، إنه جهاز سكانر

ضوئي، لنعرف إن كنت تعرضت لإصابات أخرى. يبدو أنه لا يوجد أي شيء خطير، لكن يجب أن تبقى هنا للمراقبة».

«لا يوجد كسر في العظام؟».

«مجرد سحجات عامة. لو أحضرت لك مرآة فإنك ستصاب بالفزع، لكن الورم سيتلاشى خلال بضعة أيام».

حاولت أن أنهض لكنها منعتني بلطف شديد. ثم شعرت بألم فظيع في رأسي، وأخذت أئن.

«لقد تعرضت لحادث ومن الطبيعي أن تتألم».

«أظن أنك تكذبين عليّ»، استطعت أن أقول. «أنا رجل ناضج، وأعيش حياة جيدة، ويمكنني أن أتلقى أخباراً سيئة دون أن أصاب بالفزع. وعاء دموي في رأسي يوشك على أن ينفجر، أليس كذلك؟».

ظهرت ممرضتان ووضعتاني على نقّالة. أدركت أنه توجد حول رقبتي ياقة تجبيرية.

«أخبرنا أحدهم بأنك طلبت من الناس ألا يحركوك»، قال الملاك. «ويجب أن تضع هذه الياقة لفترة من الزمن، لكن لكي لا تقع أمور غير متوقّعة ـ لأنه لا يمكن للمرء أن يعرف ماذا يمكن أن يحدث ـ لقد أصبت بصدمة شديدة. إنك محظوظ للغاية».

«منذ متى؟ لا أستطيع أن أبقى هنا».

لم يقل أحد شيئاً. كانت ماري تنتظرني خارج وحدة تصوير الأشعة، كانت تبتسم. فمن الواضح أن الأطباء أخبروها بأن إصابتي لم تكن خطيرة من حيث المبدأ. مسّدت شعري وأخفت بعناية أي تعابير تشي بالصدمة التي قد تشعر بها عندما أخرج.

سار موكبنا الصغير في الممر ـ ماري، والممرضتان اللتان تدفعان العربة التي استلقي عليها، والملاك الذي يرتدي الرداء الأبيض. وكان الألم في رأسي يزداد حدة.

«أيتها الممرضة، رأسي...».

«أنا لست ممرضة. أنا طبيبتك الآن. إننا ننتظر وصول طبيبك. أما بالنسبة لرأسك فلا تقلق. فعندما تصاب بحادث فإن جسدك يغلق جميع الأوعية الدموية كآلية دفاعية لكي لا يفقد الدم. وعندما يرى أن الخطر قد انتهى تنفتح الأوعية مرة أخرى، ويبدأ الدم يتدفّق، ولذلك تشعر بالألم، لكن هذا هو كلّ ما في الأمر. على أية حال، إذا أردت يمكنني أن أعطيك شيئاً يساعدك على النوم».

رفضت. وكما لو كانت تطفو على السطح من زاوية مظلمة من روحي، تذكّرت الكلمات التي سمعتها البارحة:

«يقول الصوت إنها لن تدع هذه الأشياء تحدث إلا عندما يحين الوقت الملائم».

لم يكن من الممكن أن يعرف. فليس من الممكن أن يكون ما حدث عند ناصية جادة سان جيرمان وشارع ستس بيرتز نتيجة مؤامرة عالمية، من شيء قدّرته الآلهة، التي رغم انشغالها في رعاية هذا الكوكب غير المتوازن جيداً والذي أصبح على حافة الانقراض، كرست كلّ أدواتها لمنعي من الذهاب للبحث عن *الظاهر*. ليس من الممكن أن يكون ميخائيل قد حدس ماذا سيحدث في المستقبل، ما لم يكن قد سمع حقاً صوتاً، وما لم تكن هناك خطة مرسومة، وأن كلّ هذا أكثر أهمية مما كنت أتخيّله.

كان كلّ شيء كثير بالنسبة لي: ابتسامات ماري، إمكانية أن يكون أحدهم قد سمع صوتاً حقاً، الألم الفظيع في رأسي.

«أيتها الطبيبة لقد غيّرت رأيي. أريد أن أنام. لا أستطيع أن أتحمل الألم».

قالت شيئاً إلى إحدى الممرضتين اللتين تدفعان العربة التي ذهبت وعادت حتى قبل أن نصل إلى غرفتي.

أحسست بوخز في ذراعي وغططت في النوم على الفور.

عندما استيقظت أردت أن أعرف ما حدث بدقة. أردت أن أعرف إن كانت المرأة التي تجاوزتني على الرصيف لم تصب بأذى وماذا حدث لطفلها. قالت ماري بأنني أحتاج إلى الراحة، لكن في ذلك الوقت كان الدكتور لويت، طبيبي وصديقي قد وصل وشعر أنه لا يوجد داع يجعله لا يخبرني. فقد صدمتني دراجة نارية. وكان الجسم الذي رأيته ملقى على الأرض بجانبي جسد السائق الشاب. وكان قد نقل إلى المستشفى ذاته، ومثلي فلم يصب إلا بجروح طفيفة. وأجرت الشرطة تحقيقاً فور وقوع الحادث وقالوا في التحقيق إني كنت واقفاً في وسط الطريق عندما وقع الحادث، وهكذا عرضت حياة راكب الدراجة النارية للخطر.

يبدو أني أنا من ارتكب الخطأ، لكن راكب الدراجة قرّر أن لا يوجّه ضدي أي اتهام. فقد ذهبت ماري لرؤيته وتحدثت معه. وعلمت أنه كان من المهاجرين المقيمين بصورة غير قانونية وكان يخشى أن تحقق معه الشرطة. وأُخرج من المستشفى بعد أربع وعشرين ساعة. وقد ساعد وضعه للخوذة على رأسه في تقليل خطر حصول أيّ إصابة للدماغ.

«هل قلت إنه غادر المستشفى بعد أربع وعشرين ساعة؟ هل يعني ذلك أني هنا منذ أكثر من يوم؟».

«إنك هنا منذ ثلاثة أيام، عندما أخرجوك من جهاز السكانر الضوئي، اتصلت بي الطبيبة وسألتني إن كان بوسعها أن تبقيك على المسكّنات. بدا لي أنك كنت متوتراً، غاضباً، ومكتئباً في الآونة الأخيرة، ولذلك قلت لها إنها تستطيع ذلك».

«وماذا حدث بعد ذلك؟».

«يومان آخران في المستشفى ومن ثم يجب أن تضع هذا الاختراع حول رقبتك لمدة ثلاثة أسابيع. لقد تجاوزت فترة الأربعين ساعة الحرجة. ومع ذلك ماتزال هناك إمكانية أن يرفض جزء من

جسمك فكرة الاستمرار في التصرف جيداً، وعندها سيكون أمامنا مشكلة. لكن لنواجه هذا الطارئ إذا ما ظهر وعندما يظهر. لا داعي للقلق بدون سبب».

«إذاً، ماتزال هناك إمكانية أن أموت؟».

«كما تعرف، هناك إمكانية أن نموت جميعنا».

«نعم لكن هل من الممكن أن أموت بسبب الحادث؟».

صمت الدكتور لويت.

«نعم. هناك دائماً إمكانية أن تتشكل جلطة دم لم تتمكن الآلات من التقاطها ويمكن أن تفلت في أية لحظة وتسبّب جلطة. هناك أيضاً إمكانية أن تنطلق إحدى الخلايا وتبدأ في تشكيل سرطان».

«ينبغي ألا تقول أشياء كهذه»، قالت ماري.

«إننا أصدقاء منذ خمس سنوات. لقد سألني سؤالاً وأجبته عنه. والآن، إن لم يكن لديك مانع، يجب أن أعود إلى مكتبي. إن الطبّ ليس كما تعتقدين تماماً. وفي العالم الذي نعيش فيه إذا خرج صبي ليشتري خمس تفاحات، ويعود إلى البيت ومعه تفاحتان فقط، يخلص الناس إلى أنه تناول التفاحات الثلاث المفقودات. وفي عالمي هناك إمكانيات أخرى: فقد يكون تناولها، لكنه قد يكون أيضاً تعرض للسرقة؛ وقد لا يكون المبلغ الذي أعطي له كافياً لشراء التفاحات الخمس التي أرسلوه لشرائها؛ وقد يكون أضاعها في طريق عودته إلى البيت؛ وقد يكون التقى بشخص جائع وقرر أن يتقاسم معه الفاكهة، وإلى ما هنالك. في عالمي كلّ شيء محتمل وكلّ شيء نسبي».

«ماذا تعرف عن الصرع؟».

عرفت ماري للتو أني أتحدّث عن ميخائيل ولم تستطع أن تخفي مشاعرها بالاستياء. قالت إنها يجب أن تذهب إذ ينتظرها طاقم التصوير.

وبعد أن أخذ الدكتور لويت أشياءه استعداداً للذهاب، توقّف ليجيب عن سؤالي.

«إنه إفراط في النبضات الكهربائية في منطقة معيّنة من الدماغ، التي تستثير تشنّجات تزداد أو تنخفض شدتها. ولا توجد دراسة حاسمة حول الموضوع، لكنهم يظنون أن الهجمات قد تستثار عندما يتعرض الشخص إلى إجهاد كبير. لكن لا تقلق، مع أنه يمكن أن تظهر أعراض الصرع في أي عمر، فإن الاصطدام بدراجة نارية لا يسبب الصرع».

«إذاً ما الذي يسببه؟».

«أنا لست اختصاصياً. لكنك إذا أردت أستطيع أن أطلع على المزيد من المعلومات».

«نعم، إذا سمحت. وعندي سؤال آخر أيضاً، لكن أرجوك ألا تظن أن الحادث قد أثّر على دماغي. هل يمكن أن يسمع المصاب بالصرع أصواتاً، وهل تنتابه هواجس قبل وقوع الأمر؟».

«هل أخبرك أحد بأن هذا الحادث سيقع؟»

«ليس تماماً لكن هذا ما فهمته».

«انظر، لا أستطيع أن أبقى معك أكثر من ذلك، سأوصل ماري بسيارتي، لكني سأرى ما يمكنني أن أجمعه من معلومات عن الصرع من أجلك».

خلال اليومين اللذين غابت فيهما ماري، ورغم صدمة الحادث، شغل *الظاهر* حيّزه المعتاد في حياتي. وكنت أعرف أن ميخائيل لو حافظ على كلمته فسيكون هناك مغلف بانتظاري في البيت وفيه عنوان إستر. أما الآن فقد أثارت الفكرة ذعري.

ماذا لو كان ميخائيل يقول الحقيقة عن الصوت؟

بدأت أحاول تذكر تفاصيل الحادث: نزلت عن الرصيف، وتطلعت تلقائياً إن كان هناك أيّ شيء قادم. رأيت سيارة تقترب، لكنها بدت لي أنها على بُعد مسافة آمنة. ومع ذلك صُدمت، ربما بدراجة نارية كانت تحاول اجتياز السيارة وكانت خارج مجال رؤيتي.

إني أؤمن بالإشارات. فبعد أن مشيت الطريق إلى سانتياغو على قدميّ، تغيّر كلّ شيء تماماً: إن ما نحتاج إلى تعلّمه يقبع دائماً أمامنا، وما علينا إلا أن نتطلع حولنا بوجل وانتباه لنكتشف إلى أين يقودنا الله وما هي الخطوة التالية التي يجب أن نقدم عليها. كما تعلّمت احترام السر الغامض. وكما قال إينشتاين إن الله لا يلعب النرد مع الكون، فكلّ شيء يرتبط ببعضه وذو معنى. وقد يبقى ذلك المعنى غامضاً وخفياً طوال الوقت تقريباً، لكننا نعرف دائماً أننا قريبون من المهمة الحقيقية التي بعثنا إليها على الأرض، عندما تلامس طاقة الحماس ما نفعله.

إذا سارت الأمور على هذا النحو فإن كلّ شيء على ما يرام. وإذا لم يكن كذلك فمن الأفضل لنا أن نغيّر اتجاهنا.

وعندما نسير على الطريق الصحيح فإننا نتبع العلامات، وإذا تعثرنا بين الحين والآخر فإن الإله يهبّ لمساعدتنا ويمنعنا من ارتكاب خطأ. هل كان الحادث إشارة؟ هل حدس ميخائيل بإشارة تستهدفني؟

قررت أن الجواب عن هذه الأسئلة هو: نعم.

وربما بسبب هذا، لأني قبلت قدري وتركت شيئاً أعظم من نفسي يوجهني، لاحظت أن حدّة *الظاهر* كانت قد بدأت تخفت أثناء النهار. وعرفت أن كلّ ما كان عليّ أن أفعله هو أن أفتح المغلف وأقرأ عنوانها، وأذهب وأقرع على بابها، لكن جميع الإشارات كانت تدل على أن هذه اللحظة لم تكن اللحظة المناسبة. وإذا كانت إستر

مهمة حقاً في حياتي كما أظن، إذا كانت ماتزال تحبّني (كما قال ميخائيل)، فلماذا أقسر أمراً يفضي بي إلى ارتكاب الأخطاء ذاتها التي ارتكبتها سابقاً؟

كيف يمكن تحاشي تكرارها؟

بأن أعرف نفسي على نحو أفضل، بأن أعرف ما الذي تغيّر وما الذي أثار هذا التغيير المفاجئ في طريق كان دائماً مليئاً بالبهجة والمسرة.

هل يكفي ذلك؟

لا، فقد كنت أريد أن أعرف أيضاً من هي إستر، وما هي التغيّرات التي طرأت عليها خلال الفترة التي عشناها معاً.

وهل يكفي أن أتمكّن من الإجابة عن هذه السؤالين؟ وثمة سؤال ثالث: لماذا جمعنا القدر معاً؟

كان لديّ وقت فراغ كبير في غرفة المستشفى تلك، لذلك رحت أستعرض حياتي. كنت أسعى دائماً إلى المغامرة والأمان، مع أني كنت أعرف أن هذين الشيئين لا يجتمعان حقاً. كنت واثقاً من حبّي لإستر، ومع ذلك كنت أقع بسهولة في حبّ نساء أخريات، لأن لعبة الإغواء أكثر الألعاب إثارة للاهتمام في العالم.

هل كنت أُظهر لزوجتي أني أحبّها؟ ربما لفترة من الزمن، لكن ليس دائماً. لماذا؟ لأني لم أكن أظن أنه أمر ضروري، وذلك لأنها لا بد أنها تعرف أني أحبها. ولم يكن من الممكن أن تشك في مشاعري.

أذكر أن أحداً سألني منذ عدة سنوات إن كان هناك قاسم مشترك بين جميع الصديقات اللاتي عرفتهن في حياتي. وكان الجواب سهلاً: أنا. وعندما أدركت هذا رأيت كم من الوقت أهدرت وأنا أبحث عن الشخص الملائم ـ فقد كانت النساء يتغيّرن، لكني بقيت أنا نفسي دون تغيير، لذلك لم أجن شيئاً من كلّ هذه التجارب. كانت لديّ صديقات كثيرات، وكنت أنتظر دائماً الشخص المناسب.

ولم تتجاوز العلاقة كون الصداقة إلى أن تعرفت على إستر التي غيّرت كلّ شيء.

كنت أفكّر برقة بزوجتي السابقة. لم أعد مهووساً بأن أعثر عليها، بأن أعرف السبب الذي جعلها تتركني دون كلمة تفسير واحدة. كانت رواية «وقت للفتق ووقت للرتق» وصفاً حقيقياً عن زواجي، لكنها كانت قبل كل شيء شهادتي التي أعلن فيها عن قدرتي على الحبّ وحاجتي إلى شخص آخر. كانت إستر تستحق أكثر من مجرد كلمات، وخاصة أني لم أقل هذه الكلمات عندما كنا معاً على الإطلاق.

من المهم دائماً أن يعرف المرء متى يصل الشيء إلى نهايته. إغلاق الدوائر، إغلاق الأبواب، إنهاء الفصول، لا يهمّ ماذا نسميها؛ ما المانع من ترك لحظات الحياة التي انتهت في الماضي. وببطء بدأت أدرك أني لا أستطيع أن أعود وأرغم الأشياء على أن تكون كما كانت ذات مرّة: هاتان السنتان، اللتان بدتا حتى ذلك الوقت جحيماً لانهائياً، لم تريانى معناهما الحقيقي الآن.

ذهب ذلك المعنى شأواً أبعد من زواجي: إذ يرتبط جميع الرجال وجميع النساء بطاقة يطلق عليها الكثيرون الحبّ، لكنها في الواقع هي المادة الخام التي تشكّل منها الكون. ولا يمكن التلاعب بهذه الطاقة، فهي تقودنا برفق إلى الأمام، وهي تحتوي على كلّ ما يجب أن نتعلّمه في هذه الحياة. وإذا حاولنا أن نجعلها تذهب في الاتجاه الذي نريده فسيكون مآلنا أن نكون يائسين، محبطين، واهمين، لأن تلك الطاقة حرة وطليقة.

يمكننا أن نمضي باقي حياتنا ونحن نقول إننا نحبّ ذلك الشخص أو ذلك الشيء فيما نعاني. لأنه بدلاً من قبول قوة الحبّ فإننا نحاول أن نضعفها كي تتلاءم مع العالم الذي يخيّل إلينا أننا نعيش فيه.

كلما تمعنت في ذلك أكثر أصبح *الظاهر* أضعف، وأبدأ بالاقتراب من نفسي أكثر. لقد هيّأت نفسي عقلياً لأن أقوم بأعمال كثيرة، أعمال تتطلّب الكثير من الصمت والتأمل والمثابرة. لقد ساعدني الحادث في فهم أني لا أستطيع أن أرغم شيئاً لم يحن الوقت بعد لرتقه.

تذكّرت ما قاله الدكتور لويت: بعد مثل هذه الإصابة للجسد قد يأتي الموت في أيّ لحظة. ماذا لو كان ذلك صحيحاً؟ ماذا لو توقف قلبي عن الخفقان بعد عشر دقائق؟

دخل ممرض إلى الغرفة ومعه طعام العشاء فسألته:

«هل فكّرت بجنازتك؟».

«لا تقلق»، أجاب، «ستعيش. إنك تبدو في حال أفضل بكثير الآن».

«أنا لست قلقاً. أعرف بأني سأعيش. لقد قال لي ذلك صوت».

لقد تعمدت ذكر «الصوت» لأستثيره فقط. رمقني بارتياب، وظن أنه ربما آن الآوان لطلب إجراء فحص آخر والتأكد من أن دماغي لم يصب بأذى حقاً.

«أعرف أني سأعيش»، تابعت كلامي، «ربما ليوم واحد، لسنة واحدة، لثلاثين أو أربعين سنة، لكن في أحد الأيام، ورغم كلّ هذا التقدّم العلمي سأترك هذا العالم وستقام لي جنازة. كنت أفكّر في هذا الأمر الآن، وكنت أتساءل إن كنت فكّرت بذلك أبداً».

«أبداً. ولا أريد أن أفكّر بذلك. كما أن هذا ما يثير فزعي حقاً، وأنا أعرف جيداً أن كلّ شيء سينتهي».

«شئت أم أبيت، إن وافقت أم لم توافق، فهذه حقيقة لا يمكن لأحد منّا أن يتهرب منها. هل ترغب في الحديث عنها قليلاً؟».

«يجب أن أرى مرضى آخرين»، قال ووضع الطعام على المنضدة وغادر بسرعة، كما لو كان يهرب ليس مني، بل من كلماتي.

قد لا يريد الممرض أن يتحدث عن ذلك، لكن ماذا عني، وأنا أفكّر في الموضوع وحدي؟ لقد تذكّرت بعض السطور من قصيدة كنت قد حفظتها عندما كنت طفلاً:

عندما يصل الضيف غير المرغوب فيه...

قد يعتريني الخوف.

قد أبتسم أو أقول:

كان يومي جيداً، وليأت المساء.

ستجد الحقول محروثة، والبيت نظيفاً،

وكلّ شيء في مكانه.

إن كان ذلك صحيحاً فهو أمر جيد ـ كلّ شيء في مكانه. وكيف ستكون المرثية التي ستكتب على شاهدة قبري؟ لقد وضعت أنا وإستر وصيتينا، اخترنا فيهما، من بين أشياء أخرى، أن يحرق جسدانا، وأن يُذرى رماد جسدي في الرياح في مكان يدعى سيبريرو، على الطريق إلى سانتياغو، ويذرى رمادها فوق البحر. إذن لن تكون هناك شاهدة قبر مكتوب عليها مرثيتي.

لكن ماذا لو كان بإمكاني أن أختار أن تكون لي شاهدة قبر؟ فإني سأطلب أن تكتب عليها هذه الكلمات:

«مات وهو مايزال حياً».

قد يبدو في ذلك تناقض في التعبير، لكني كنت أعرف أشخاصاً عديدين توقّفوا عن الحياة، مع أنهم كانوا مايزالون يعملون ويأكلون ويشاركون في نشاطاتهم الاجتماعية غير العادية. كانوا يفعلون كلّ شيء تلقائياً، غير مدركين اللحظة السحرية التي يجلبها معه كلّ يوم،

ولا يتوقفون عن التفكير بمعجزة الحياة، ولا يفهمون أبداً أن الدقيقة التالية قد تكون الدقيقة الأخيرة بالنسبة لهم على سطح هذا الكوكب.

كان من العبث محاولة شرح هذا الأمر للممرض، وذلك لأن ممرضاً آخر جاء ليأخذ صحن العشاء. وقد بدأ هذا الممرض الجديد يمطرني بوابل من الأسئلة، ربما بناء على أوامر من أحد الأطباء. فقد أراد أن يعرف إن كنت أتذكّر اسمي، إن كنت أعرف السنة التي نحن فيها، اسم رئيس الولايات المتحدة، تلك الأسئلة التي يسألونها عندما يقيّمون حالتك العقلية.

وكان كلّ ذلك لأني سألت الأسئلة التي ينبغي لكلّ إنسان أن يسألها: هل فكّرت يوماً بجنازتك؟ هل تدرك بأنك ستموت ذات يوم؟

في تلك الليلة، أخلدت للنوم مبتسماً. بدأ *الظاهر* يختفي، وبدأت إستر تعود، وإذا كان عليّ أن أموت آنذاك، رغم كلّ ما حدث في حياتي، رغم كلّ حالات فشلي، رغم اختفاء المرأة التي كنت أحبها، والظلم الذي تعرضت له، أو الذي أوقعته في الآخرين، بقيت حيّاً حتى اللحظة الأخيرة، ويمكنني أن أؤكد بحزم: «كان يومي جيداً وليأت المساء».

عدت إلى البيت بعد يومين. ذهبت ماري لإعداد طعام الغداء، ونظرت بين الرسائل المتراكمة. رنّ جرس هاتف البناية. قال المشرف على البناية إن المغلف الذي كنت أنتظره في الأسبوع الماضي كان قد وصل ولا بد أن يكون على منضدتي.

شكرته، لكن بخلاف كلّ توقعاتي، لم أكن في عجلة من أمري لأفتحه. تناولنا أنا وماري الغداء. سألتها كيف تسير أمور التصوير في فيلمها وسألتني عن خططي الحالية، بما أنني لن أتمكن من الخروج كثيراً، وأنا أضع تلك الياقة التجبيرية حول رقبتي. قالت إنها تستطيع، إذا كان ذلك ضرورياً، أن تأتي وتقيم معي.

«أظن أنه يوجد لديّ لقاء مع قناة تلفزيونية كورية، لكني أستطيع أن أؤجّله أو ألغيه. هذا بالطبع إن كنت تحتاج إلى رفقتي».

«بالطبع، وسيكون من الرائع أن تكوني هنا».

ابتسمت ابتسامة عريضة، ورفعت سماعة الهاتف وطلبت مديرة أعمالها، وطلبت منها أن تغيّر جدول مواعيدها. سمعتها تقول: «لكن لا تقولي لهم إني مريضة، فأنا أؤمن بالخرافات، وعندما كنت أستخدم هذا العذر في السابق كان يصيبني شيء مروّع دائماً. فقط قولي لهم إني يجب أن أعتني بالشخص الذي أحبه».

وكانت لديّ مجموعة من الأمور العاجلة أيضاً: تأجيل مقابلات،

دعوات يجب الردّ عليها، رسائل يجب كتابتها لشكر أناس مختلفين على المكالمات الهاتفية والزهور التي كانوا قد أرسلوها، أشياء يجب قراءتها، كتابة مقدّمات وتوصيات. أمضت ماري اليوم بكامله على الهاتف مع وكيلي، تعيد تنظيم جدولي اليومي، للتأكد من الرد على جميع الأشخاص. رحنا نتناول العشاء في البيت كلّ مساء، ونتحدث عن الأمور المثيرة للاهتمام والأمور العادية، شأن أيّ شخصين آخرين. وأثناء تناولنا العشاء ذات مساء، وبعد بضعة كؤوس من النبيذ، قالت إني تغيّرت.

قالت: «كما لو كنت على لقاء مع الموت، وقد أعادك إلى الحياة بطريقة ما».

«يحدث هذا للجميع».

«لكني يجب أن أقول ـ لا تقلق، فأنا لا أريد أن أبدأ جدالاً، ولن تعتريني نوبة من الغيرة ـ فأنت لم تذكر إستر على الإطلاق منذ أن عدت إلى البيت. وقد حدث الشيء ذاته عندما أنهيت كتابة «*وقت للفتق ووقت للرتق*»: فقد كان الكتاب بمثابة علاج، لكن تأثيراته لم تدم طويلاً للأسف».

«هل تقصدين أن الحادث أثّر على دماغي؟».

لم تكن نبرتي عدوانية، لكنها رغم ذلك قررت أن تغيّر الموضوع، وأخذت تحكي لي عن رحلة مرعبة بطائرة الهليوكوبتر كانت على متنها من موناكو إلى كان. ثم ضاجعتها على السرير ـ بصعوبة كبيرة بسبب ياقة التجبير التي كنت أضعها حول رقبتي، وأحسست بالقرب منها.

بعد أربعة أيام اختفت كومة الأوراق من على طاولتي. ولم يكن هناك سوى مغلف أبيض كبير يحمل اسمي ورقم شقتي. ذهبت ماري لفتحه لكني قلت لها إنه يمكن أن ينتظر.

لم تسألني عنه. ربما كان يحتوي على معلومات تتعلق

بحساباتي المصرفية أو رسالة سرّية من امرأة أخرى. ولم أوضّح لها ذلك. أبعدته عن الطاولة، ووضعته على أحد الرفوف بين بعض الكتب. لو واصلت النظر إليه لعاد *الظاهر*.

لقد ضعف الحبّ الذي كنت أكنّه لإستر كثيراً، لكن كلّ يوم كنت قد أمضيته في المستشفى أعاد إليّ ذكريات مثيرة: لا الأحاديث التي كانت تدور بيننا، بل اللحظات التي كنا نمضيها معاً صامتين. تذكّرت عينيها اللتين كانتا تعكسان كينونتها من الداخل. فعندما كانت تنطلق في مغامرة جديدة كانت شابة مفعمة بالحماس، أو زوجة فخورة بنجاح زوجها، أو صحافية يسحرها كلّ موضوع تكتب عنه. ثم أصبحت الزوجة التي بدأ يظهر أنه لم يعد لها مكان في حياتي: كانت نظرة الحزن تلك في عينيها قد بدأت قبل أن تخبرني بأنها كانت تريد أن تصبح مراسلة حربية؛ أصبحت نظرة مفعمة بالبهجة في كلّ مرّة كانت تعود فيها من مهمة، لكن ما أن كانت تنقضي بضعة أيام حتى كانت تعود إليها نظرة الحزن.

بعد ظهر أحد الأيام، رنّ جرس الهاتف.

«إنه ذلك الشاب»، قالت ماري، وهي تعطيني سماعة الهاتف.

على الطرف الآخر سمعت صوت ميخائيل الذي قال في البداية إنه كان يأسف للحادث ثم سألني إن كنت قد استلمت المغلف.

«نعم، إنه هنا معي».

«هل ستذهب وتبحث عنها؟».

كانت ماري تستمع إلى حديثنا، لذلك فكّرت أنه من الأفضل أن أغيّر الموضوع.

«يمكننا أن نتحدّث عن ذلك عندما أراك».

«أنا لا أتذمر، لكنك وعدت بأن تساعدني».

«وأنا أفي بوعودي دائماً. وسنلتقي ما أن يتحسن حالي».

ترك لي رقم هاتفه الخليوي، وعندما وضعت السماعة نظرت إلى ماري التي بدت امرأة مختلفة.

قالت: «إذاً لم يتغيّر شيء».

«بالعكس. لقد تغيّر كلّ شيء».

كان ينبغي أن أوضح ما يجول في رأسي، وقلت لها بأنني مازلت أريد أن أرى إستر، وبأني أعرف مكانها. وعندما يحين الوقت سأستقل القطار، أو سيارة الأجرة، أو الطائرة، أو ما إلى ذلك كي أكون بجانبها. وهذا يعني بالطبع أن أخسر المرأة التي تساندني في هذه اللحظة، وتبذل كلّ ما بوسعها لتثبت مدى أهميتي لها.

بالطبع كنت جباناً. لقد خجلت من نفسي، لكن هكذا هي الحياة، وبطريقة ما لم أستطع أن أفسّر حقاً، بأني كنت أحبّ ماري أيضاً.

والسبب الآخر الذي جعلني لا أقول المزيد هو إيماني بالإشارات، وعندما تذكّرت لحظات الصمت التي تقاسمتها مع زوجتي عرفت أنه ـ بأصوات أو بدون أصوات، بتفسير أو بدون تفسير ـ لم يحن الوقت بعد للبحث عن إستر. كنت أحتاج أن أركّز على لحظات الصمت المشتركة أكثر من أي حديث من أحاديثنا، لأن ذلك يمنحني الحرية التي كنت أحتاجها لفهم الزمن الذي كانت الأمور تسير فيه على ما يرام بيننا، واللحظة التي بدأت تسير في طريق الفشل.

كانت ماري هناك تنظر إليّ. هل يمكنني أن أخون الشخص الذي قدم لي الكثير؟ بدأت أشعر بالقلق، لكني لم أستطع أن أقول لها كلّ شيء، ما لم... أجد طريقة غير مباشرة لأبوح بما كنت أشعر به.

«ماري، لنفترض أن رجليّ إطفاء دخلا غابة لإطفاء نار صغيرة. وبعد ذلك، عندما خرجا وذهبا إلى جدول ماء كان وجه أحدهما ملطخاً بالأسود، فيما كان وجه الآخر نظيفاً تماماً. وسؤالي هو: أي من الإثنين سيغسل وجهه؟»

«إنه سؤال سخيف. طبعاً الرجل ذو الوجه الوسخ».

«لا، إن الرجل ذا الوجه الوسخ سينظر إلى الرجل الآخر ويظن أنه يبدو مثله. وعلى العكس، فإن الرجل ذا الوجه النظيف سيرى وجه زميله مغطى بالأوساخ ويقول لنفسه: لا بد أن وجهي وسخ أيضاً. ومن الأفضل أن أغتسل».

«ماذا تحاول أن تقول؟».

«أقول إني عندما كنت في المستشفى أدركت أنني كنت على الدوام أبحث عن نفسي في النساء اللاتي أحببتهن، كنت أنظر إلى وجوههن الجميلة، النظيفة، وكنت أرى صورتي فيها. أما هن فقد كنّ ينظرن إليّ ويرين الوسخ على وجهي، ومهما بلغن من الذكاء أو الثقة بأنفسهن، كنّ يرين انعكاس أنفسهن فيّ، ويخيّل إليهن أنهن كن في حالة أسوأ مما هنّ في الحقيقة. أرجوك، لا تدعي ذلك يحدث لك».

كنت أريد أن أضيف أن هذا ما حدث لإستر، وقد أدركت ذلك منذ فترة وجيزة، وتذكّرتُ الآن كيف تغيّرت النظرة في عينيها. فقد استحوذتُ دائماً على حياتها وطاقتها، وهذا ما جعلني أشعر بالسعادة والثقة، وقادراً على المضي قدماً. أما هي فقد كانت تنظر إليّ وتشعر بأنها قبيحة، ضئيلة، لأن مهنتي ـ المهنة التي فعلت الكثير لتجعلها حقيقة ـ مع مرور السنوات جعلت علاقتنا في المقام الثاني.

وإذا تعينّ عليّ أن أراها ثانية، يجب أن يكون وجهي نظيفاً كوجهها. وقبل أن أعثر عليها يجب أن أعثر على نفسي أولاً.

خيط أريــادن



«ولدت في قرية صغيرة، تبعد بضع كيلومترات عن قرية أكبر منها قليلاً توجد فيها مدرسة ومتحف مكرس لشاعر كان قد عاش فيها منذ سنوات عديدة. وكان أبي يقارب الخمسين عاماً من عمره، وأمي في الخامسة والعشرين. وكانا قد التقيا عندما كان يبيع السجاد. وكان قد قطع المسافة كلها من روسيا، لكنه عندما شاهدها قرّر أن يتخلّى عن كلّ شيء من أجلها. كانت في عمر ابنته، لكنها كانت تتصرّف وكأنها أمّه، حتى أنها كانت تساعده حتى ينام، وإذ لم يكن ينام جيداً منذ أن كان في السابعة عشرة من عمره، عندما أُرسل ليحارب الألمان في ستالينغراد، إحدى أطول المعارك وأكثرها دموية من معارك الحرب العالمية الثانية. ومن بين كتيبة مؤلفة من ثلاثة آلاف رجل، لم يبق منها سوى ثلاثة رجال فقط».

أمر غريب، فميخائيل يتحدث معظم الوقت تقريباً بالزمن الحاضر، لا يقول «وُلدت» بل «أنا مولود». كما لو أن كل شيءٍ يحدث حالياً.

«في طريق عودتهما من أعمال دورية استطلاع في ستالينغراد، وقع أبي وصديقه وسط تبادل للنيران. اختبآ في خندق وأمضيا يومين في الطين والثلج، بدون طعام وبدون تدفئة. وكانا يسمعان عدداً من الروس الآخرين وهم يتكلمون في مبنى قريب، وعرفا أنه كان عليهما محاولة الوصول إليهم، إلا أن إطلاق النار لم يتوقف

أبداً، وكانت رائحة الدم تملأ الهواء، ولم يتوقف الجرحى عن الصياح طلباً للمساعدة ليلاً نهاراً. وفجأة، خيم صمت. وظن صديق أبي أن الألمان قد انسحبوا، فنهض. سحبه أبي من ساقيه وصرخ، «اجلس» لكن كان الأوان قد فات، فقد اخترقت رصاصة جمجمة صديقه.

«مرّ يومان آخران، وأبي وحيد، وجثة صديقه ملقاة بجانبه. لم يكّف عن ترديد كلمة «اجلس». وأخيراً، أنقذه أحدهم وأخذه إلى المبنى المجاور. لم يكن يوجد طعام، ولم يكن هناك شيء سوى الذخيرة والسجائر. كانوا يأكلون التبغ. وبعد أسبوع، بدؤوا يتناولون لحم جثث رفاقهم الموتى المجمّدة. وصلت كتيبة ثالثة وشقت طريقها إليهم؛ تم إنقاذ الناجين، وعولج الجرحى، ثم أرسلوا ثانية إلى الجبهة على الفور. يجب أن لا تسقط ستالينغراد. كان مستقبل روسيا مهدّداً بالضياع. وبعد أربعة أشهر من القتال العنيف، ومن أكل لحم البشر، ومن بتر الأطراف بسبب قرصات الجليد والبرد الشديد، استسلم الألمان أخيراً ـ كانت بداية النهاية لهتلر والرايخ الثالث. عاد أبي مشياً إلى قريته التي كانت تبعد قرابة ألف كيلومتر عن ستالينغراد. أصبح من يستحيل عليه أن ينام، وعندما كان يستطيع أن يغفو، كان يحلم كلّ ليلة بالصديق الذي كان باستطاعته أن ينقذه.

«وبعد سنتين، انتهت الحرب. وحصل على وسام، لكنه لم يتمكن من العثور على عمل. شارك في خدمات إحياء ذكرى الذين قتلوا في الحرب، لكنه لم يكد يجد لديه شيئاً يأكله. اعتُبر بطلاً من أبطال ستالينغراد، لكنه لم يستطع أن يعيش إلا بالقيام بأعمال صغيرة متنوعة كان يحصل لقاءها على أجر زهيد. وفي النهاية عرض عليه أحدهم أن يقوم ببيع السجاد. وبما أنه كان يعاني من الأرق اختار أن يسافر ليلاً. تعرّف على المهربين، حظي بثقتهم، وبدأ يكسب شيئاً من المال.

«ألقت الحكومة الشيوعية القبض عليه واتهمته بالتعاون مع المجرمين، ورغم أنه كان أحد أبطال الحرب، أمضى السنوات العشر التالية في سيبيريا واعتبر خائناً للشعب. وعندما أُطلق سراحه كان قد أصبح عجوزاً، ولم يكن يعرف شيئاً سوى السجاد. وتمكن من استعادة صلاته القديمة، وأعطاه أحدهم عدداً من السجادات لبيعها، لكن لم يعد يوجد أحد يهتمّ بشراء السجاد في هذه الأوقات الصعبة. فقرّر أن يذهب بعيداً، وانطلق وانتهى به المطاف في كازاخستان.

«كان مسناً ووحيداً، وكان بحاجة إلى عمل ليسد رمقه. في النهار كان يزاول أعمالاً صغيرة مختلفة، وفي الليل كان ينام بشكل متقطع، ويستيقظ وهو ينادي «اجلس». والغريب أنه رغم كلّ معاناته، والأرق، والطعام الرديء، والاحباطات، والسجائر التي يدخّنها عندما كان يستطيع أن يحصل على واحدة منها من أحدهم، كان مايزال يمتلك بنية جسدية حديدية.

«وفي إحدى القرى الصغيرة التقى بصبية تعيش مع أبويها. أخذته إلى بيتها لأن كرم الضيافة معروف في تلك المنطقة. جعلوه ينام في غرفة الجلوس، لكنه كان يستيقظ وهو يصيح. ذهبت الفتاة إليه، وراحت تمسد رأسه وتصلي من أجله، وللمرة الأولى منذ عقود عديدة نام بهدوء.

«وفي اليوم التالي قالت إنها عندما كانت فتاة حلمت أنها ستنجب طفلاً من رجل يكبرها سناً. انتظرت سنوات، وتقدم لها العديد من الرجال، لكنها كانت تصاب دائماً بخيبة أمل. قلق أبواها عليها كثيراً، لأنهما لم يكونا يرغبان في أن يريا ابنتهما الوحيدة وقد أصبحت عانساً يرفضها المجتمع.

«سألته إن كان يرغب في الزواج منها. تملكته الدهشة. فهي كانت شابة قد تكون في عمر حفيدته، لذلك لم يقل شيئاً. وعند المغرب، وفي غرفة الجلوس الصغيرة، سألته إن كان بإمكانها أن تمسّد رأسه قبل أن ينام. وهكذا نَعِمَ بليلة هادئة أخرى.

«وفي اليوم التالي طُرح موضوع الزواج ثانية، وهذه المرة بحضور أبويها، اللذين بدا أنهما رحبا بالفكرة؛ فقد كانا يريدان زوجاً لابنتهما مهما كان لكي لا تصبح مصدر عار على الأسرة. اختلقا قصة عن رجل عجوز قَدِم من مسافات بعيدة، كان تاجر سجاد غني، لكنه سئم من العيش حياة مليئة بالرفاهية والراحة فتخلى عن كلّ ذلك، وخرج يبحث عن المغامرة. أبدى الناس إعجابهم، وتخيّلوا مهراً كبيراً، وحسابات مصرفية ضخمة، وقالوا كم كانت أمّي محظوظة في أن تصادف أخيراً رجلاً يمكنه أن يحملها من تلك القرية إلى أماكن بعيدة. واستمع أبي إلى هذه القصص بمزيج من الافتتان والدهشة؛ راح يفكّر بالسنوات التي أمضاها وحيداً، متنقلاً، ومن كلّ ما عاناه، وكيف أنه لم يعثر على أسرته عندما عاد من الحرب، والآن أصبح له بيت للمرة الأولى في حياته. وافق على العرض، وتواطأ مع الأكاذيب حول ماضيه، وتزوّجا وفق التقاليد الإسلامية. وبعد شهرين، حملت أمي بي.

«عشت مع أبي حتى بلغت السابعة من عمري؛ أصبح ينام جيداً، يعمل في الحقول، يذهب إلى الصيد، ويتكلّم مع القرويّين الآخرين عن أمواله وأراضيه. وكان ينظر إلى أمّي كما لو أنها كانت الشيء الجيد الوحيد الذي حدث في حياته. كبرت وأنا أظن أني ابن رجل غني، لكنه ذات ليلة، وفيما كنا نجلس بالقرب من المدفأة، حدثّني عن ماضيه وعن سبب زواجه، إلا أنه رجاني أن لا أخبر أحداً بذلك. قال إنه سيموت قريباً، وقد مات بعد أربعة أشهر. ولفظ أنفاسه الأخيرة وهو بين ذراعي أمّي مبتسماً، كما لو أنه لم يرَ لحظة حزن في حياته. لقد مات رجلاً سعيداً».

كان ميخائيل يروي لي قصته في ليلة ربيعية شديدة البرودة، مع أنها لم تكن بكل تأكيد ببرودة ستالينغراد، حيث يمكن أن تهبط درجة الحرارة إلى ثلاثين درجة مئوية تحت الصفر. كنا نجلس مع

بعض الشحاذين الذين كانوا يتدفؤون أمام شعلة من النار. كنت قد ذهبت إلى هناك بعد أن هاتفني ميخائيل ثانية، وطلب أن أفي بوعدي. وخلال حديثنا، لم يأت على ذكر المغلف الذي تركه في شقتي، كما لو أنه كان يعرف ـ ربما من خلال الصوت ـ بأني قررت في نهاية الأمر أن أتبع الإشارات، وأن أدع الأشياء تحدث في حينها لكي أحرّر نفسي من قوّة *الظاهر*.

عندما كان يطلب مني أن ألتقي به في أحد أكثر المناطق خطورة في باريس، كانت أول ردّة فعل لي هي أن ينتابني الفزع. وكنت أقول له عادة بأني مشغول جداً، وكنت أحاول أن أقنعه بأن نذهب إلى حانة مريحة يمكننا أن نناقش فيها أموراً مهمة بهدوء وأمان. وكنت مازال أخشى أن تنتابه نوبة صرع أمام الناس، مع أني أصبحت أعرف الآن ما يجب عليّ أن أفعله، لكن ذلك كان أفضل من المخاطرة بأن أتعرض للسرقة وأنا أضع ياقة تجبيرية حول رقبتي، ولا أملك وسيلة لأدافع فيها عن نفسي.

أصرّ ميخائيل: كان عليّ أن ألتقي بالشحاذين؛ فقد كانوا جزءاً من حياته، وجزءاً من حياة إستر أيضاً. وكنت قد أدركت عندما كنت في المستشفى أن ثمة خللاً في حياتي، وأني في حاجة ماسة للتغيير. لكن ما هي أفضل وسيلة لتحقيق هذا التغيير؟ أن أفعل شيئاً مختلفاً تماماً، كارتياد أماكن خطرة، والالتقاء بالمنبوذين من المجتمع.

هناك قصة عن بطل يوناني يدعى تيسيوس، دخل في متاهة ليقتل وحشاً. وكانت حبيبته أريادن قد أعطته طرف خيط كي يمدّه وهو يسير ليعرف طريق عودته. وفيما كنت أجلس مع هؤلاء الناس، أستمع إلى قصة ميخائيل، خطر لي أني لم أخض تجربة كهذه منذ فترة بعيدة ـ طعم المجهول، نكهة المغامرة. ومن يعرف، ربما كان خيط أريادن ينتظرني في مكان لا أرتاده عادة، إلا إذا اقتنعت بأنه كان عليّ أن أبذل جهداً هائلاً لتغيير قصتي وحياتي.

واصل ميخائيل قصته، ورأيت أن المجموعة كلها تنصت إلى

ما يقول باهتمام: فأكثر اللقاءات إمتاعاً لا تحدث دائماً حول الموائد الفخمة في مطاعم دافئة لطيفة.

«كان عليّ أن أسير كلّ يوم قرابة ساعة إلى القرية التي توجد فيها المدرسة. كنت أرى النساء يجلبن الماء، وسهول البادية ووديانها الممتدة على مد البصر، الجنود الروس وهم يمرّون في قوافل طويلة، والجبال التي تكسو قممها الثلوج والتي قيل لي إنها تخفي وراءها بلداً شاسعاً يدعى الصين. وكان يوجد في القرية التي كنت أذهب إليها سيراً على الأقدام كلّ يوم متحف مكرّس لشاعرها الوحيد، ومسجد، ومدرسة، وثلاثة أو أربعة شوارع. يعلموننا أنه يوجد حلم، مثل أعلى: يجب أن نكافح كي تنتصر الشيوعية لتحقيق المساواة بين جميع البشر. أؤمن بهذا الحلم، لأنه حتى في تلك القرية الفقيرة البائسة كانت هناك فروق ملحوظة: فقد كان ممثلو الحزب فوق الآخرين، وكانوا بين الحين والآخر يزورون العاصمة، آلماآتا، ويعودون محملين برزم من الأطعمة الغريبة، والهدايا لأطفالهم، وملابس غالية الثمن.

«وفي عصر أحد الأيام، وفي طريقي إلى البيت، شعرت بريح قوية تهب، ورأيت أضواء حولي، وفقدت الوعي لبضع لحظات. وعندما صحوت جلست على الأرض، ورأيت فتاة صغيرة شديدة البياض، ترتدي ثوباً أبيض، وحزاماً أزرق، تطفو في الهواء فوقي. كانت تبتسم لكنها لا تنبس بكلمة واحدة، ثم اختفت.

«عدت إلى البيت راكضاً، توقفت أمّي عن عملها، وأخبرتها بما رأيت. خافت وطلبت مني أن لا أكرّر ما أخبرتها به الآن. أوضحت لي ـ كما يمكن لشخص أن يشرح هذه الفكرة المعقّدة إلى صبي في الثامنة من عمره ـ بأنها مجرد هلوسة. قلت لها إني رأيت الفتاة حقاً، وإنه باستطاعتي أن أصفها لها بالتفصيل. وأضفت أني لم أخف وعدت إلى البيت على الفور لأني أردتها أن تعرف ما حدث.

«وفي اليوم التالي، عندما عدت من المدرسة، رحت أبحث عن الفتاة، لكنها لم تكن هناك. لم يحدث شيء طوال أسبوع كامل، وبدأت أفكّر بأن أمّي ربما كانت على حق: لا بد أني غططت في النوم، وحلمت بكل ذلك.

«ثم، وفي مثل هذا الوقت المبكر جداً من صباح أحد الأيام، وبينما كنت ذاهباً إلى المدرسة، رأيت الفتاة مرة أخرى وهي تعوم في الهواء تحيطها هالة بيضاء. لم أقع على الأرض، أو أرى أضواء مشعة. وقفنا لوهلة، ينظر أحدنا إلى الآخر؛ ابتسمت لي ورددت لها الابتسامة. سألتها عن اسمها لكنها لم تردّ. وفي المدرسة، سألت زملائي إن كانوا قد رأوا فتاة تعوم في الهواء، فضحكوا جميعهم.

«أثناء النهار استدعيت إلى مكتب المدير. قالوا لي لا بد أن أكون مصاباً بلوثة عقلية ـ فلا يوجد شيء يدعى «رؤى»؛ والحقيقة الوحيدة هي التي نراها حولنا؛ وإن الدين قد اختُرع لخداع الناس. أسألهم عن المسجد في المدينة، فقالوا إن المسنين والذين يؤمنون بالخرافات فقط هم الذين يرتادونه، أناس عاطلون عن العمل، جهلة، تعوزهم الطاقة اللازمة لإعادة بناء العالم الاشتراكي. ثم هددني المدير: إذا كرّرت هذه القصة عن الفتاة الصغيرة فسأطردك من المدرسة. ومن شدة خوفي رجوته ألا يقول شيئاً لأمّي، ووافق بشرط أن أخبر زملائي بأني اختلقت هذه القصة من بنات أفكاري.

«وفى بوعده ووفيت بوعدي. لكن زملائي لم يبدوا اهتماماً كبيراً بها، وحتى لم يطلب أحد منهم أن أريه المكان الذي تراءت لي فيه الفتاة. لكنها ظلت تظهر لي في الشهر التالي كله. وكنت أحياناً أغيب عن الوعي في البداية، وأحياناً أبقى صاحياً. لم نتكلّم أبداً، بل كنا نبقى معاً حتى تختفي. وبدأت أمّي تقلق لتأخري في العودة إلى البيت. وذات ليلة أرغمتني على أن أفسّر لها ماذا أفعل في الفترة الفاصلة بين مغادرتي المدرسة ووصولي إلى البيت. وأخبرتها ثانية عن الفتاة الصغيرة.

«ولدهشتي، بدلاً من أن توبّخني هذه المرة، قالت إنها ستذهب معي إلى ذلك المكان. وفي اليوم التالي استيقظنا مبكرين، وعندما وصلنا ظهرت الفتاة، لكن أمّي لم تستطع أن تراها. طلبت مني أمّي أن أسأل الفتاة سؤالاً عن أبي. لم أفهم السؤال، لكنني فعلت كما طلبت، ثم، وللمرة الأولى سمعت الصوت. لم تحرّك الفتاة شفتيها، لكني كنت أعرف أنها تكلّمني: قالت إن أبي على ما يرام وهي تحرسنا، وإنه يكافأ الآن على كلّ الآلام التي عاناها على الأرض. وطلبت مني أن أذكّر أمّي بالمدفأة. أخذت أمّي تبكي وفسرت ذلك أنه نتيجة المشاق والمتاعب الكثيرة التي تعرض لها خلال الحرب، كان أبي يجد متعة كبيرة في الجلوس بجانب المدفأة. وقالت الفتاة إنه ينبغي لأمي عندما تمر من هذا الطريق في المرة القادمة أن تعقد قطعة من القماش حول الشجرة الصغيرة التي تنمو هناك وتصلي.

«واستمرت الرؤى لسنة كاملة. وأخبرت أمّي بعض صديقاتها المقربات، اللاتي أخبرن صديقات أخريات، وسرعان ما أصبحت تكسو الشجرة قطع القماش. وكان كلّ شيء يتم بسرية تامة. وكانت النساء يسألن عن أحبة ماتوا، وكنت أستمع إلى ردود الصوت وأنقل الرسائل. كان أحباؤهن عادة بخير، وفي مناسبتين اثنتين فقط طلبت الفتاة أن تذهب المجموعة إلى هضبة قريبة عند شروق الشمس، والصلاة هناك بالقلب (بدون كلمات) على أرواحهم. ويبدو أني كنت أدخل في غيبوبة في بعض الأحيان، ويغشى عليّ، وأدمدم كلمات غير مفهومة، لكني لم أكن أتذكر شيئاً عن ذلك. وكنت أعرف ذلك فقط عندما أكون على وشك أن أدخل في غيبوبة، فأحسّ بريح دافئة تلفحني وأرى فقاعات من النور حولي.

«ذات يوم عندما كنت أرافق مجموعة من النساء للقاء الفتاة الصغيرة منعتنا الشرطة من الاقتراب. احتجت النسوة ورحن يصحن، لكننا لم نستطع أن نعبر. رافقني رجال الشرطة إلى المدرسة، وأخبرني المدير بأني طردت من المدرسة بسبب إثارة التمرّد والتشجيع على الخرافة.

«وفي طريق عودتي رأيت أنهم قد اقتلعوا الشجرة وبعثرت الأشرطة على الأرض. جلست وحيداً أبكي، لأن تلك الأيام كانت أسعد أيام حياتي. وفي تلك اللحظة ظهرت الفتاة ثانية. وقالت ألا أقلق، وأن هذا كله جزء من الخطة، حتى اقتلاع الشجرة، وقالت إنها سترافقني طوال حياتي، وستخبرني دائماً بما يجب أن أفعله».

«ألم تذكر لك اسمها على الإطلاق؟» سأل أحد الشحاذين.

«مطلقاً. لكن ذلك لا يهمّ لأني أعرف دائماً متى تتحدث إليّ».

«هل يمكننا أن نعرف شيئاً عن موتانا؟».

«لا. لم يحدث ذلك إلا في فترة معيّنة. أما الآن فقد أصبحت مهمتي مختلفة. هل لي أن أتابع قصتي؟».

«بالتأكيد»، قلت، «لكن هل يمكنني أن أسأل شيئاً واحداً؟ هناك بلدة في جنوب غرب فرنسا تدعى لوردز. ومنذ زمن طويل رأت راعية فتاة صغيرة تبدو أنها تشبه رؤيتك».

«لا، أنت مخطئ»، قال شحاذ عجوز ذو ساق اصطناعية. «لقد رأت الراعية، التي تدعى برناديت، مريم العذراء».

قلت: «لقد كتبت كتاباً عن رؤاها وعليّ أن أدرس المسألة مباشرة، وكنت قد قرأت كلّ ما نشر عنها في نهاية القرن التاسع عشر. لقد اطلعت على الكثير من البيانات المتعلقة ببرناديت في سجلات الشرطة والكنيسة والدارسين. ولم تذكر جميعها أنها رأت امرأة، إنها تصرّ جميعها على أنها كانت فتاة. وقد كرّرت القصة ذاتها طوال حياتها وغضبت غضباً شديداً من التمثال القائم في الكهف. قالت إنها لا تشبه ما شاهدته في رؤاها، لأنها رأت فتاة صغيرة لا امرأة. ومع ذلك استولت الكنيسة على القصة وعلى الرؤيا، وعلى المكان وحوّلت الظهور إلى أمّ المسيح، ونُسيت الحقيقة. فإذا تم تكرار الكذبة مرات كثيرة فإن الجميع سيصدقونها في نهاية

الأمر. والفرق الوحيد هو أن الفتاة الصغيرة ـ كما كانت تشير برناديت إليها دائماً ـ كان لها اسم».

«ما هو؟» سأل ميخائيل.

« أنا الحمل بلا دنس. من الواضح أن هذا ليس اسماً مثل بيتر أو ماريا أو إيزابيل. إنها تصف نفسها كحقيقة، واقع، حدث، والذي يترجم أحياناً بـ 'أنا الولادة بدون جنس'. والآن أرجو أن تتابع قصتك».

«قبل أن يتابع قصته، هل يمكنني أن أسألك شيئاً؟» قال شحاذ آخر يقاربني في العمر. «لقد ذكرت الآن أنك ألّفت كتاباً. ماعنوانه؟».

«لقد ألّفت كتباً كثيرة».

وأخبرته عنوان الكتاب الذي ذكرت فيه قصة برناديت ورؤيتها.

«إذن أنت زوج الصحافية؟»

«هل أنت زوج إستر؟» سألت شحاذة ذات عينين واسعتين. كانت ترتدي ثياباً مبهرجة، وتضع على رأسها قبعة خضراء وترتدي معطفاً أرجواني اللون.

لا أعرف ماذا سأقول.

«لماذا لم تعد؟» سألت أخرى. «أرجو أن لا تكون قد ماتت. كانت ترتاد أماكن خطرة على الدوام. لقد طلبت منها مراراً ألا تذهب. انظر ما أعطتني!».

وأرتني قطعة من القماش ملطّخة بالدم، قطعة من قميص الجندي الميت.

«لا، إنها لم تمت»، قلت، «لكني فوجئت بسماع أنها كانت تأتي إلى هنا».

«لماذا؟ ألأننا مختلفون؟».

«لا، إنك تسيئين فهمي. إني لا أطلق عليكم حكماً. بل فوجئت وسررت بمعرفة أنها كانت تفعل ذلك».

على كلّ حال، كان للفودكا التي كنا نحتسيها للتخلص من البرد تأثير علينا جميعنا.

«الآن إنك تسخر»، قال رجل ضخم الجسم، ذو شعر طويل، بدا وكأنه لم يحلق منذ أيام عديدة. «إذا كنت تظن أنك موجود بين مجموعة سيئة فلماذا لا تغادر».

كنت أشرب معهم أيضاً وقد منحني ذلك شجاعة.

«من أنت؟ أيّ نوع من الحياة هذه؟ إنك تتمتع بصحة جيدة، ويمكنك أن تعمل، لكنك بدلاً من ذلك تفضّل أن تتسكّع ولا تفعل شيئاً».

«إننا نختار أن نمكث في الخارج، خارج عالم ينهار بسرعة، خارج أناس يعيشون في خوف دائم من أن يخسروا شيئاً، يمشون في الشارع كما لو كان كلّ شيء جميلاً وعلى ما يرام، بينما في الواقع كلّ شيء سيئ، سيئ جداً بالفعل! ألا تستجدي أنت أيضاً؟ ألا تطلب صدقة من رئيسك كي تسدد إيجار شقتك؟».

«ألا تخجل من أنك تهدر حياتك؟» سألت المرأة ذات المعطف الأرجواني.

«من قال إني أهدر حياتي؟ فأنا أعمل ما أريد أن أفعله».

قاطع الرجل الضخم وقال:

«وماذا تريدنا أن نفعل؟ أن نعيش فوق قمة العالم؟ من قال لك إن الجبل بالضرورة أفضل من السهل؟ يخيّل إليك أننا لا نعرف كيف نعيش، أليس كذلك؟ حسناً، لقد فهمت زوجتك أننا نعرف تماماً ما نريد من الحياة. هل تعرف ما نريد؟ السلام! الحرية! وأن لا نرغم على اتباع آخر الأزياء، إننا نصنع أزياءنا الخاصة بنا هنا! نشرب

عندما نريد، وننام عندما نشاء! ولم يختر أحدنا هنا العبودية، ونحن فخورون بذلك، مع أنك تظن كالكثيرين أننا نستغل سخاء الآخرين على نحو يثير الشفقة!».

بدأت الأصوات تزداد عدوانية. تدخّل ميخائيل:

«هل تريدون أن تسمعوا بقيّة قصتي أو أغادر الآن؟».

«إنه ينتقدنا!» قال الرجل ذو الساق الاصطناعية. «لقد جاء إلى هنا ليحكم علينا، كما لو كان هو الله».

ثارت بعض الهمهمات المتذمرة، وصفعني أحدهم على ظهري. وزعت عليهم بعض السجائر، وكانت زجاجة الفودكا في يدي ثانية. هدأ الناس شيئاً فشيئاً، وكانت ماتزال تعتريني الدهشة والصدمة بأنّ هؤلاء الناس يعرفون إستر أفضل مما كنت أعرفه، لأنها أعطتهم ـ ولم تعطني أنا ـ قطعة من ذلك القميص الملطّخ بالدم.

تابع ميخائيل قصته.

«بما أنه لم يكن لديّ مكان أذهب إليه لأدرس وأنا ماأزال صغيراً، وبما أني لم أكن أعرف رعاية الخيول ـ التي هي فخر منطقتنا وبلادنا ـ أصبحت راعياً. وفي الأسبوع الأول نفق أحد الخراف، وانتشرت إشاعة بأني شخص ملعون، وأني ابن رجل أتى من مكان بعيد وعد أمّي بثروة كبيرة، لكنه لم يخلّف لنا شيئاً. وربما كان الشيوعيون قد أخبروهم بأن الدين ليس إلا وسيلة لمنح اليائسين آمالاً زائفة، وقد تربى جميعهم على تصديق أن تلك هي الحقيقة الوحيدة القائمة وأن أيّ شيء لا تستطيع عيوننا أن تراه هو ثمرة الخيال الإنساني، إلا أن تقاليد البادية القديمة ظلت لم تتأثر وكانت تنتقل شفوياً عبر الأجيال.

«الآن وبعد أن اقتلعت الشجرة لم أعد أرى الفتاة الصغيرة، مع أني كنت ماأزال أسمع صوتها. طلبت منها أن تساعدني في رعاية القطعان، وطلبت مني أن أصبر، فهناك أوقات صعبة قادمة، لكن قبل

أن أبلغ الثانية والعشرين من عمري ستأتي امرأة من بلاد بعيدة وتأخذني لرؤية العالم. وقالت أيضاً إن لديّ مهمّة يجب أن أنجزها، وإن تلك المهمّة تهدف إلى نشر الطاقة الحقيقية للحبّ في العالم.

«بدأ يعتري صاحب الخراف القلق نتيجة الإشاعات المتزايدة. والغريب في الأمر أن الأشخاص الذين راحوا ينشرون هذه الإشاعات، وحاولوا تحطيم حياتي، هم الأشخاص الذين كانت الفتاة الصغيرة قد ساعدتهم في السنة الماضية. وفي أحد الأيام توجّه إلى مكتب الحزب الشيوعي في القرية المجاورة، وعرف أننا، أنا وأمّي، نُعتبر أعداء للشعب، فطردني على الفور. لكن ذلك لم يؤثّر كثيراً على حياتنا، لأن أمّي كانت تقوم بأعمال التطريز لصالح شركة في أكبر مدينة في المنطقة لم يكن يعرف فيها أحد أننا أعداء الشعب والطبقة العاملة. وكان كلّ ما يريده أصحاب المصانع أن تواصل عملها في التطريز من الفجر حتى الغسق.

«أصبح لديّ الآن متسع كبير من الوقت، لذلك رحت أجوب البوادي مع الصيادين الذين كانوا يعرفون قصتي، ويؤمنون بأني أتمتع بقوى سحرية، لأنهم لا يصادفون ثعالب إلا عندما أكون معهم. وأمضيت أياماً كاملة في متحف الشاعر، ودرست مقتنياته، وقرأت كتبه، وكنت أستمع إلى الأشخاص الذين كانوا يأتون لقراءة أشعاره. وكنت بين الحين والآخر أشعر بريح دافئة تلفحني، وأرى الأضواء، وأسقط مغشياً عليّ، ثم كان الصوت يخبرني بحقائق ملموسة: متى سيحدث الجفاف التالي، متى ستمرض الحيوانات، متى سيصل التجار. ولم أكن أخبر أحداً سوى أمّي التي كان يزداد قلقها عليّ.

«وذات يوم أخذتني لزيارة طبيب كان يقوم بزيارة المنطقة. وبعد أن استمع بانتباه شديد إلى قصتي دوّن بعض الملاحظات، ونظر إلى عينيّ بأداة غريبة، وأنصت إلى دقات قلبي، ونقر على ركبتي، وشخّص نوعاً من أنواع الصرع. وقال إنه ليس مرضاً معدياً، وإن النوبات ستتناقص مع تقدم العمر.

«كنت أعرف أنه لم يكن مرضاً، لكني تظاهرت بأني صدقته لأطمئن أمّي. أما مدير المتحف، الذي لاحظ كيف أني أبذل جهداً كبيراً كي أتعلّم، فقد رثى لحالي وأصبح معلّمي. ومنه تعلمت الجغرافيا والأدب والشيء الذي ستثبت أهميته لي في المستقبل: اللغة الإنكليزية. ففي عصر أحد الأيام طلب مني الصوت أن أخبر المدير بأنه سيُعرض عليه بعد فترة وجيزة منصباً هاماً. وعندما أخبرته بذلك كان كلّ ما سمعته منه ضحكة حيية ورداً حازماً: لا توجد هناك فرصة على الإطلاق لأن يحدث هذا، لا لأنه لم يكن عضواً في الحزب فحسب، بل لأنه كان مسلماً متديناً أيضاً.

«كنت آنذاك في الخامسة عشرة من عمري. وبعد شهرين من هذا الحديث أحسست بأن ثمة تغيراً سيطرأ على المنطقة. فقد أصبح الموظفون الحكوميون المتغطرسون عادة أكثر لطفاً ودماثة على نحو مفاجئ، وسألوني إن كنت أريد أن أعود إلى المدرسة. وتحركت قوافل ضخمة من الجنود الروس إلى الحدود. وذات مساء، وفيما كنت أدرس في المكتب الصغير الذي كان مكتب الشاعر ذات يوم، دخل المدير راكضاً ونظر إليّ نظرة فيها مزيج من الذعر والحرج. وقال لي إن الشيء الوحيد الذي لم يكن يتخيّله أن يحدث ـ انهيار النظام الشيوعي ـ حدث الآن وبسرعة لا تصدق، وإن الجمهوريات السوفيتية السابقة بدأت تصبح بلداناً مستقلة. وبدأت الأخبار الواردة من آلماآتا تتحدث عن تشكيل حكومة جديدة، وقد عُيِّن لحكم الإقليم!

«وبدلاً من أن يعانقني مبتهجاً سألني كيف عرفت أن هذا سيحدث. هل سمعت أحداً يتحدّث عن ذلك؟ هل وظفتني أجهزة الأمن للتجسّس عليه لأنه لم يكن ينتمي إلى الحزب؟ والأسوأ من كلّ هذا هل تحالفت ـ في وقت ما في حياتي ـ مع الشيطان؟

«ذكّرته بأنه كان يعرف قصتي: الفتاة الصغيرة، الصوت، النوبات التي تمكنّني من سماع أشياء لا يعرفها الآخرون. وقال إن هذا ليس إلا جزءاً من مرضي، فلا يوجد سوى نبي واحد، وهو

هذا ليس إلا جزءاً من مرضي، فلا يوجد سوى نبي واحد، وهو الرسول محمد، وأن كلّ ما يجب قوله قد أوحي به. وتابع إن هذا لا يعني أن الشيطان غير موجود في العالم، بل يتبع كلّ أنواع الخدع ـ بما فيها إمكانية الحدس بالمستقبل ـ لخداع الضعفاء، وإغواء الناس كي يبتعدوا عن الإيمان الحقيقي. وقال إنه كان سيعرض عليّ وظيفة لأن الإسلام يطلب منا أن نكون رحماء، أما الآن فهو يأسف لذلك كثيراً: فمن الواضح أني كنت أداة من أدوات أجهزة الأمن أو مبعوثاً من الشيطان.

«وطردني على الفور.

«لم تكن الحياة سهلة من قبل، وازدادت صعوبة الآن. وأصبح المصنع الذي كانت تعمل فيه أمّي، الذي كانت تملكه الحكومة، يتبع القطاع الخاص، وكان للمالكين الجدّد أفكاراً مغايرة تماماً؛ وأعادوا هيكلة العمل برمته، وطردوها من العمل أيضاً. وبعد شهرين لم نكن نملك شيئاً نعتاش منه، وكان كلّ ما تبقى لنا أن نفعله هو أن نغادر القرية التي أمضيت فيها حياتي كلها، وأن أبدأ في البحث عن عمل.

«رفض جدي وجدتي مغادرة القرية، فقد كانا يفضلان الموت جوعاً على الأرض التي ولدا وعاشا فيها طوال حياتهما. أما أنا وأمّي فقد ذهبنا إلى آلماآتا ورأيت عاصمة بلدي للمرة الأولى: بهرتني السيارات، والبنايات الضخمة، ولافتات النيون، والدرج المتحرك وأكثر ما أثار اهتمامي المصاعد. وحصلت أمّي على عمل في دكان صغير، وبدأت أعمل في مرآب كصبي ميكانيكي. وكنا نرسل معظم المبلغ الذي نكسبه إلى جدي وجدتي، وكان يتبقى معنا قدر كافٍ من المال يمكننّا من سد رمقنا، ورؤية أشياء لم أرها في حياتي: الأفلام، المعارض، وألعاب كرة القدم.

«وعندما انتقلنا إلى المدينة لم تعد تنتابني تلك النوبات، ولم أعد أسمع الصوت ولم يعد يأتيني حضور الفتاة الصغيرة. وقلت إن

هذا أفضل. وقد بهرتني آلماآتا أيضاً، وكنت مشغولاً بكسب رزقي بحيث لم أفتقد تلك الصديقة الخفية التي كانت رفيقتي منذ أن بلغت الثامنة من عمري؛ وأدركت أن كلّ ما يحتاجه المرء لكي يصبح على قدر من الأهمية في العالم شيئاً من الذكاء. وفي إحدى ليالي الأحد كنت أجلس بالقرب من نافذة شقّتنا الصغيرة الوحيدة التي تطل على باحة صغيرة مليئة بالأوساخ. وكنت قلقاً جداً لأني كنت قد خدشت سيارة في اليوم السابق وأنا أحاول إدخالها إلى المرآب، وكنت أخشى أن يطردني معلمي من العمل لهذا السبب، ولم أتناول طعاماً طوال النهار.

«وفجأة شعرت بالريح الدافئة تلفحني ورأيت الأضواء. وحسب ما قالت أمّي سقطت مغشياً عليّ ورحت أدمدم بلغة غريبة، وبدا أن الغيبوبة طالت أكثر من المعتاد هذه المرة. وأذكر أن الصوت ذكّرني بمهمّتي في تلك المرة. وعندما صحوت بدأت أشعر بحضور الفتاة الصغيرة ثانية، مع أني لم أستطع أن أراها أو أتكلّم معها.

«إن تغيير البيت كان يعني تغيير العوالم أيضاً، ولم أعد أهتم بكلّ هذا. إلا أني سألتها عن مهمّتي فقال لي الصوت إنها المهمّة التي يشترك فيها جميع البشر - وهو ملء العالم بطاقة الحبّ الشاملة. وسألته عن الشيء الذي كان يقلقني حقاً في تلك اللحظة بالذات: السيارة المخدوشة وردّ فعل صاحب الورشة. وطلب مني الصوت أن لا أقلق، وأن أقول الحقيقة فقط وأنه سيتفهم ذلك.

«عملت في المرآب خمس سنوات أخرى. اتخذت أصدقاء، وأصبح لديّ صديقات، واكتشفت الجنس، وشاركت في مشاحنات في الشارع. باختصار، عشت فترة مراهقة طبيعية تماماً. انتابتني بضع نوبات، وفي البداية دُهش أصدقائي، لكني اختلقت قصة بأني أمتلك قوى أعلى مما أكسبني احترامهم. وأخذوا يطلبون مني المساعدة، ويستشيرونني عندما تنشأ لديهم مشاكل مع صديقاتهم أو مع أسرهم، لكني لم أطلب من الصوت أي نصيحة - فقد جعلتني

التجربة المؤلمة في رؤية الشجرة وهي تقتلع أدرك أنك عندما تساعد شخصاً فإنك لا تحصل لقاء ذلك إلا على الجحود.

«وإذا حاول أصدقائي معرفة المزيد كنت أقول لهم إني أنتمي إلى «جمعية سرية». فبعد عقود من القمع الديني في كازاخستان سرت الأفكار الروحانية والباطنية في آلماآتا. وصدرت كتب عن أناس يمتلكون ما يسمّى بالقوى العليا، وعن معلمين ومرشدين من الهند والصين، وكثرت دورات في التحسين الذاتي. حضرت بعضها، لكني أدركت أنه لا يوجد شيء يمكنني أن أتعلمه. وكان الشيء الوحيد الذي كنت أثق به حقاً هو الصوت، لكني كنت مشغولاً جداً بأن أوجِّه اهتمامي إلى ما كان يقوله.

«وذات يوم توقفت امرأة تقود سيارة بالدفع الذاتي في المرآب الذي كنت أعمل فيه وطلبت مني أن أملأ خزان سيارتها. وخاطبتني بلهجة روسية ثقيلة، فأجبتها باللغة الإنكليزية. بدا أنها شعرت بالارتياح وسألتني إن كنت أعرف مترجماً شفوياً يستطيع أن يرافقها إلى المناطق الداخلية من كازاخستان.

«ما أن قالت ذلك، حتى ملأ حضور الفتاة الصغيرة المكان بأكمله، وفهمت أن هذه المرأة هي التي كنت أنتظرها طوال حياتي. فهي خلاصي، وكان يجب ألا أضيّع هذه الفرصة. وقلت لها إذا كانت تريد يمكنني أن أكون مترجماً لها. قالت إن لديّ وظيفة، وبالإضافة إلى ذلك فهي تحتاج إلى شخص أكبر سناً، وأكثر خبرة ويتمتع بحرية في السفر. قلت لها إني أعرف كلّ درب من دروب البادية ومسالك الجبال، وكذبت بالقول إن عملي هذا مؤقت. ورجوتها أن تمنحني فرصة. وبتردّد وافقت على أن تلتقي بي لاحقاً في أكثر فنادق المدينة فخامة.

«التقينا في بهو الفندق. اختبرت معرفتي باللغة الإنكليزية، وسألتني مجموعة من الأسئلة عن جغرافية آسيا الوسطى، وكانت تريد أن تعرف من أنا وأين مسقط رأسي. كانت تشعر بالارتياب مني

ولم تخبرني عن عملها بالتحديد أو إلى أين كانت تريد أن تذهب. وحاولت أن أقوم بدوري على أفضل وجه لكنها لم تقتنع.

«وقد فوجئت عندما أدركت، لا لسبب واضح، بأني وقعت في حبّ هذه المرأة التي لم أعرفها إلا منذ ساعات قليلة. وتمكنت من السيطرة على اندفاعي ولهفتي، ومرة أخرى وضعت ثقتي في الصوت. طلبت المساعدة من الفتاة الخفية كي تنوّر دربي. ووعدتها بأني إذا حصلت على هذا العمل فإني سأنفّذ المهمّة التي كلفتني بها، فقد أخبرتني فيما مضى بأن امرأة ستأتي ذات يوم وتأخذني بعيداً من هنا، وكانت هناك معي عندما توقّفت المرأة لكي تملأ خزانها، كنت أريد رداً إيجابياً.

«بعد الأسئلة المكثفة التي سألتني إياها إستر، أحسست بأني بدأت أحظى بثقتها، وحذّرتني بأن ما تريد أن تفعله ليس قانونياً تماماً. وقالت إنها صحافية وتريد أن تكتب مقالاً عن القواعد الأمريكية التي تقام في بلد مجاور استعداداً للحرب التي كانت على وشك أن تندلع. كانوا قد رفضوا منحها تأشيرة دخول، لذلك كان يجب أن نسافر مشياً على الأقدام، أن نجتاز الحدود عند النقاط التي لم يكن يتواجد فيها حرّاس. وأعطاها الأشخاص الذين كانوا على صلة بها خريطة، وأروها أماكن العبور الآمنة، لكنها قالت إنها لن تكشف شيئاً من هذا حتى نخرج من آلماآتا. وإذا أردت أن أذهب معها فيجب أن أكون في الفندق بعد يومين عند الساعة الحادية عشرة صباحاً. ووعدت بأن تدفع لي أجراً لأسبوع واحد فقط، ولم تكن تعرف أنه كان لديّ عمل دائم، أكسب فيه مبلغاً يجعلني أساعد أمّي وجدي وجدتي، وأن رئيسي كان يثق بي مع أنه رأى عدة نوبات من التشنّج - التي سماها «نوبات الصرع» - التي كانت تتزامن دائماً مع اتصالي بالعالم المجهول.

«وقبل أن تودعني قالت لي المرأة إن اسمها إستر، وحذّرتني من أني إذا ذهبت إلى الشرطة لأبلغ عنها فإنهم سيلقون القبض عليها

ويبعدونها عن البلد. وقالت إنه توجد أيضاً لحظات في الحياة نحتاج فيها لأن نثق بالحدس ثقة عمياء، وهذا ما تفعله الآن. وطمأنتها. وشعرت بالرغبة في قول شيء عن الصوت والحضور، لكني أحجمت عن ذلك. ذهبت إلى البيت وكلمت أمّي، وقلت لها إني وجدت عملاً جديداً كمترجم، براتب أفضل لكنه سيجعلني أسافر لبعض الوقت. لم تمانع. كان كلّ شيء حولي يسير كما لو كان مخطّطاً له منذ فترة طويلة، وأننا كنّا جميعنا ننتظر اللحظة المناسبة فقط.

«لم أنم جيداً في تلك الليلة، وفي اليوم التالي وصلت في وقت أبكر من المعتاد إلى المرآب. قلت لرئيسي إني آسف فقد وجدت عملاً جديداً. قال إنهم سيكتشفون مرضي، إن آجلاً أم عاجلاً، وإن التخلي عن وظيفة ثابتة إلى شيء لم أكن متأكداً منه كثيراً مجازفة كبيرة، لكنه، كما حدث مع أمّي، لم يثر جلبة لأني سأترك العمل، كما لو كان الصوت قد أثّر على عقول جميع الأشخاص الذين حدثتهم في ذلك اليوم، وسهّلوا لي الأمر، وساعدوني في اتخاذ الخطوة الأولى.

«عندما التقينا أنا وإستر في الفندق قلت لها: إذا ألقي علينا القبض فستبعدين أنت فقط، أما أنا فسيزج بي في السجن، ربما لسنوات عديدة. وبما أني كنت أجازف فيجب أن تضع كلّ ثقتها فيّ. بدا أنها فهمت قصدي. سرنا مدة يومين. وكانت مجموعة من الرجال بانتظارها على الجانب الآخر من الحدود. ذهبت معهم وعادت بعد فترة وجيزة محبطة وغاضبة. فقد كانت الحرب على وشك أن تبدأ، وكانت جميع الطرق محروسة جيداً، وكان من المستحيل الذهاب أبعد من ذلك دون أن يلقى القبض عليها كجاسوسة.

«بدأنا رحلة العودة. وبدت إستر، الواثقة من نفسها عادة، حزينة ومضطربة فجأة. ولكي أخفف عليها الأمر رحت أقرأ لها بعض الأشعار التي كتبها الشاعر الذي كان يعيش بالقرب من قريتي.

وكان يخيّل لي في الوقت نفسه أن هذه التجربة ستنتهي بعد ثمانية وأربعين ساعة. لكني كنت أفضّل أن أثق بالصوت. كان يجب أن أفعل ما بوسعي لأمنع إستر من أن تغادر فجأة كما جاءت. ربما كان عليّ أن أريها أنني كنت بانتظارها طوال ذلك الوقت، وبأنها مهمة بالنسبة لي.

«في تلك الليلة، وبعد أن طوينا أكياس النوم قرب بعض الصخور، مددت يدي ولمست يدها. سحبتها بلطف، وقالت إنها متزوّجة. أدركت أني ارتكبت حماقة. وبما أنه لم يكن هناك ما أخسره الآن، حدثتها عن الرؤى التي كانت تأتيني عندما كنت طفلاً، وعن مهمّتي لنشر الحبّ في العالم، وعن تشخيص الطبيب لي بأني مصاب بالصرع.

«ولدهشتي فهمت تماماً ما كنت أتحدّث عنه. حدثتني قليلاً عن حياتها. وقالت إنها تحبّ زوجها وإنه يحبّها، لكن لا بد أن شيئاً ما قد فُقد مع مرور الزمن، لذلك رأت أن تبتعد عنه حالياً بدلاً من أن ترى زواجها ينهار ببطء. وقالت مع أنها تملك كلّ شيء في الحياة، فهي حزينة. مع أنه كان بوسعها أن تمضي بسهولة بقية حياتها متظاهرة بأن هذا الحزن غير موجود، وكانت تخشى أن تصاب بالاكتئاب الذي لا تبرأ منه أبداً.

«ولهذا السبب قرّرت أن تتخلى عن كلّ شيء، وتذهب بحثاً عن المغامرة، وبحثاً عن الأشياء التي لم تكن تترك لها الوقت الكافي للتفكير بالحبّ الذي كان يُحتضر. لكنها كلما أمعنت في ذلك ازدادت تشوّشاً واضطراباً، وأصبحت تشعر بالوحدة أكثر. وبدأت تشعر أنها فقدت طريقها تماماً، وبدا لها أن التجربة التي مررنا بها تقول لها إنها تسير على المسار الخاطئ، وإنها يجب أن تعود إلى حياتها اليومية العادية.

«اقترحت أن نحاول أن نطرق درباً لا تشتد فيه الحراسة، وقلت إني أعرف مهربين في آلماآتا يمكنهم مساعدتنا، لكن بدا أنها لا توجد لديها القدرة، ولا الإرادة في الاستمرار.

«في تلك اللحظة طلب مني الصوت أن أبارك إستر وأن أكرسها في الأرض. ودون أن أعرف ماذا أفعل، نهضت، وفتحت حقيبة ظهري، وغمست أصابعي في قنينة الزيت الصغيرة التي أخذناها معنا للطهي، ووضعت يدي على رأسها ورحت أدعو لها بالنجاح بصمت، وطلبت في النهاية أن تواصل بحثها لأن ذلك كان مهماً لكلينا. كان الصوت يخبرني بما أقوله ـ وكنت أردد الكلمات لها بصوت مسموع ـ أنه إذا تغيّر شخص واحد فقط، فسيتغيّر الجنس البشري كله. وطوقتني بذراعيها، وأحسست بأن الأرض تباركها، وبقينا هكذا ساعات عديدة.

«ثم سألتها إن كانت تصدق ما قلته لها عن الصوت فقالت إنها تصدق ولا تصدق. فهي تؤمن بوجود قوّة نملكها جميعنا لكننا لا نستخدمها على الإطلاق، وأنه من الواضح أن أصبح على تماس مع تلك القوّة عندما تنتابني نوبات الصرع تلك، لكننا يمكن أن نكتشف ذلك معاً. فقد كانت تفكّر في إجراء لقاء صحفي مع بدوي يعيش في شمال آلماآتا، الذي يقول الجميع إنه يمتلك قوى سحرية. وإنها ترحب بمرافقتي لها. وعندما ذكرت لي اسم الرجل أدركت أني أعرف حفيده، وأن هذا قد يسهّل الأمور كثيراً عليها.

«قدنا السيارة عبر آلماآتا، ولم نكن نتوقّف إلا للتزود بالوقود وشراء شيء من الطعام، ثم كنا نتابع طريقنا باتجاه قرية صغيرة جداً قرب بحيرة اصطناعية كان قد أقامها النظام السوفيتي. عرفت أين يقيم البدوي، لكني رغم أني أخبرت أحد مساعديه بأني أعرف حفيد الرجل، كان علينا أن ننتظر ساعات عديدة، نظراً لوجود عدد كبير من الناس ممن يرغبون في التماس نصيحة من هذا الرجل الذي يعدّونه قديساً.

«وأخيراً قادونا إليه. وبما أني كنت مترجماً في ذلك اللقاء وقمت بقراءة وإعادة قراءة مقالة إستر عندما نشرته، تعلّمت عدّة أشياء كنت أحتاج إلى معرفتها.

«سألته إستر عن السبب الذي يجعل الناس حزينين.

«قال الشيخ: هذا أمر بسيط، فهم سجناء تاريخهم الشخصي. إذ يؤمن الجميع بأن هدف الحياة الرئيسي يكمن في أن يتبعوا خطة. لكنهم لا يسألون أبداً إن كانوا هم الذين وضعوا الخطة، أم أن أحداً هو الذي وضعها لهم. وتتراكم لديهم التجارب، والذكريات، والأشياء، وأفكار الآخرين، وهي تفوق قدرتهم على تحملها. ولذلك فهم ينسون أحلامهم».

«قالت له إستر إن الكثيرين يقولون لها إنك محظوظة، إنك تعرفين ما تريدينه من الحياة، بينما أنا لا أعرف حتى ما أريد أن أفعله.

«بالطبع يعرفون أجاب البدوي، كم من الأشخاص الذين تعرفينهم يقولون: لم أفعل ما أريد أن أفعله قط، لكن هكذا هي الحياة. فإذا قالوا إنهم لم يفعلوا ما كانوا يريدونه فلا بد أنهم كانوا يعرفون ما كانوا يريدونه في وقت ما. أما بالنسبة للحياة فهي مجرد قصّة يحدثنا فيها آخرون عن العالم، وعن الطريقة التي يجب أن نتصرّف فيها في العالم.

«بل والأسوأ من ذلك، أولئك الناس الذين يقولون: أنا سعيد لأني أضحّي بحياتي من أجل الذين أحبهم».

«وهل تظنين أن الناس الذين يحبّوننا يريدون أن يرونا نعاني من أجلهم؟ هل تظنين أن الحبّ مصدر للمعاناة؟».

«لكي أكون صادقة، نعم».

«حسناً، لا ينبغي أن يكون الأمر كذلك».

«إذا نسيت القصة التي حكاها لي الآخرون سأنسى أشياء كثيرة في غاية الأهمية علّمتني إياها الحياة. فما فائدة السعي لتعلّم الكثير؟ ما فائدة السعي لكسب الخبرة والتجربة كي أتمكن من التعامل مع مهنتي، ومع زوجي، ومع مختلف أزماتي المختلفة؟».

«إن المعرفة المتراكمة مفيدة عندما يتعلق الأمر بالطهي، أو

بالعيش ضمن حدود إمكانياتك، أو البقاء دافئة في الشتاء، أو احترام بعض الحدود، أو معرفة إلى أين تتجه حافلة أو قطار معين. هل تظنين أن الذين كنت تحبينهم في الماضي علموك أن تحبي بشكل أفضل؟».

«إنهم علّموني أن أعرف ما أريد».

«لم أسأل ذلك. هل علمّك من كنت تحبينهم في السابق أن تحبي زوجك أكثر؟».

«لا، بالعكس. لكي أسلّم نفسي له، كان يجب أن أنسى كلّ الندوب التي خلّفها الرجال الآخرون. هل هذا ما تقصده؟».

«لكي تتمكّن طاقة الحبّ الحقيقية من أن تتغلغل في روحك يجب أن تكون روحك كما لو كنت قد ولدت الآن. لماذا يشعر الناس بالحزن؟ لأنهم يريدون أن يسجنوا تلك الطاقة، وهو أمر مستحيل. إن نسيان تاريخك الشخصي يعني أن تتركي تلك القناة خالية، أن تسمحي لتلك الطاقة أن تظهر كلّ يوم بالطريقة التي تختارها، وأن تدعيها توجّهك».

«هذا كله في غاية الرومانسية، لكنه صعب جداً أيضاً، لأن أشياء كثيرة تعترض تلك الطاقة مثل: الالتزامات، الأطفال، وضعك الاجتماعي...».

«...، وبعد فترة، اليأس، والخوف، والوحدة، ومحاولاتك في السيطرة على الأشياء التي لا يمكن التحكم فيها. وحسب تقاليد البادية - التي تعرف بالتينغري - فإنه لكي يعيش المرء حياته كاملة يجب أن يكون في حلّ وترحال دائم؛ عندها فقط يمكن أن يكون كلّ يوم مختلف عن اليوم الآخر. عندما يمرّ البدوي في المدن فهو يقول: يا لهم من مساكين هؤلاء الناس لأنهم يعيشون هنا، فكلّ شيء هو ذاته دائماً. وربما كان الناس في المدن ينظرون إلى البدو ويقولون: يا لهم من مساكين، لا يوجد عندهم مكان يعيشون فيه. فليس للبدو

ماض، بل الحاضر فقط، ولهذا السبب فهم سعداء دائماً، حتى أوقفهم الحكّام الشيوعيون عن الترحال وأرغموهم على العيش في مزارع جماعية. ومنذ ذلك الحين، وشيئاً فشيئاً، بدؤوا يعتقدون بأن ما قاله لهم المجتمع صحيح. ولذلك فقدوا كلّ قوّتهم».

«لا أحد يستطيع في زمننا الحالي أن يمضي حياته كلها في الترحال».

«ليس جسدياً، لا، لكنهم يستطيعون ذلك على الصعيد الروحي. أن تبتعد أكثر وأكثر، وأن تنأى بنفسك عن تاريخك الشخصي، عما كنت قد أرغمت نفسك على أن تصبح».

«وكيف يمكن للمرء أن ينسى القصة التي قيلت له؟».

«بتكرارها بصوت عال وبتفصيل شديد. وفيما نروي قصتنا نودِّع ما كنا عليه، وكما سترين إذا حاولت فإننا نخلق فضاء لعالم مجهول جديد. إننا نكرّر القصة القديمة ذاتها مراراً وتكراراً حتى لا يعود لها أهمية بالنسبة لنا».

«هل هذا كلّ شيء؟».

«هناك شيء آخر واحد فقط: فبينما تزداد هذه الفضاءات اتساعاً، يجب ملؤها بسرعة، حتى لو كان ذلك مؤقّتاً، لكي لا يشعر المرء بالفراغ».

« كيف؟».

«بشتى القصص، بالتجارب التي لم نجرؤ على اختبارها، أو لم نرد أن نختبرها. هكذا نتغيّر. هكذا ينمو الحبّ. وعندما ينمو الحبّ ننمو معه».

«هل يعني ذلك أننا يمكن أن نفقد أشياء مهمة؟».

«أبداً. الأشياء المهمة دائما تبقى، وإن ما نخسره هو الأشياء التي كنا نظن أنها مهمة، لكنها في الواقع عديمة الفائدة، كالقوّة الزائفة التي نستخدمها للسيطرة على طاقة الحبّ».

«قال لها الشيخ إن الوقت المخصص لها قد انتهى، ويوجد أناس آخرون يجب أن يراهم. وبالرغم من توسلاتي لم يقبل، لكنه قال لإستر إنها إذا عادت لتراه ثانية فإنه سيعلّمها المزيد».

«لم تمكث إستر في آلماآتا إلا أسبوعاً آخر، لكنها وعدت بأن تعود. وخلال تلك الفترة حكيت لها قصتي مرات عديدة، وحكت لي قصتها، ورأينا أن الرجل العجوز كان على حق: فقد كان ثمة شيء يغادرنا، وأصبحنا أخف وزناً، مع أننا لم نستطع أن نقول حقاً بأننا كنا أكثر سعادة.

«وقدم لنا الشيخ نصيحة أخرى: املئي ذلك الفضاء بسرعة. وقبل أن تغادر سألتني إن كنت أريد أن أذهب إلى فرنسا كي نتمكن من مواصلة عملية النسيان هذه. فلم يكن لديها أحد يمكنها أن تشاركه كلّ هذا؛ وهي لا تستطيع أن تتكلم مع زوجها؛ وهي لا تثق بالناس الذين تعمل معهم؛ كانت بحاجة إلى شخص من الخارج، من مكان بعيد، لا توجد له، حتى ذلك الوقت، علاقة بتاريخها الشخصي.

«قلت إني أوّد أن أفعل ذلك وعندها فقط أذكر لها ما تنبّأ به الصوت. وقلت لها أيضاً إني لا أجيد اللغة الفرنسية، وإن خبرتي الوحيدة في العمل هي رعي الخراف والعمل في مرآب.

«في المطار طلبت مني أن آخذ دورة مركّزة باللغة الفرنسية. سألتها لماذا كانت تريدني أن أذهب إلى فرنسا. كرّرت ما كانت قد قالته، واعترفت أنها كانت تخشى من الفضاء الذي بدأ ينفتح حولها، وهي تمحو تاريخها الشخصي؛ وقالت إنها تخشى أن يعود كلّ شيء بشكل أقوى من السابق، عندها لن تكون هناك طريقة تحرر فيها نفسها من ماضيها. وقالت لي إنها ستتدبر أمر تذكرة الطائرة والحصول على تأشيرة. وقبل أن تجتاز نقطة عبور جوازات السفر، نظرت إليّ، ابتسمت، وقالت رغم أنها لم تكن تعرف ذلك، فقد كانت

تنتظرني أيضاً. وكانت الأيام التي أمضيناها معاً أكثر الأيام سعادة التي عرفتها في السنوات الثلاث الأخيرة.

«بدأت العمل في الليل، كقبضاي في أحد أندية التعرّي، وأثناء النهار كنت أتعلّم الفرنسية. والغريب أن النوبات قلّت كثيراً، وتلاشى حضور الفتاة أيضاً. قلت لأمّي إن أحداً وجهّ لي دعوة للسفر إلى الخارج، فقالت يجب أن لا أكون ساذجاً، وأني لن أسمع شيئاً من المرأة مرة أخرى.

«بعد سنة عادت إستر إلى آلماآتا. وكانت الحرب المتوقّعة قد نشبت، وكان شخص آخر قد كتب مقالة عن القواعد الأمريكية السرية، لكن اللقاء الذي أجرته إستر مع الشيخ حقق نجاحاً كبيراً، وطُلب منها أن تكتب مقالاً طويلاً عن اختفاء البدو. وقالت «بالإضافة إلى ذلك، مضى وقت طويل لم أحكِ فيه قصتي لأحد وقد بدأت أشعر بالاكتئاب».

«ساعدتها على الاتصال بالقبائل التي كانت ماتزال ترتحل، وعرّفتها على تقاليد وعادات التينغري، وعلى العرافين المحليين. وأصبحت الآن أتحدث الفرنسية بطلاقة. وعند العشاء أعطتني عدة استمارات من القنصلية لملئها، وحصلت لي على تأشيرة، واشترت لي تذكرة، وجئت إلى باريس. ولاحظ كلانا أننا بينما كنا نفرغ رأسينا من القصص القديمة ينفتح فضاء جديد ما، ويعترينا شعور غامض بالبهجة، ويصبح شعورنا بالحدس أكثر حدة، نصبح أكثر شجاعة، ونقدم على مخاطر أكبر، ونفعل الأشياء التي قد تكون صحيحة، أو التي قد تكون خاطئة، لا يمكننا أن نكون متأكّدين، لكننا كنا نفعلها على أية حال. وتبدو الأيام أطول وأشد كثافة.

«عندما وصلت إلى باريس سألتها أين سأعمل، لكنها كانت قد وضعت خططاً للتو: فقد أقنعت صاحب إحدى الحانات أن يسمح لي بأن أظهر هناك مرة كل أسبوع، وقالت له إني متخصص في نوع غريب من فنون الأداء من كازاخستان التي تشجع الناس على التحدّث عن حياتهم وإفراغ ما يجيش في صدورهم.

«في البدء، كان من الصعب الحصول على جمهور ضئيل للمشاركة، لكن السكارى وجدوا متعة في ذلك وانتشر الخبر. وعلقت لافتة على واجهة الحانة كتب عليها بخط اليد «تعالوا واحكوا قصتكم القديمة واكتشفوا قصة جديدة»، وبدأ الناس، المتلهفون لسماع الأشياء الطريفة، يتوافدون.

«ذات ليلة اعتراني شيء غريب: فلم أكن أنا الذي كان على خشبة المسرح الصغيرة المرتجلة في إحدى زوايا الحانة، بل كان الحضور. وبدلاً من رواية قصص من بلدي، ثم اقتراح أن يحكي الناس حكاياتهم، كنت أقول ما يخبرني الصوت به فقط. بعد ذلك أخذ أحد الحاضرين يبكي ويتحدث عن زواجه بأدق التفاصيل إلى الغرباء الآخرين هناك.

«وحدث الشيء ذاته في الأسبوع التالي: كان الصوت يتحدث عني، يطلب من الناس أن يرووا قصصاً لا عن الحبّ، بل عن الافتقار إلى الحبّ، وكانت تنتشر في الهواء طاقة مختلفة تماماً بحيث أن الفرنسيين الرصينين عادة، بدؤوا يتحدثون عن حياتهم الشخصية جهاراً. وتمكنت من السيطرة على نوباتي كذلك على نحو أفضل؛ وعندما كنت أصعد خشبة المسرح أبدأ أرى الأضواء أو أشعر بالريح الدافئة تلفحني، كنت أدخل في غيبوبة على الفور، أفقد وعيي، ولم يكن أحد يلاحظ شيئاً. لم تكن تنتابني نوبات الصرع إلا عندما كنت أتعرض لإجهاد عصبي كبير.

«وانضمّ أناس آخرون إلى المجموعة. ثلاثة شبان في عمري، الذين لم يكن لديهم عمل سوى السفر في أنحاء العالم - بدو العالم الغربي - وموسيقيان من كازاخستان، كانا قد سمعا عن نجاح مواطنهم، وسألا إن كان بوسعهما أن يشاركا في العرض بما أنهما لم يتمكنا من العثور على عمل في مكان آخر. أدخلنا آلات الإيقاع مع الأداء. وأصبحت الحانة صغيرة جداً، ووجدنا غرفة في المطعم نؤدي فيها عرضنا حالياً؛ لكن المكان بدأ يصبح صغيراً أيضاً، لأنه

عندما يروي الناس قصصهم يشعرون بأنهم أكثر شجاعة، وعندما يرقصون، تتملكهم الطاقة ويبدؤون بالتغيير جذرياً؛ الحبّ ـ الذي يجب أن يكون مهدداً من الناحية النظرية من كلّ هذه التغييرات ـ يصبح أكثر قوّة، ويبلغون أصدقاءهم بلقاءاتنا وينصحونهم بحضورها.

«واصلت إستر السفر لتكتب مقالاتها، لكنها كانت تدأب على حضور الاجتماعات عندما تكون في باريس. وفي إحدى الليالي قالت لي إن عملنا في المطعم لا يكفي، فهو لا يصل إلا إلى أولئك الذين يملكون المال لارتياد المطعم. كنا بحاجة للعمل مع الشباب. سألتها أين يمكننا أن نجدهم؟ إنهم يتنقلون، يسافرون، ينبذون كلّ شيء، ويرتدون ثياباً كالشحاذين أو كالشخصيات في أفلام الخيال العلمي.

«قالت إنه لا يوجد للشحاذين تاريخ شخصي، لذلك لم لا نذهب إليهم ونرى ما يمكننا أن نتعلمه منهم. وهكذا التقيت بكم جميعكم.

«هذا كلّ شيء. ولا تسألوني أبداً من أنا أو ماذا أفعل، لأنكم لستم مهتمين بذلك. أما اليوم، ولأنه يوجد بيننا كاتب مشهور، فقد قرّرت أن أخبركم».

«لكنك تحدثت عن ماضيك»، قالت المرأة ذات القبعة والمعطف ذوي اللونين المتناقضين، «رغم أن البدوي الشيخ...».

«من هم البدو؟» سأل أحدهم.

«أناس مثلنا»، أجابت، وقد أصبحت فخورة بأنها تعرف معنى الكلمة. «الناس الأحرار لا يستطيعون أن يعيشوا إلا مع ما يمكنهم أن يحملوه».

صحّحت كلامها:

«هذا ليس صحيحاً تماماً. إنهم ليسوا فقراء».

«ماذا تعرف عن الفقر؟» قال الرجل الطويل العدواني، الذي أصبحت تجري في عروقه الآن كمية أكبر من الفودكا، وهو يتطلع مباشرة إلى وجهي. «هل تظن حقاً أن للفقر علاقة بامتلاك المال؟ هل تظن أننا تعساء بؤساء فقط لأننا نتجوّل ونستجدي المال من الكتّاب الأغنياء ومن أزواج يتملكهم الشعور بالذنب، من السيّاح الذين يقولون كم أصبحت باريس قذرة، أو من الشباب المثاليين الذين يعتقدون أنهم يستطيعون إنقاذ العالم؟ فأنت الفقير حين لا تتحكم بوقتك، لا تستطيع أن تفعل ما تريد، إنك مرغم على اتباع قواعد لم تضعها ولا تفهمها...».

قاطع ميخائيل الحديث ثانية وسأل المرأة:

«ماذا تريدين أن تعرفي في الحقيقة؟».

«كنت أريد أن أعرف لماذا تحكي لنا قصتك بينما قال الشيخ البدوي إنك يجب أن تنساه».

«إنها لم تعد قصتي: فحينما أتحدث عن الماضي الآن أشعر وكأني أتحدّث عن شيء لا علاقة له بي. وكلّ ما تبقى في الحاضر هو الصوت، الحضور، وأهمية تحقيق مهمتي. ولا آسف على الصعوبات التي كنت قد كابدتها؛ أظن أنها ساعدتني في أن أصبح الشخص الذي أنا عليه اليوم. أشعر كما يشعر محارب بعد سنوات من التدريب: إذ لا يتذكّر تفاصيل كلّ شيء تعلّمه، لكنه يعرف كيف يسدد ضربته في الوقت المناسب».

«ولماذا واظبت أنت والصحافية على زيارتنا؟».

«من أجل الغذاء. كما قال البدوي العجوز في البادية، فالعالم الذي نعرفه اليوم مجرّد قصة رواها لنا أحدهم، لكنها ليست القصة الحقيقية. وتشمل القصة الأخرى مواهب وقوى خاصة، والقدرة على تجاوز ما نعرفه. فقد عشت مع الحضور منذ أن كنت طفلاً، بل وحتى كنت قادراً على رؤيتها لفترة من الزمن، لكن إستر أظهرت لي

أني لست وحيداً. لقد قدّمتني إلى أناس آخرين ذوي مواهب خاصة، أناس يستطيعون أن يحنوا شوكات بقوة الإرادة المطلقة، أو يُجرون جراحة باستخدام مطاوي صدئة وبدون تخدير، إلى درجة أن المريض يستطيع أن ينهض بعد العملية ويغادر.

«ما أزال أتعلّم تطوير إمكانياتي المجهولة، لكني بحاجة إلى حلفاء، أناس مثلك لا يوجد لديهم تاريخ شخصي».

شعرت بالرغبة في أن أحكي قصّتي لهؤلاء الغرباء أيضاً، للبدء في عملية تحرير نفسي من الماضي، لكن الوقت تأخر، وكان عليّ أن أنهض مبكراً غداً لزيارة الطبيب لأنزع الياقة التجبيرية.

سألت ميخائيل إن كان يريد أن أوصله، لكنه قال لا، فهو يريد أن يتمشى قليلاً، لأنه أحسّ بغياب إستر بحدّة في تلك الليلة. غادرنا المجموعة وتوجّهنا إلى شارع يمكنني أن أجد فيه سيارة أجرة.

«أظن أن تلك المرأة كانت محقة»، قلت، «إذا حكيت قصتك فهذا يعني أنك ماتزال لست حراً».

«أنا حرّ، لكن كما أني متأكد من أنك ستفهم، هناك يكمن السرّ: هناك دائماً بعض القصص «المقاطعة»، وهي القصص التي تبقى الأقرب إلى السطح وما تزال تحتلّ الحاضر؛ عندما ننهي تلك القصة أو ذلك الفصل عندها يمكننا أن نشرع في الفصل أو القصة التالية».

تذكّرت أني قرأت شيئاً مماثلاً على الإنترنت نُسب إليّ مع أني لم أكتبه:

«لهذا السبب يجب أن ندع بعض الأمور تمر. أن نطلقها. يجب على الناس أن يفهموا أنه لا يوجد أحد يلعب بورق وضعت عليه علامات محددة، إذ إننا نربح أحياناً، ونخسر أحياناً أخرى. لا تتوقّع أن تستعيد شيئاً، لا تتوقّع أن يعترف أحد بجهودك، لا تتوقّع أن تُكشف عبقريتك أو يُفهم حبّك. أكمل الدائرة. لا من باب الافتخار،

أو العجز، أو الغطرسة، بل لأنه لن يدخل حياتك. أغلق الباب، غيّر المسجّل، نظّف البيت، أزل الغبار. توقّف عن كونك من كنت، وتصرّف كما أنت الآن».

لكن كان ينبغي أن أكتشف ما كان يقصده ميخائيل.

«وما هي القصص المُقاطعة؟».

«إن إستر غير موجودة هنا. فقد وصلت إلى نقطة لم يعد بإمكانها أن تتقدم أكثر في عملية التخلص من الحزن وأن تدع البهجة تغمرها. لماذا؟ لأن قصتها، مثل قصص ملايين البشر الآخرين، مفعمة بطاقة الحبّ. إنها لا تستطيع أن تدور لوحدها: فإما عليها أن تتوقّف عن الحبّ، أو أن تنتظر حتى يعود إليها حبيبها.

«في الزيجات الفاشلة، عندما يتوقف أحد الشريكين عن السير يضطر الآخر لأن يفعل الشيء ذاته. وفيما ينتظر هو أو هي يظهر أحباء آخرون، أو يشارك في أعمال خيرية، وهناك الأطفال الذين يجب رعايتهم، وهناك الساعات الطويلة التي يتعين قضاؤها في المكتب، وما إلى هنالك. ومن الأسهل التحدث بصراحة عن أشياء، الإصرار، الصراخ: لنتحرك، فإننا نموت من الملل والقلق والخوف».

«هل تقصد أن إستر لا تستطيع أن تستمر في تحرير ذاتها من الحزن بسببي؟».

«لا، ليس هذا ما أعنيه. لا أظن أنه يمكن لشخص أن يلوم الآخر، مهما كانت الظروف. كلّ ما أقصده هو أنه يجب أن تختار بين التوقف عن حبك أنت أو أن تجعلك تأتي إليها».

«وهذا ما تفعله».

«أعرف، لكن لو كان الأمر بيدي لذهبنا إليها عندما يسمح لنا الصوت بذلك».

«حقاً، يجب أن تكون هذه هي المرة الأخيرة التي ترى فيها الياقة التجبيرية. أرجو ذلك حقاً. لكن أرجو أن تتجنّب القيام بأيّ حركة مفاجئة. يجب أن تعتاد عضلاتك على العمل من تلقاء نفسها. بالمناسبة ماذا حدث للفتاة التي تنبأت بذلك؟».

«أيّ فتاة؟ أيّ تنبؤات؟».

«ألم تقل لي في المستشفى أن أحداً ادّعى بأنه سمع صوتاً تنبأ بحدوث شيء لك؟».

«أوه، لم يكن فتاة. وأنت قلت إنك ستبحث لي في موضوع الصرع».

«نعم، لقد اتصلت بأحد الاختصاصيين وسألته إن كان مطلعاً على أيّ من هذه الحالات. ففاجأني جوابه قليلاً، لكن دعني أذكّرك بأن للطبّ ألغازه وأسراره. هل تتذكر القصة التي حدثتك عنها، عن الصبي الذي خرج لشراء خمس تفاحات وعاد ومعه تفاحتان؟».

«نعم، وكيف يمكن أن يكون قد فقدها أو أعطاها لأحد، أو أنها كانت أغلى مما كان متوقعاً، إلى ما هنالك. لا تقلق، أعرف أنه لا توجد إجابات مطلقة. لكن قل لي أولاً هل كانت جان دارك تعاني من الصرع؟».

«من الغريب أن صديقي ذكرها أثناء حديثنا. فقد بدأت جان

دارك تسمع أصواتاً ولمّا تبلغ الثالثة عشرة من عمرها. ويبدو من كلامها أنها كانت ترى أضواء، وهو أحد أعراض نوبات الصرع. وحسب ما قال طبيب الأعصاب، الدكتور ليديا باين، فإن سبب ما كانت تتعرض له القديسة المتصوفة ـ المحاربة، هو ما ندعوه الآن الصرع الموسيقي، الذي يستثار فيه المرء لدى سماعه نوعاً معيّناً من الأصوات أو الموسيقى: وفي حالة جان كان يستثيرها صوت الأجراس. هل كنت هناك عندما انتابت الشاب تلك النوبة؟».

«نعم».

«هل كانت هناك موسيقى تعزف؟».

«لا أتذكر. لكن حتى لو كانت هناك موسيقى فقد كانت تغطي عليها أصوات صلصلة الشوك والسكاكين على المائدة وطنين الأحاديث».

«هل كان يبدو متوتراً؟».

«نعم، جداً».

«هذا شيء آخر يمكن أن يستثير النوبة. إن الصرع موجود منذ فترات أطول مما تظن. ففي بلاد الرافدين توجد أوصاف دقيقة للغاية عما كانوا يسمونه بمرض السقوط الذي تعقبه تشنّجات. وكان القدماء يعتقدون أن سببه الشياطين التي تغزو جسم الشخص؛ وفي فترة لاحقة، ربط أبقراط الإغريقي بين هذه التشنّجات وبين اختلال وظيفي في الدماغ. ومع ذلك مايزال المصابون بالصرع ضحايا التحامل والإجحاف».

«أنا متأكّد من هذا. فقد شعرت بالفزع عندما وقع ذلك».

«لقد ذكرت كلمة النبوءة، لذلك طلبت من صديقي أن يركّز أبحاثه على هذا المجال. واستناداً إليه فإن معظم العلماء يوافقون على أن المرض نفسه، رغم أن عدداً كبيراً من المشهورين يعانون من الصرع، لا يمنح الشخص قوى أكثر أو أقل. غير أن المصابين

بالصرع الأكثر شهرة أقنعوا الآخرين بأن ينظروا إلى نوباتهم على أنها تنطوي على هالة صوفية».

«أعطني مثالاً عن بعض المصابين بالصرع المشهورين».

«نابليون، الإسكندر الأكبر، دانتي... لم أضع قائمة كاملة، منذ متى بدأت تهتم بنبوءة الشاب. بالمناسبة ما اسمه؟».

«إنك لا تعرفه، وبما أنه لديك دائماً مواعيد أخرى، ربما كان من الأفضل أن تنهي تفسيرك هذا».

«حسناً. يؤكد علماء الطب ممن درسوا الكتاب المقدس على أن الرسول بولص كان مصاباً بالصرع. ويستندون بذلك إلى أنه، عندما كان في طريقه إلى دمشق، رأى نوراً مبهراً بقربه مما جعله يسقط على الأرض، وأصيب بعمى مؤقت، ولم يعد قادراً على تناول الطعام أو الشراب لعدة أيام. وفي التعابير الطبية فهو يعرف بالصرع الصدغي».

«لا أظن أن الكنيسة توافق على هذا التفسير».

«لست متأكّداً إن كنت أوافق أنا نفسي على ذلك، لكن هذا ما تقوله الأدبيات الطبية. ويوجد لدى بعض المصابين بالصرع الآخرين جانب التدمير الذاتي، كما كان الحال مع فان غوخ. وقد وصف تشنّجاته بالعاصفة في الداخل. وفي سان ريمي، حيث كان مريضاً، شاهدته إحدى الممرضات وقد انتابته نوبة تشنجية».

«على الأقل استطاع أن يحوّل في لوحاته جانب التدمير الذاتي فيه ليعيد بناء العالم».

«يشكّ البعض بأن لويس كارول كتب أليس في بلاد العجائب ليصف تجاربه التي تعرض لها خلال إصابته بمرض الصرع. فالقصة في بداية الكتاب، عندما تسقط أليس في حفرة مظلمة، هي تجربة مألوفة لمعظم المصابين بالصرع. وخلال رحلتها في بلاد العجائب كانت أليس ترى في أغلب الأحيان أشياء طائرة وكانت

تشعر بنفسها بأنها خفيفة جداً: وصف دقيق آخر عن آثار نوبات الصرع».

«إذن يبدو أن للمصابين بالصرع ميولاً نحو الفن».

«لا أبداً، لأن الفنانين يميلون للشهرة، لكن الفنّ والصرع يرتبطان في عقول الناس. والأدب مليء بالأمثلة عن كتّاب يحملون أعراضاً مؤكّدة أو مشكوكاً فيها من الصرع: موليير، إدغار ألان بو، فلوبير... وقد انتابت دوستويفسكي أول نوبة صرع عندما كان في التاسعة من عمره، وقال إنها جلبت له لحظات شعر فيها بسلام تام مع العالم بالإضافة إلى لحظات من الكآبة الفظيعة. لا تأخذ كلّ هذا على محمل الجد كثيراً، ولا يذهب بك التفكير إلى أنه يمكن أن ينتابك الصرع بسبب الحادث. فلم أصادف ولا حالة من الصرع كان سببها الاصطدام بدراجة نارية».

«كما قلت فإني أعرف الشخص في واقع الأمر».

«هل الشاب صاحب التنبؤات موجود حقاً أم أنك اختلقت كلّ هذه القصة لأنك تظن أنه قد أغمي عليك عندما نزلت عن الرصيف؟»

«بالعكس، فأنا لا أحب أن أسمع عن الأمراض. فعندما أقرأ كتاباً طبياً تبدأ الأعراض تنتابني على الفور».

«دعني أقُلْ لك شيئاً، لكن أرجوك ألّا تسيء فهمي. أظن أن هذا الحادث قد أفادك كثيراً. فقد أصبحت تبدو أكثر هدوءاً، وأقل توجّساً. إذ إن الاقتراب من الموت يساعدنا دائماً في أن نعيش حياتنا على نحو أفضل؛ هذا ما قالته لي زوجتك عندما أعطتني قطعة القماش الملطّخة بالدم، التي أحملها معي دائماً، مع أني كطبيب أرى الموت قريباً كلّ يوم».

«هل قالت لك لماذا أعطتك قطعة القماش؟».

«لقد امتدحت عملي كثيراً. وقالت إني قادر على الجمع بين التقنية والحدس، النظام والحبّ. وقالت إن جندياً طلب منها قبل أن

يلفظ أنفاسه الأخيرة أن تأخذ قميصه المبلل بالدم، وتمزّقه إلى قطع، وتوزّع هذه القطع على الذين يحاولون أن يكشفوا العالم على حقيقته بصدق. يخيّل إليّ أنه توجد لديك أيضاً، مع كلّ كتبك، قطعة من هذا القميص».

«لا، لا يوجد».

«هل تعرف لماذا؟».

«أعرف، أو بالأحرى بدأت أعرف».

«وبما أني لست طبيبك فقط، بل صديقك أيضاً، هل يمكنني أن أسدي إليك بنصيحة؟ إذا قال لك هذا الشاب المصاب بالصرع أنه يستطيع أن يتنبأ بالمستقبل فهو لا يعرف شيئاً عن الطب».

زغرب، كرواتيا. الساعة السادسة والنصف صباحاً.

كنا أنا وماري جالسين بالقرب من نافورة مجمّدة. وبدا أن الربيع قد قرر أن يتأخر هذه السنة. وفي الحقيقة كنا نبدو وكأننا سننتقل من الشتاء إلى الصيف مباشرة. وفي وسط النافورة ينتصب عمود يحمل فوقه تمثالاً.

كنت قد أمضيت فترة بعد الظهر كلها وأنا أجري لقاءات، ولم يعد بمقدرتي أن أفُهْ بكلمة أخرى عن كتابي الجديد. وكان جميع الصحافيين قد طرحوا عليّ الأسئلة المعتادة ذاتها: هل قرأت زوجتي الكتاب (لا أعرف)؟ هل أظن أن النقّاد لم ينصفوني (ماذا؟)؟ بما أني أكشف الكثير عن حياتي الشخصية في كتابي «وقت للفتق ووقت للرتق»، فهل أصيب قرّائي بالدهشة (لا يمكن للكاتب إلا أن يكتب عن حياته الخاصة)؟ هل سيتم تحويل الكتاب إلى فيلم (أكرّر للمرة الألف أن الفيلم يدور في عقل القارئ، وأني لم أسمح ببيع حقوق أيّ من كتبي ليتحول إلى فيلم)؟ ما رأيي بالحبّ؟ لماذا اخترت أن أكتب عن الحبّ؟ كيف يمكن للمرء أن يكون سعيداً في الحبّ، الحبّ، الحبّ، الحبّ...

عندما انتهت المقابلات أقام الناشر حفل عشاء ـ جزء من الطقوس ـ كانت المائدة تعجّ بالوجهاء المحليّين الذين لم يتوقفوا عن مقاطعتي وأنا على وشك أن أضع الشوكة في فمي، ويسألون

الشيء ذاته عادة: «من أين يأتيك الإلهام؟» أحاول أن أتناول طعامي، لكني يجب أن أكون أيضاً لطيفاً، يجب أن أتجاذب معهم أطراف الحديث، أؤدي دوري كشخص مشهور، أروي لهم بعض القصص المثيرة، أعطيهم انطباعاً جيداً. وأعرف أن الناشر كان بطلاً حقيقياً، لأنه لا يستطيع أن يتأكد كيف ستكون عليه مبيعات الكتاب؛ وكان بإمكانه أن يستعيض عن ذلك ببيع الموز أو الصابون، الذي سيكون أكثر سهولة: فهو ليس مغروراً، وليست ذاته منتفخة، ولا يتذمر عندما لا يكون راضياً على حملة الدعاية، أو إذا لم تعرض إحدى المكتبات الكتب التي ينشرها.

وبعد العشاء بدأ الروتين المعتاد: فقد أرادوا أن أقوم بزيارة الأماكن الأثرية والتاريخية والحانات العصرية في مدينتهم. وكان هناك على الدوام دليل سياحي يعرف كلّ شيء ويحشو رأسي بالمعلومات، كان عليّ أن أبدو وكأني أصغي بانتباه شديد، وأسأله سؤالاً بين الحين والآخر، لكي أثبت له أني أبدي اهتماماً. فأنا أعرف تقريباً جميع المناطق الأثرية، والمتاحف في شتى المدن التي زرتها من أجل الترويج لكتابي - ولم أعد أستطيع أن أتذكر أياً منها. لكن ما أتذكّره هو الأشياء غير المتوقّعة، لقاءاتي مع القرّاء، الحانات، بل وربما شارع صدف وأن مشيت فيه، ثم انعطفت عند الناصية ورأيت شيئاً مثيراً للاهتمام.

سأكتب ذات يوم دليلاً سياحياً يضم خرائط وعناوين الفنادق فقط، وأترك باقي الصفحات فارغة. وبهذه الطريقة يتمكن الناس من وضع مخططات رحلاتهم، ليكتشفوا بأنفسهم المطاعم، والآثار وجميع الأشياء الرائعة التي تضمها كلّ مدينة، والتي لا تُذكر أبداً لأن «التاريخ الذي نتعلمه» لا يدرجها تحت عنوان «الأشياء التي يجب أن نراها».

كنت قد ذهبت إلى زغرب سابقاً. ولم أر هذه النافورة في أيّ من الأدلة السياحية المحلية، لكنها كانت أهم بكثير من أي شيء آخر

رأيته هنا - لأنها جميلة، لأني اكتشفتها بالمصادفة، ولأنها ترتبط بقصة في حياتي. فمنذ عدة سنوات، عندما كنت شاباً أتنقل في بلدان العالم بحثاً عن مغامرة، جلست في هذا المكان بالذات مع رسّام كرواتي كان قد رافقني معظم الرحلة. كنت في طريقي إلى تركيا، وكان هو في طريقه إلى بلده. ودّعنا بعضنا هنا، واحتسينا زجاجتين من النبيذ، وتحدّثنا عن كلّ شيء جرى عندما كنا معاً: عن الدين، والنساء، والموسيقى، وأسعار الفنادق، والمخدّرات. تحدّثنا عن كلّ شيء ماعدا الحبّ، رغم وجود أناس نحبهم؛ لكن لم تكن ثمة حاجة للحديث عنه.

وبعد أن عاد الرسّام إلى بيته التقيت بفتاة في ريعان الصبا، وأمضينا معاً ثلاثة أيام، وأحبّ أحدنا الآخر بقوة لأننا كنا نعرف أن ذلك لن يدوم فترة طويلة. وقد ساعدتني في فهم روح هؤلاء الناس، ولن أنساها ما حييت، كما أني لن أنسى ما حييت النافورة أو وداع رفيقي في السفر.

ولهذا السبب - بعد انتهاء تلك اللقاءات، والتواقيع، وحفل العشاء، والزيارات إلى المناطق الأثرية والأماكن التاريخية - ألححت على ناشري بأن يأتي بي إلى هذه النافورة. سألوني عن مكانها ولم أكن أعرف تماماً كما لم أكن أعرف أنه توجد في زغرب الكثير من النافورات. وبعد قرابة ساعة من البحث وصلنا إليها أخيراً. طلبت زجاجة نبيذ، ودّعنا الجميع، وجلسنا أنا وماري معاً صامتين، ذراع كلّ منا يطوق الآخر، نحتسي النبيذ وننتظر بزوغ الشمس.

«يبدو أنك تزداد سعادة أثناء النهار»، قالت وهي تسند رأسها على كتفي.

«هذا لأني أحاول أن أنسى من أنا. أو بالأحرى، لست بحاجة لأن أحمل ثقل تاريخي كله على كتفي».

أخبرتها بالحديث الذي دار بين ميخائيل والبدوي.

قالت: «إنه أشبه بشيء يجري مع الممثلين، فمع كلّ دور جديد يجب أن نتوقّف عن كوننا من نحن لكي نتقمص الشخصية. وينتهي بنا الأمر بأن نصبح مشوشين وعصبيين. هل في رأيك أنه من الجيد أن تهجر تاريخك الشخصي؟».

«ألم تقولي إني أصبحت أفضل حالاً؟».

«أقل أنانية، نعم. مع أني استمتعت بالبحث عن هذه النافورة، إلا أن هذا لا يتناقض مع ما قلته للتو، بما أن النافورة جزء من ماضيك».

«بالنسبة لي هي رمز. لكني لا أحمل هذه النافورة معي، لا أفكر فيها طوال الوقت، لا أصورها لأريها لأصدقائي، لا أشتاق إلى الرسّام أو إلى الشابّة التي أحببتها. من الجيد حقاً أن أعود إلى هنا مرة أخرى، لكني إن لم أعد إلى هذا المكان فلن يكون للتجربة الأولى تلك أي طعم».

«أفهم قصدك».

«أنا سعيد».

«وأنا حزينة لأن ذلك يجعلني أفكّر بأنك ستغادرني. فأنا أعرف ذلك منذ أن التقينا للمرة الأولى، لكن الأمر مايزال شاقاً عليّ لأني تعوّدت على أن أكون معك».

«هنا المشكلة، إننا نعتاد على الأشياء».

«إنه شيء إنساني أيضاً».

«لهذا السبب أصبحت المرأة التي تزوّجتها *الظاهر*. إلى أن وقع لي ذلك الحادث، فقد أقنعت نفسي بأني لن أكون سعيداً إلا معها، لا لأني أحببتها أكثر من أيّ شيء وأي شخص آخر في العالم، بل لأني أظن أنها الوحيدة التي يمكنها أن تفهمني، والتي تعرف ما أحبّ، أطواري الغريبة، طريقتي في رؤية العالم. إني ممتن لما فعلته من

أجلي، وكنت أظن أنها لا بد تشعر بالامتنان لما فعلته من أجلها. لقد اعتدت على رؤية العالم من خلال عينيها. هل تذكرين تلك القصة عن الإطفائيين اللذين خرجا من الحريق وقد اسودّ وجه أحدهما بالدخان؟».

انتصبت في جلستها. لاحظت أن عينيها مغرورقتين بالدموع.

«حسناً، هكذا كان العالم بالنسبة لي»، واصلت حديثي، «انعكاس لجمال إستر. هل هذا حبّ؟ أم تبعية؟».

«لا أعرف. أظن أن الحبّ والتبعية يسيران جنباً إلى جنب».

«ربما. لكن لنفترض أنني اخترت بدلاً من كتابة «وقت للفتق ووقت للرتق»، الذي هو حقاً مجرد رسالة إلى امرأة بعيدة، حبكة مختلفة، مثل زوج وزوجة يعيشان معاً منذ عشر سنوات، يمارسان الجنس كلّ يوم، ثم أخذا يمارسانه مرة في الأسبوع فقط، لكن هذا لا يهمّ حقاً لأنه يوجد بينهما شعور بالتضامن، بالدعم المتبادل، والعشرة. ويشعر الزوج بالحزن لأنه يتعين عليه أن يتناول عشاءه وحيداً لأنها تعمل حتى وقت متأخر. وهي تكره السفر، لكنها تقبله باعتباره جزءاً من عملها. يشعران بأن ثمة شيئاً ينقصهما، لكنهما ناضجان، ويعرفان أهمية أن يحافظا على استقرار علاقتهما حتى لو من أجل الأطفال. يكرّسان مزيداً من الوقت للعمل وللأطفال، ويبدأ تفكيرهما بزواجهما يتناقص ويخبو. ويبدو أن كلّ شيء يسير على ما يرام، ومن المؤكد أنه لا يوجد رجل أو امرأة أخرى في حياتهما.

ومع ذلك فهما يشعران بأن شيئاً لا يسير على ما يرام. ولا يستطيعان أن يحددا المشكلة بدقة. ومع مرور الأيام يزداد اعتماد أحدهما على الآخر، يتقدمان في السنّ، وتتلاشى بسرعة أيّ فرصة أخرى لبدء حياة جديدة. ويحاولان أن يشغلا نفسيهما بالقراءة أو بالتطريز، يشاهدان التلفاز، يزوران الأصدقاء، لكن هناك دائماً الحديث على العشاء أو بعد العشاء. ويصبح سريع الغضب، وتزداد

هي صمتاً. ويريان أن أحدهما قد بدأ يزداد ابتعاداً عن الآخر، لكنهما لا يستطيعان فهم السبب الحقيقي. ويتوصلان إلى النتيجة بأن الزواج هكذا، لكنهما لا يتحدثان عن ذلك لأصدقائهما. إنهما صورة عن الزوجين السعيدين اللذين يدعم أحدهما الآخر ويتشاركان في الاهتمامات ذاتها. وتتخذ لنفسها عشيقاً، ويتخذ لنفسه عشيقة، وبالطبع لا يكون الأمر جدياً. والمهم أن يتصرّفا وكأن شيئاً لم يحدث، لأن الوقت قد فات من أجل التغيير».

«أعرف هذه القصة، مع أني لم أجربّها بنفسي. وأظن أننا نُمضي حياتنا ونحن نتدرّب على تحمّل مثل هذه الأشياء».

خلعت معطفي وصعدت إلى حافة النافورة. سألتني ماذا أفعل.

«سأمشي إلى ذلك العمود في وسط النافورة».

«إنك مجنون. نحن في فصل الربيع، وطبقة الجليد رقيقة للغاية».

«أريد أن أسير إلى العمود».

أضع قدماً على السطح، وتتحرك طبقة الجليد كلها، لكنها لا تتصدّع. وبعين باتجاه الشمس التي بدأت تبزغ الآن عقدت نوعاً من الرهان مع الله: فإذا تمكنت من الوصول إلى العمود وعدت دون أن تتصدّع طبقة الجليد، فستكون تلك إشارة بأني أسير في الطريق الصحيح، وأن يده تريني الوجهة التي يجب أن أتوجه إليها.

«ستسقط في الماء».

«وماذا يعني ذلك؟ إن أسوأ ما يمكن أن يحدث هو أني سأبرد قليلاً، لكن الفندق ليس بعيداً ولن أعاني طويلاً».

وضعت قدمي الأخرى على طبقة الجليد. أصبحت الآن في البركة. يبدأ الجليد يتكسر عند الحافات، وتتدفق كمية قليلة من الماء على سطح الجليد، لكن الجليد لا يتكّسر. أتوجه نحو العمود الذي

يبعد حوالى أربعة أمتار ذهاباً وإياباً، وكان كلّ ما أجازف به هو أني سأنال حمّاماً مثلجاً. إلا أني يجب ألا أفكّر بما يمكن أن يحدث: فقد اتخذت الخطوة الأولى ويجب أن أستمرّ حتى النهاية.

وصلت إلى العمود. لمسته بيدي. بدأت أسمع كلّ شيء حولي يتصدع، لكني واصلت السير فوق الجليد. قالت لي غريزتي الأولى أن أعود مسرعاً، لكن ثمة شيئاً كان يقول لي إن أنا فعلت ذلك فستصبح خطواتي أكثر ثقلاً، أكثر ثباتاً، وسأسقط في الماء. لذلك يجب أن أعود أدراجي ببطء، بخطوات وئيدة.

بدأت الشمس تبزغ أمامي. أبهرتني أشعتها قليلاً. لم أكن أرى إلا جانب وجه ماري وأشكال البنايات والأشجار. ما تزال صفحة الجليد تتحرك، بدأت المياه تطفح على السطح، لكني كنت واثقاً ـ ثقة مطلقة ـ بأني سأصل إلى الحافة. كنت اليوم متوحداً في مشاعري مع اختياراتي. كنت أعرف حدود الماء المتجمّد؛ أعرف كيف أتعامل معه، كيف أطلب مساعدته كي لا أسقط. بدأت أدخل في نوع من الغيبوبة، حالة من النشوة؛ عدت طفلاً مرة أخرى، أفعل شيئاً خاطئاً، محرّماً، لكنه يمنحني متعة وسعادة كبيرتين. رائع! مواثيق مجنونة مع الله، على خطى «إذا تمكنت من عمل ذلك، فسيحدث كذا وكذا»، إشارات لا يستثيرها شيء يأتي من الخارج، لكن بالغريزة، بقدرتي على نسيان القواعد القديمة واستحداث حالات جديدة.

أشعر بالامتنان لأني التقيت بميخائيل، المصاب بالصرع الذي يخيّل إليه أنه يسمع أصواتاً. ذهبت لحضور اجتماعه في المطعم لأبحث عن زوجتي واكتشفت أني تحولت إلى انعكاس شاحب لنفسي. هل ماتزال إستر هامة بالنسبة لي؟ أعتقد ذلك، لأن حبّها هو الذي غيّر حياتي ذات مرّة وهو الذي يحوّلني الآن. لقد أصبح تاريخي قديماً، وبدأ يزداد حمله ثقلاً، وأصبح من الخطر عليّ أن أجازف وأسير على الجليد، وأعقد رهاناً مع الله، لأرغم إشارة أو علامة على الظهور. نسيت أنه على المرء أن يواصل سيره في الطريق إلى

سانتياغو، أن يتخلى عن أيِ أمتعة غير ضرورية، أن يحافظ فقط على ما يحتاجه ليقيم أوده كلّ يوم، وليدع طاقة الحبّ تتدفّق بحرية، من الخارج إلى الداخل، ومن الداخل إلى الخارج.

صوت تصدّع آخر، وظهر تصدع في شكل خطّ عبر سطح الماء، لكني كنت واثقاً من أني أستطيع الوصول إليه، لأني خفيف، خفيف كالريشة، بحيث أستطيع أن أسير فوق غيمة ولا أقع على الأرض. لا أحمل معي ثقل الشهرة، ثقل القصص التي رويتها، ثقل مخططات السفر التي يجب أن أتبعها. أصبحت شفافاً جداً إلى درجة أن أشعة الشمس يمكنها أن تخترق جسمي وتنير روحي. أرى أن مناطق مظلمة كثيرة في داخلي ما تزال موجودة لكني بالمثابرة والشجاعة وبالتدريج سأتمكن من التخلص منها.

أخطو خطوة أخرى، وأتذكّر المغلف على منضدتي في البيت. سأفتحه قريباً، وبدلاً من أن أمشي فوق الجليد سأنطلق في الدرب الذي سيقودني إلى إستر. سأفعل ذلك لا لأني أريدها معي، بل لأنها حرّة في أن تمكث حيث هي. لا لأني أحلم ليلاً ونهاراً بالظاهر؛ ذلك الهوس بالحبيب المدمّر الذي بدا أنه تلاشى. لا لأني اعتدت على ماضيّ كما كان وأتلهف للعودة إليه.

خطوة أخرى، مزيد من أصوات التصدّع، لكن الأمان وحافة النافورة قريبان.

سأفتح المغلف وأذهب وأعثر عليها إذ ـ كما يقول ميخائيل، المصاب بالصرع، العرّاف، المعلّم في المطعم الأرمني ـ يجب أن تصل هذه القصة إلى نهايتها. عندما قيل كلّ شيء وكرّر مرات لا حصر لها، عندما تحولت جميع الأماكن التي زرتها، والأشياء التي خبرتها، والخطوات التي اتخذتها بسببها إلى ذكريات بعيدة، لم يبق شيء سوى الحبّ النقي. لن أعود أشعر بأني أدين لها بشيء، لن أشعر بالحاجة إليها لأنها الوحيدة التي تستطيع أن تفهمني، لأني اعتدت عليها، لأنها تعرف عيوبي وحسناتي، لأنها تعرف أني أحبّ

أن أتناول شريحة خبز مشوية قبل النوم، وأن أشاهد الأخبار الدولية عندما أستيقظ، وأني يجب أن أتمشى كلّ صباح، أو أنها تعرف عن مجموعتي من الكُتب، عن الرماية، عن الساعات التي أمضيها أمام شاشة الكمبيوتر، الكتابة، كيف لا أنزعج والخادمة لا تكفّ عن القول إن الطعام جاهز.

سيختفي كلّ ذلك. ولن يبقى شيء سوى الحبّ الذي يحرّك السماوات، والنجوم، والناس، والأزهار، والحشرات، الحبّ الذي يرغمنا على السير فوق طبقة الجليد رغم مخاطر ذلك، الذي يملؤنا بالبهجة والخوف، ويضفي على كلّ شيء معنى.

لمست حافة النافورة، يد تمتد إليّ، أمسكها، وتساعدني ماري في الحفاظ على توازني وأنا أضع قدمي.

«أنا فخورة بك. لن أفعل شيئاً كهذا».

«منذ مدة ليست بعيدة لم أكن لأفعل هذا أنا أيضاً. يبدو أن الأمر عديم الجدوى، وغير ضروري، وطفولي جداً. لكني ولدت من جديد ويجب أن أُقدم على مخاطر جديدة».

«من الواضح أن نور الصباح مفيد لك. إنك تتكلم كرجل حكيم».

«الرجل الحكيم لا يفعل ما فعلته الآن».

كان عليّ أن أكتب مقالاً مهماً لمجلة من المجلات التي أدين لها كثيراً في بنك ردّ الجميل. تعجّ في رأسي مئات بل آلاف الأفكار، لكنني لا أعرف أياً منها يستحقّ جهدي، تركيزي، دمي.

ليست هذه هي المرة الأولى التي يحدث فيها هذا، لكنني أشعر وكأني قلت كلّ شيء ذي أهمية كان عليّ أن أقوله. أشعر كما لو أني فقدت ذاكرتي ونسيت من أنا.

اقتربت من النافذة ونظرت إلى الشارع. حاولت أن أقنع نفسي بأني أعطيت كلّ ما عندي من الناحية المهنية، ولم يعد لديّ شيء يمكنني أن أثبته بأن هناك ما يبرر أن أنسحب إلى بيت في الجبال، وأمضي بقية حياتي وأنا أقرأ، وأتمشى، وأتحدّث عن الطعام والطقس. وأكرر على نفسي أني أنجزت ما لم يكد أي كاتب آخر أن ينجزه - فقد تُرجمت كتبي إلى جميع اللغات المكتوبة في العالم تقريباً. فلماذا أشغل بالي لمجرّد مقالة لمجلة، مهما بلغت أهمية تلك المجلة؟ وبسبب بنك ردّ الجميل. لذلك يتعين عليّ حقاً أن أكتب شيئاً، لكن ماذا يوجد في جعبتي لأقوله إلى الناس؟ هل أخبرهم بأنهم يجب أن ينسوا كلّ القصص التي قيلت لهم وأن يقدموا على مزيد من المخاطر؟

سيقولون جميعهم: «أنا كائن مستقل، شكراً جزيلاً. سأفعل ما يحلو لي».

هل أخبرهم أنه يجب أن يتركوا طاقة الحبّ تتدفّق بحرية أكثر؟

عندها سيقولون: «إني أشعر بالحبّ. في الواقع أشعر بمزيد من الحبّ»، كما كان بالوسع أن يقيس المرء الحبّ كما نقيس المسافة بين مساريّ السكة الحديدية، وارتفاع البنايات، أو كمية الخميرة اللازمة لصنع رغيف من الخبز.

أعود إلى طاولتي. المغلف الذي تركه لي ميخائيل مفتوح الآن. الآن أصبحت أعرف مكان إستر، وما عليّ الآن إلا أن أعرف كيف أصل إلى مكانها. أهاتفه وأخبره بأني مشيت فوق الجليد. دُهش. سألته ماذا سيفعل هذه الليلة، فقال إنه سيخرج مع صديقته لوكريسيا. اقترحت أن أدعوهما إلى العشاء. لا، ليس الليلة، لكني إذا أحببت يمكنني أن أخرج معه ومع أصدقائه الأسبوع القادم.

قلت له إني سألقي محاضرة في الأسبوع القادم في الولايات المتحدة. فقال ليست هناك عجلة، ويمكننا أن ننتظر أسبوعين.

قال: «لا بد أنك سمعت صوتاً يطلب منك أن تمشي على الجليد».

«لا، لم أسمع أي صوت».

«إذن لماذا فعلت ذلك؟».

«لأني شعرت بأني يجب أن أفعل ذلك».

«هذه طريقة أخرى من طرائق سماع الصوت».

«عقدت رهاناً. إذا تمكنت من عبور الجليد فهذا يعني أني مستعد وأظن أني مستعد».

«إذن أعطاك الصوت الإشارة التي كنت تحتاجها».

«هل حدّثك الصوت شيئاً عنها؟».

«لا، ليس بالضرورة. عندما كنا على ضفاف السين وقلت إن الصوت سيخبرنا عندما يحين الوقت كنت أعرف أنه سيخبرك أيضاً».

«كما قلت لك، لم أسمع الصوت».

«هذا ما يخيّل إليك. هذا ما يظنه الجميع. ولكن بالحكم على مايخبرني به الحضور، فإن الجميع يسمعون أصواتاً على الدوام. وهي التي تساعدنا في معرفة أننا سنصبح أمام إشارة ما».

قررت أن لا أجادل. وكلّ ما كنت أحتاج إليه الآن هو بعض التفاصيل العملية: أين يمكنني أن أستأجر سيارة، كم ستطول الرحلة، كيف أجد البيت، لأن كل ما أملكه، ما عدا الخريطة، عبارة عن سلسلة من الدلائل المبهمة - اتبع شاطئ البحيرة، ابحث عن لافتة شركة، استدر يميناً، وما إلى ذلك. لعله يعرف شخصاً يستطيع أن يساعدني.

نحدّد موعد اللقاء التالي. طلب مني ميخائيل أن أرتدي ثياباً مناسبة - «فالقبيلة» ستقوم بجولة في باريس.

سألته عن هذه القبيلة. «الذين يعملون معي في المطعم»، يجيب دون أن يدخل في مزيد من التفاصيل. سألته إن كان يريد أن أحضر له معي شيئاً من الولايات المتحدة، فطلب أن أجلب له دواء معيناً لعلاج الحموضة في المعدة. أظن أنه توجد أشياء أكثر أهمية يمكنني أن أجلبها، لكني دوّنت طلبه.

والمقالة؟

أعود إلى الطاولة، أفكّر بما سأكتبه، أنظر ثانية إلى المغلف المفتوح، وأخلص إلى أني لم أفاجأ بما وجدته في داخله. فبعد بضع لقاءات مع ميخائيل وجدت ما كدت أتوقّعه.

تعيش إستر في البادية، في قرية صغيرة في آسيا الوسطى، وبدقة أكبر، في إحدى القرى في كازاخستان.

لم أعد في عجلة من أمري. أواصل مراجعة قصتي التي أحكيها لماري بتفصيل يغلب عليه الهوس؛ قرّرت هي أن تفعل الشيء ذاته، وأفاجأ ببعض الأشياء التي تقولها لي، لكن يبدو أن العملية تسير على ما يرام. لقد أضحت أكثر ثقة، وأقل قلقاً.

لا أعرف لماذا أريد أن أعثر على إستر، بعد أن أنار حبّي لها حياتي، علّمني أشياء جديدة، كافية حقاً. لكني أتذكّر ما قاله ميخائيل: «يجب أن تصل القصة إلى نهايتها»، وقرّرت أن أواصل. أعرف أني سأكتشف اللحظة التي بدأ فيها زواجنا يتصدّع، وكم خضنا في الماء البارد وكأنّ شيئاً لم يكن. أعرف أني سأكتشف هذا قبل أن أصل إلى تلك القرية لكي أغلق الدائرة أو أجعلها أكبر.

المقالة! هل أصبحت إستر *الظاهر* ثانية، ولهذا منعتني من التركيز على أي شيء آخر؟

لا، عندما يتعين عليّ أن أفعل شيئاً عاجلاً، شيئاً يتطلّب طاقة مبدعة، فهذه هي طريقتي في العمل: أدخل في حالة تشبه الهستيريا، أقرّر أن أترك المهمّة برمتها، وبعدها تخرج المقالة. حاولت أن أفعل الأشياء على نحو مختلف، أن أعدّ كلّ شيء بعناية، لكن خيالي لا يعمل إلا عندما يكون تحت ضغط شديد. يجب أن أحترم بنك ردّ الجميل، يجب أن أكتب ثلاث صفحات عن - احزر ماذا - المشاكل التي تعتري العلاقات بين الذكر والأنثى. أنا من بين كلّ الناس! لكن المحرّرين يعتقدون أن الرجل الذي كتب «وقت للفتق ووقت للرتق» لا بد أنه يعرف الروح الإنسانية جيداً.

أحاول أن أدخل إلى شبكة الإنترنت لكنها لا تعمل. لم تعد تعمل جيداً منذ أن قطعت الاتصال. دعوت عدة تقنيين، لكنهم عندما جاؤوا في نهاية الأمر لم يجدوا عيباً في جهاز الكمبيوتر. سألوني عن المشكلة، أمضوا نصف ساعة وهم يُجرون اختبارات، أعادوا تحميلها، وطمأنوني بأن المشكلة ليست فيّ بل في مزود الشبكة. أقنعت نفسي أن كلّ شيء يسير على ما يرام، وشعرت بأنه من السخافة أني طلبت مساعدتهم. وبعد ساعتين أو ثلاث ساعات تعطّل الكمبيوتر وانقطع الاتصال مرة أخرى. الآن، وبعد شهور من البلى الجسدي والنفسي، بدأت أقبل أن التقنية أقوى مني: فهي تعمل

عندما تريد، وعندما لا تريد أن تعمل، فمن الأفضل أن أجلس وأقرأ صحيفة أو أخرج لأتمشى، وأنتظر حتى يتحسن مزاج الكابلات وخطوط الهاتف، ويقرّر الكمبيوتر أن يعود للعمل. واكتشفت أني لم أكن سيد كمبيوتري: فله حياته الخاصة به.

حاولت مرات عديدة، لكني أعرف من التجربة أنه من الأفضل أن أستسلم. فقد أوصد الإنترنت، أكبر مكتبة في العالم، أبوابه أمامي الآن. وماذا عن قراءة بضع مجلات بحثاً عن الإلهام؟ أخذت مجلة وصلت في البريد للتو، وقرأت لقاء صحفياً غريباً مع امرأة نشرت مؤخراً كتاباً عن ـ احزر ماذا؟ ـ الحبّ. يبدو أن الموضوع يلاحقني في كل مكان.

يسأل الصحافي إن كانت الوسيلة الوحيدة التي يمكن فيها للإنسان أن يجد السعادة هي عندما يعثر المرء على حبيبته أو حبيبتها. تقول المرأة لا.

إن الفكرة القائلة بأن الحبّ يفضي إلى السعادة ما هو إلا اختراع حديث، يعود إلى أواخر القرن السابع عشر. فمنذ ذلك الحين بدأ الناس يُعلّمون بأن الحبّ يجب أن يدوم إلى الأبد، وأن الزواج هو أفضل مكان يُمارَس فيه ذلك الحبّ. وفي الماضي كانت درجة التفاؤل بديمومة العاطفة أقل. فقصة روميو وجوليت ليست قصة سعيدة، بل مأساة. وفي العقود القليلة الماضية ازدادت التوقّعات بأن الزواج هو الوسيلة لتحقيق الإنجاز الشخصي إلى حدّ كبير، كما ازداد الإحباط والشعور بالاستياء.

من الشجاعة قول ذلك، لكن هذا لا يصلح لمقالتي الآن، وخاصة لأني لا أوافقها على رأيها على الإطلاق. أبحث في رفوف مكتبتي عن كتاب لاعلاقة له بالعلاقات بين الذكر والأنثى: *الممارسات السحرية*

في *شمال المكسيك*. بما أن هاجسي لن يساعدني في كتابة مقالتي، فإني بحاجة لأن أنعش عقلي كي أرتاح.

أبدأ أتصفح الكتاب، وفجأة أقرأ الشيء الذي يفاجئني:

الدليل المرشد أو نقطة الاستسلام: يوجد في حياتنا دائماً حدث يكون مسؤولاً عن إخفاقنا في إحراز تقدم: صدمة، هزيمة كبيرة على نحو خاص، شعور بالإحباط في الحبّ، حتى لا نعود نفهم ماهيته جيداً، وقد يجعلنا جبناء، ويثبطنا عن متابعة أمورنا. وكجزء من عملية تزايد قواه الخفية، يجب على العرّاف أن يحرّر نفسه أولاً من نقطة الاستسلام، وللقيام بذلك يجب أن يستعرض حياته كلها، ويكتشف أين حدثت.

الدليل المرشد. إنه يلائم تجربتي في تعلّم الرماية ـ الرياضة الوحيدة التي كنت أستمتع فيها ـ لأن معلّم الرماية دأب على القول بأن الرمية لا يمكن أن تتكرر أبداً، ولا فائدة من محاولة التعلّم من الرميات الجيدة أو السيئة. بل ما يهم هو تكرارها مئات المرات بل وآلاف المرات، حتى نحرّر أنفسنا من فكرة إصابة الهدف وحتى نصبح نحن أنفسنا السهم، القوس، الهدف. في تلك اللحظة فإن طاقة «الشيء» (معلّمي في الكيودو ـ شكل الرماية اليابانية التي مارستها ـ لم يستخدم أبداً كلمة «الله») توجّه حركاتنا وبعدها نبدأ نطلق السهم، ليس عندما نريد، بل عندما يعتقد «الشيء» بأن اللحظة قد حانت.

الدليل المرشد. يعود جزء آخر من تاريخي الشخصي يطفو على السطح. كم أتمنى لو كانت ماري هنا! إني بحاجة لأن أتحدّث عن نفسي، عن طفولتي، أن أحدثها كيف أني، عندما كنت صغيراً، كنت أتشاجر دائماً وأضرب الأطفال الآخرين لأني كنت الأكبر سناً في

الصف. وذات يوم ضربني ابن عمي ضرباً مبرحاً، واقتنعت منذ ذلك الحين بأني لن أربح معركة أخرى، وتحاشيت منذ ذلك الوقت أيّ مواجهة جسدية، رغم أن هذا كان يعني في أغلب الأحيان أن أتصرف كجبان، وأن أُذَّل أمام الصديقات والأصدقاء على حدّ سواء.

الدليل المرشد. لمدة سنتين حاولت أن أتعلم العزف على الغيتار. في البداية أحرزت تقدّماً سريعاً، لكني وصلت بعد ذلك إلى نقطة لم أعد أحرز فيها مزيداً من التقدم، لأني اكتشفت أن الآخرين كانوا يتعلّمون بأسرع مما كنت أتعلّم، مما جعلني أشعر بالصغار؛ ولكي لا أشعر بالخجل قرّرت أني لم أعد أهتم بالتعلّم. وحدث الشيء ذاته في لعبة السنوكر، وكرة القدم، وسباق الدراجات. لقد تعلّمت إلى درجة أصبحت أفعل كلّ شيء بشكل معقول، لكن كانت هناك دائماً نقطة أشعر بأني توقفت عندها.

لماذا؟

لأنه حسب القصة التي رويت لنا تأتي دائماً لحظة في حياتنا نصل فيها إلى «الحدّ الذي لا يمكن تجاوزه». وأتذكّر غالباً كفاحي لكي أنكر قدري ككاتب، وكيف أن إستر كانت ترفض على الدوام السماح للدليل المرشد بأن يضع قواعد لحلمي. وهذه الفقرة تتواءم مع فكرة نسيان تاريخه الشخصي، وتركه يعيش وفق الغريزة التي تنبثق من مختلف الصعوبات والمآسي التي يكابدها المرء. وهذا ما فعله العرافون المكسيكيون وما يعظ به البدو في بوادي آسيا الوسطى.

الدليل المرشد. يوجد في حياتنا دائماً حدث مسؤول عن إخفاقنا في التقدّم. إنه يصف تماماً ما يحدث في الزيجات بشكل عام وما حدث في علاقتي مع إستر على نحو خاص.

أصبح بإمكاني الآن أن أكتب مقالتي لتلك المجلة. جلست إلى الكمبيوتر، وكتبت في نصف ساعة مسوّدة أولى، وكنت سعيداً

بالنتيجة. كتبت قصة في شكل حوار، كما لو أنها قصة، لكنها كانت في الواقع محادثة جرت معي في غرفة في أحد فنادق أمستردام، بعد أن أمضيت يوماً في الترويج لكتبي بعد العشاء الذي يقيمه الناشرون والجولة السياحية وما إلى ذلك.

حذفت من مقالتي أسماء الأشخاص والحالة التي يجدون فيها أنفسهم. ففي الحياة الحقيقية كانت إستر ترتدي رداء نومها وتنظر إلى القناة من نافذتنا. لم تكن قد أصبحت مراسلة حربية بعد، وكانت عيناها ماتزالان تشعان بالبهجة، وكانت تحبّ عملها، وتسافر معي عندما كانت تستطيع، وعندما كانت الحياة ماتزال مغامرة كبرى. أستلقي على السرير صامتاً؛ عقلي سارح بعيداً، قلق على مواعيد اليوم التالي.

«في الأسبوع الماضي، أجريت مقابلة مع رجل خبير في تحقيقات الشرطة، قال لي إنهم يحصلون على معظم المعلومات من المتهمين باتباعهم طريقة يسمونها «حار ـ بارد». إذ يبدؤون دائماً بشرطي شديد العدوانية، حيث يقول إنه لن يتقيد بالقواعد، ويصرخ ويضرب على الطاولة. وعندما يُدخل الرعب في نفس السجين، ويكاد يتبلد عقله، يدخل الشرطي الطيب ويطلب من زميله أن يكّف عن ذلك، ويقدم للسجين سيجارة، ويتظاهر بأنه صديقه، ويحصل على المعلومات التي يريدها».

«نعم، لقد سمعت عن ذلك».

«ثم حدّثني عن شيء آخر أثار مخاوفي حقاً. ففي العام 1971 قرر فريق من الباحثين في جامعة ستانفورد في كاليفورنيا محاكاة سجن لدراسة علم نفس التحقيقات. واختاروا أربعاً وعشرين طالباً متطوعاً، وقسّموهم إلى فئتين: «حرّاس» و «مجرمين».

«وبعد أسبوع واحد فقط أوقفوا التجربة. فقد تحوّل «الحرّاس» وهم عبارة عن فتيات وفتيان يتمتعون بقيم عادية جيدة، وينتمون إلى عائلات جيدة، إلى وحوش حقيقيين. وأصبح استخدام التعذيب شيئاً عادياً بالنسبة لهم واعتبروا الاعتداء الجنسي على السجناء أمراً طبيعياً. وعانى الطلاب الذين شاركوا في المشروع، «الحرّاس» و «المجرمون» من صدمة حقيقية، وأصبحوا بحاجة إلى مساعدة طبية طويلة الأجل، ولم تكرر التجربة بعد ذلك».

«شيء يثير الاهتمام».

«ماذا تقصدين بشيء يثير للاهتمام؟ إني أتحدّث عن شيء ذي أهمية حقيقية: قدرة الإنسان على فعل الشر عندما تتاح له الفرصة. إني أتحدّث عن عملي، عن الأشياء التي تعلّمتها».

«هذا ما وجدته مثيراً للاهتمام. لماذا غضبت إلى هذه الدرجة؟».

«غضبت؟ كيف يمكنني أن لا أغضب من شخص لا يولي أدنى اهتمام لما أقول؟ كيف يمكنني أن لا أغضب من شخص يستفزني، وهو مستلقٍ هناك، ولا يفعل شيئاً سوى أنه يحدق في الفضاء؟».

«كم شربت هذه الليلة؟».

«إنك لا تعرف حتى الجواب على هذا، أليس كذلك؟ كنت بجانبك طوال المساء، ولا تعرف إن كنت قد شربت أم لا! إذ إنك لا تحدثني إلا عندما تريد أن أؤكّد لك شيئاً كنت قد قلته، أو عندما تريدني أن أروي قصة أتملقك فيها!».

«انظري لقد عملت طوال النهار وأنا منهك. لماذا لا تأوين إلى الفراش وتنامين؟ يمكننا أن نواصل حديثنا في الصباح».

«لأني أفعل هذا منذ أسابيع وشهور، وفي الواقع خلال السنتين الماضيتين! أحاول أن أحادثك، لكنك متعب دائماً، لذلك نقول، حسناً، سنأوي إلى الفراش وننام ونتحدث غداً. لكن في الغد هناك دائماً أشياء أخرى، يوم عمل آخر وعشاء مع الناشرين، إذن نقول، لنأوي إلى الفراش وننام ونتكلم غداً. هكذا أمضي حياتي، بانتظار اليوم الذي أجدك فيه بجانبي مرة أخرى، حتى أشبع منك؛ هذا كلّ ما أطلبه لخلق عالم يمكنني أن أجد فيه دائماً مأوى إذا احتجت إليه: ليس بعيداً جداً بحيث لا يمكن أن أعتبر بأن لي حياة مستقلة، وليس قريباً جداً بحيث أبدو وكأني أغزو كونك».

«ماذا تريدين أن أفعل؟ أن أتوقّف عن العمل؟ أن أتخلّى عن كلّ

شيء كافحنا بصعوبة لتحقيقه ونذهب في رحلة بحرية إلى الكاريبي؟ ألا تفهمين أني أجد متعة بما أفعله ولا توجد لدي أدنى نية في أن أغيّر مسار حياتي؟».

«في كتبك تتحدّث عن أهمية الحبّ، عن الحاجة إلى المغامرة، المتعة في الكفاح من أجل أحلامك. ومن يوجد أمامي الآن؟ شخص لا يقرأ ما يكتب. شخص يخلط بين الحبّ والراحة، بين المغامرة والمجازفة غير الضرورية، بين البهجة والالتزام. أين هو الرجل الذي تزوّجته الذي كان ينصت إلى ما كنت أقول؟».

«وأين المرأة التي تزوجتها؟».

«أتعني المرأة التي لم تتوقف عن دعمك دائماً، وتشجيعك، والشعور بالمودة نحوك؟ جسدها هنا، تنظر إلى قناة سينغيل في أمستردام، وأظن أنها ستقيم معك بقية حياتها. لكن روح تلك المرأة تقف عند الباب مستعدة للمغادرة».

«لماذا؟».

«بسبب هذه الكلمات التعيسة الثلاث: سنواصل حديثنا غداً. ألا يكفي هذا؟ إن لم يكن يكفي، فكّر فقط بالمرأة التي تزوّجتها، فقد كانت فرحة بالحياة، مفعمة بالأفكار وبالبهجة وبالرغبات، وتحوّلت الآن بسرعة إلى ربّة بيت».

«هذا شيء سخيف».

«طبعاً! إنه هراء! شيء تافه، وخاصة إننا نملك كلّ شيء كنا نريد أن نحصل عليه. إننا محظوظان جداً، لدينا المال، لا نناقش أبداً أية علاقات صغيرة مؤقّتة، لم تعترنا مشاعر قوية بالغيرة. كما يوجد ملايين من الأطفال الذين يموتون جوعاً، وهناك حروب وأمراض وأعاصير ومآسي تحدث في كل ثانية. لذلك لا يوجد شيء يمكنني أن أتذمر منه؟».

«هل تظنين أننا يجب أن ننجب طفلاً؟».

«بهذه الطريقة يحلّ جميع الأزواج مشاكلهم بإنجاب طفل! أنت من كنت تقدرّ حريتك دائماً وتؤجل إنجاب الأطفال إلى وقت لاحق. هل غيّرت رأيك حقاً؟».

«أظن أن الوقت أصبح ملائماً».

«حسناً، لا أظن أني مخطئة أكثر! فأنا لا أريد طفلك. أريد طفلاً من الرجل الذي كنت أعرفه، الذي كانت لديه أحلام، الذي كان دائماً يقف إلى جانبي! فإذا حملت ذات يوم فإني سأحمل من الشخص الذي يفهمني، يرافقني، يصغي إليّ، الشخص الذي يرغب فيّ حقاً».

«انظري، أعدك بأن نتكلّم غداً، لكن أرجوك تعالي إلى السرير الآن، فأنا متعب».

«حسناً، سنتكلّم غداً. وإذا قررت روحي التي تقف عند الباب أن تغادر، فإني أشكّ في أن ذلك سيؤثّر على حياتنا كثيراً».

«روحك لن تغادر».

«إنك تعرف روحي جيداً، لكنك لم تتحدث إليها منذ سنوات، إنك لا تعرف كم تغيّرت، كم تتوسل إليك أن تصغي إليها. حتى أن تصغي إلى أحاديث عادية، كالتجارب التي تجري في الجامعات الأمريكية».

«إذا تغيّرت روحك كثيراً، فكيف يصدف وتكونين نفسك؟»

«بدافع الجبن. لأني أظن بصدق أنه يمكننا أن نتكلم غداً. لأني لا أريد أن أرى الأشياء التي بنيناها معاً تتهدم. أو بسبب أسوأ الأسباب المحتملة، لأن أستسلم ببساطة».

«هذا ما تتّهمينني بأني أفعله».

«إنك على حق. نظرت إليك، ظناً مني أنه أنت من كنت أنظر إليه، لكن الحقيقة هي أني كنت أنظر إلى نفسي. سأصلي الليلة بكلّ قواي وبكلّ إيماني وأسأل الله أن لا يدعني أمضي بقيّة أيامي هكذا».

أسمع تصفيقاً، المسرح مكتظ. كنت على وشك أن أفعل الشيء الذي ظل يؤرقني طوال الليل، كنت على وشك أن ألقي محاضرة.

يبدأ رئيس التشريفات بالقول إنه لا توجد حاجة لأن يقدمني إلى الجمهور. لكنه موجود هنا لهذا السبب، علماً بأنه قد يكون هناك عدد من الجالسين بين المستمعين ممن دعاهم أصدقاء لا يعرفونني. ورغم أنه أنهى كلمته بأن قدم بعض التفاصيل عن سيرتي الذاتية، وتحدث عن ميزاتي ككاتب، وعن الجوائز التي نلتها، وعن ملايين الكتب التي بعتها. وأخيراً شكر الجهات التي رعت المحاضرة، ثم التفت إليّ وأعطاني الكلمة.

شكرته أيضاً. قلت للحاضرين إن أهم الأشياء التي أريد أن أقولها موجودة بين طيات كتبي، لكن بما أني أشعر بأن لديّ التزاماً تجاه جمهوري لكشف النقاب عن الرجل القابع وراء تلك الكلمات والفقرات فإني أوضح بأن وضعنا الإنساني يجعلنا ننحو إلى مشاركة الآخرين بأفضل ما في أنفسنا، لأننا نبحث دائماً عن الحبّ والقبول. إلا أن كتبي لن تكون سوى قمّة جبل تُرى من خلال الغيوم، أو جزيرة في المحيط: الضوء يسقط عليها، كلّ شيء يبدو في سياقه، لكن تحت السطح يقبع المجهول، الظلام، البحث الدائم عن النفس.

وصفت الصعوبات التي واجهتها في كتابة «وقت للفتق ووقت للرتق»، وأن هناك فصولاً عديدة من الكتاب بدأت أنا نفسي أفهمها

الآن فقط، وكلما أعدت قراءته أشعر وكأن الشيء المخلوق هو أكبر وأعظم وأكثر سخاء من خالقه.

قلت لهم إنه لا يوجد شيء مضجر أكثر من قراءة المقابلات، أو إلقاء محاضرات من قِبل المؤلفين الذين يصرّون على تفسير الشخصيات الواردة في كتبهم: إذا لم يكن الكتاب واضحاً فالكتاب عندها لا يكون جديراً بالقراءة. وعندما يظهر كاتب أمام الجمهور فيجب أن يُظهر لهم عالمه، لا أن يحاول تفسير كتبه. وفي هذه الروح سأبدأ الحديث عن شيء شخصي أكثر.

«منذ فترة من الزمن كنت في زيارة لجنيف لإجراء سلسلة من المقابلات. وفي نهاية يوم من العمل، ولأن الصديقة التي كان من المفترض أن أتناول طعام العشاء معها قد ألغت الموعد في اللحظة الأخيرة، خرجت أتجوّل في المدينة. كانت ليلة رائعة حقاً، وكانت الشوارع خالية من المارة، وكانت الحانات والمطاعم ماتزال مفعمة بالحياة، وبدا كلّ شيء جميلاً منظّماً وهادئاً للغاية، لكن فجأة... فجأة أدركت أني كنت وحيداً تماماً.

«غني عن القول أني كنت وحيداً في مناسبات أخرى أثناء السنة. وغني عن القول إن صديقتي لم تكن تبعد عني سوى ساعتين بالطائرة. وغني عن القول، بعد يوم حافل بالعمل، إن أفضل شيء أفعله هو أن أقوم بجولة في حواري المدينة الضيقة القديمة وأزقتها، دون أن أكلّم أحداً، بل لأتمتّع بالجمال المحيط بي فقط. ومع ذلك كان الشعور الذي طفا على السطح شعوراً خانقاً يتسم بالوحدة وبالحزنُ، فلا يوجد أحد أشاركه متعة التجول في المدينة، وأبوح له بالأشياء التي أريد أن أقولها.

«أخرجت هاتفي الخليوي، فلديّ عدد لا بأس به من الأصدقاء في المدينة، لكن الوقت كان قد تأخر كثيراً كي أتصل بأحد. فكّرت في أن أدخل إحدى الحانات وأطلب مشروباً، لكن لا بد أن يتعرف عليّ أحد ويدعوني للانضمام به. لكني قاومت هذا الإغراء وحاولت أن

أعبر تلك اللحظة، واكتشفت خلال ذلك أنه لا يوجد شيء أسوأ من الشعور بانعدام أحد يكترث بوجودنا، بأنه لا يوجد أحد يهتم بما نقوله عن الحياة، وأن العالم يواصل دورانه بدون وجودنا الأخرق.

«بدأت أتخيّل كم عدد الملايين من الناس الذين كانوا في تلك اللحظة يشعرون بأنهم عديمو الفائدة وشديدو التعاسة ـ مهما بلغوا من الثراء والسحر والبهجة ـ لأنهم كانوا وحيدين في تلك الليلة، كما كانوا البارحة، وربما كما سيكونون غداً. طلاب لا يوجد من يخرج معهم، مسنون يجلسون أمام التلفاز كما لو أنه خلاصهم الوحيد، رجال أعمال في غرف فنادقهم يتساءلون إن كان لما يفعلونه أيّ معنى، النساء اللاتي يمضين فترة بعد الظهر وهن يضعن المكياج بعناية، ويصففن شعورهن ليذهبن إلى الحانة، ليتظاهرن بأنهن لا يبحثن عن رفيق، وأن كلّ ما يردنه التأكيد بأنهن ما يزلن جذّابات؛ ولكي يحدّق فيهن الرجال ويتجاذبون أطراف الحديث معهن، لكنهن ينبذنهم بازدراء، لأنهن يشعرن بأنهن أدنى مرتبة، ويخشين أن يكتشف الرجال أنهن أمهات وحيدات، أو موظفات من الدرجة الدنيا لا يجدن شيئاً يقلنه عما يجري في هذا العالم لأنهن يعملن من الفجر وحتى الغروب، كي يسدّن رمقهن، ولا يوجد لديهن الوقت الكافي لقراءة الصحف. الناس الذين ينظرون إلى أنفسهم في المرآة ويظنون أنهم قبيحون، ويعتقدون أن الجمال هو أساس كلّ شيء، ويقضون أوقاتهم وهم يقرؤون المجلات التي تجمع المشاهير والأغنياء والجميلات. أزواج وزوجات يتمنّون أن يكون بقدرتهم التحدث على العشاء كما كانوا يفعلون في الماضي، لكن كانت هناك دائماً أشياء أخرى تسترعي اهتمامهم، أشياء أكثر أهميّة، ويمكن للحديث أن ينتظر دائماً إلى الغد الذي لن يأتي أبداً.

«في ذلك اليوم تناولت طعام الغداء مع صديقة طلّقت زوجها مؤخراً، وقالت لي: «الآن يمكنني أن أتمتّع بالحرية التي طالما حلمت بها». لكن ليست تلك سوى كذبة. لا أحد يريد ذلك النوع من الحرية: فجميعنا نريد التزاماً، جميعنا نريد شخصاً يقف إلى

نريد أن نتمتع بجميلات جنيف، ونناقش مراجعات الكتب والأفلام، أو حتى للمشاركة بشراء شطيرة لعدم توافر نقود تكفي لشراء شطيرة لكلّ منّا. من الأفضل تناول نصف شطيرة من تناول شطيرة كاملة. من الأفضل أن يقاطعك رجل يريد أن يعود مباشرة إلى البيت لأنه توجد مباراة كبيرة على التلفاز هذه الليلة، أو تقاطعك امرأة تقف خارج واجهة محل، وتقاطع ما كنّا نقوله عن برج الكاتدرائية من أن تكون جنيف كلها لك وحدك، وكلّ هذا الوقت والهدوء في العالم لزيارتها.

«من الأفضل أن يجوع المرء مع الآخر على أن يكون جائعاً وحده. لأنك عندما تكون وحيداً ـ وأنا أتكلّم هنا عن العزلة المفروضة لا عن العزلة التي نختارها نحن ـ فهي كما لو أنك كنت لا تنتمي إلى الجنس البشري.

«على الجانب الآخر من النهر ينتظرني فندق رائع بغرفه الفاخرة، وموظفيه النشيطين، وخدمته الممتازة. وهذا ما يجعلني أشعر بأني في حال أسوأ، لأنه من المفترض أن أكون راضياً، قانعاً بكلّ ما أنجزته.

«في طريق عودتي كنت أجتاز أناساً آخرين تعتريهم الحالة ذاتها، ولاحظت أنهم يُصنفون في فئتين اثنتين: الذين يبدون متغطرسين، لأنهم يريدون التظاهر بأنهم اختاروا الوحدة في تلك الليلة الرائعة، والذين يبدون حزينين وخجولين لكونهم وحيدين.

«أقول لكم كلّ هذا لأني تذكّرت قبل أيام أني كنت في غرفة فندق في أمستردام مع امرأة كانت تحدثني عن حياتها. أقول لكم كلّ هذا لأنه، رغم ما ورد في إكليسياستيس، فقد كان هناك وقت للفتق ووقت للرتق، إذ إن وقت للفتق يترك أحياناً ندوباً عميقة. وإن كونك مع شخص آخر تجعله يشعر بأنه عديم الأهمية في حياتك لهو أسوأ بكثير من الشعور بالوحدة والبؤس في شوارع جنيف».

سادت لحظة طويلة من الصمت قبل أن يبدأ التصفيق.

وصلت إلى جزء موحش من باريس، الذي يقال إنه أكثر المناطق الثقافية حيوية في المدينة كلها. استغرقت بعض الوقت لأتعرف على تلك المجموعة المهلهلة الواقفة أمامي والمؤلفة من الأشخاص الذين كانوا يظهرون عادة أيام الخميس في المطعم الأرمني وهم يرتدون أردية بيضاء نظيفة.

«لماذا ترتدون جميعكم زيّاً تنكرياً؟».

«إنه ليس زياً تنكرياً»، أجاب ميخائيل. «ألا تغيّر ثيابك عندما تذهب إلى حفل عشاء؟ هل ترتدي سترة وربطة عنق عندما تذهب لتلعب الغولف؟».

«حسناً، دعني أصوغ السؤال بطريقة أخرى: لماذا قررتم أن ترتدوا ثياباً كثياب المشرّدين؟».

«لأننا في هذه اللحظة شباب مشرّدون، أو بالأحرى أربعة شباب مشرّدين، واثنين مشرّدين بالغين».

«إذاً دعني أصوغ السؤال بطريقة ثالثة: لماذا ترتدون ثياباً كهذه؟».

«في المطعم نغذّي أجسامنا ونتحدّث عن الطاقة إلى الناس الذين يفتقدون شيئاً ما. أما بين الشحاذين فإننا نغذّي روحنا ونتحدث مع الذين لا يوجد لديهم شيء يخسرونه. أما الآن فإننا نأتي

إلى الجزء الأكثر أهمية من عملنا: الالتقاء بأعضاء الحركة الخفية التي تجدّد الناس في العالم والذين يعيشون كلّ يوم كما لو كانوا يعيشون آخر يوم في حياتهم، بينما يعيش المسنون كلّ يوم وكأنه أول يوم في حياتهم».

كان يتحدّث عن شيء كنت قد لاحظته، والذي كان يبدو أنه يزداد أثناء النهار: هكذا كان يرتدي الشبان ثيابهم، ثياب قذرة، لكنها تنم عن إبداع فني، تشبه زياً عسكرياً، أو الثياب التي يرتدونها في أفلام الخيال العلمي. وقد وضعوا جميعهم حلقات في أجزاء من أجسادهم، وقصوا شعورهم بأشكال غريبة. وكانت هذه المجموعات غالباً مصحوبة بكلاب ألزاسية مرعبة الشكل. وسألت ذات مرة صديقاً عن السبب الذي يجعل هؤلاء الناس يصحبون كلباً معهم دائماً، فقال لي ـ مع أني لا أعرف إن كان هذا صحيحاً ـ بأن الشرطة لا تستطيع أن تعتقل أصحابها لأنه لا يوجد لديهم مكان يضعون فيه الكلاب.

بدأت زجاجة الفودكا تدور. كنا نحتسي الفودكا عندما نكون مع الشحاذين، وتساءلت إن كان لهذا علاقة بأصول ميخائيل. جرعت رشفة متخيلاً ما سيقوله الناس إن رأوني هناك.

قررت أنهم سيقولون، «لعله يجري أبحاثاً من أجل كتابه التالي»، وأحسست براحة أكبر.

«أنا مستعدّ الآن للذهاب لأجد إستر، لكنني أحتاج إلى قدر أكبر من المعلومات، لأني لا أعرف شيئاً عن بلدك».

«سأرافقك».

«ماذا؟».

لم يكن ذلك في خططي على الإطلاق. لقد كانت رحلة عودة إلى كلّ شيء كنت قد فقدته في نفسي، وسينتهي بي الحال في مكان ما في وادٍ وسط آسيا. كان شيئاً حميمياً وشخصياً، شيئاً ليس بحاجة إلى شهود.

«بالطبع مادمت ستدفع ثمن تذكرتي. يجب أن أعود إلى كازاخستان. إني أحنّ إلى بلدي».

«ظننت أن لديك عملاً هنا. ألا يجب أن تكون في المطعم أيام الخميس من أجل العرض».

«ما تزال تسميه عرضاً. قلت لك إنه اجتماع، وسيلة لإنعاش ما فقدناه، تقليد من تقاليد المحادثة. لكن لا تقلق فإن أناستازيا هنا»، وأشار إلى فتاة تضع حلقة في أنفها «إنها تعمل على تطوير موهبتها. يمكنها أن تعتني بكلّ شيء في غيابي».

«إنه يغار»، قالت ألما، المرأة التي كانت تعزف على الآلة التي تشبه صنجاً نحاسياً، والتي كانت تحكي قصصاً في نهاية كلّ اجتماع.

«مفهوم، حقاً»، قال شاب آخر كان يرتدي بدلة جلدية مزركشة بأزرار معدنية ودبابيس بدت مثل أنصال شفرة الحلاقة، وأضاف، «ميخائيل أصغر، وأكثر وسامة، وعلى اتصال بالطاقة».

«وهو أقل شهرة أيضاً، أقل غنى، وليس لديه علاقات كثيرة مع الأشخاص في السلطة»، قالت أناستازيا. «من وجهة النظر النسائية فإن الأشياء متوازنة بشكل جيد، لذلك أحسب أن كلاً منهما يسيّر أموره».

ضحك الجميع وبدأت الزجاجة تدور ثانية. كنت الوحيد الذي لم يفهم مغزى النكتة. لم أجلس على رصيف في باريس منذ سنوات طويلة وقد أدخل ذلك السرور إلى نفسي.

«إن القبيلة أكبر مما تظن. إنهم في كل مكان، من برج إيفل حتى بلدة تاربيس حيث كنت أقيم مؤخراً. لكني لا أستطيع أن أقول بصدق إني أفهم كلّ شيء عن ذلك».

«قد يوجدون في أماكن تتجاوز جنوب تاربيس، وهم يسيرون في كل الطرق مثل الطريق إلى سانتياغو. ينطلقون من مكان ما في

فرنسا أو من مكان آخر في أوروبا، يقسمون أنهم سيصبحون جزءاً من مجتمع قائم خارج المجتمع. وهم يخشون العودة إلى بلدهم والحصول على عمل والزواج ـ سيحاربون كلّ هذه الأشياء بقدر ما يستطيعون. ففيهم الغني والفقير، لكنهم لا يعيرون اهتماماً للمال. يبدون مختلفين تماماً، ومع ذلك عندما يمر الناس بجانبهم، يتظاهرون عادة بأنهم لا يرونهم لأنهم يخشونهم».

«هل يجب أن يكونوا عدوانيين بهذا الشكل؟».

«نعم، لأن الرغبة في التحطيم رغبة إبداعية. فلو لم يكونوا عدوانيين ستمتلئ المحلات على الفور بثياب كهذه؛ وسرعان ما يصدر الناشرون مجلات حول الحركة الجديدة وتعمّ مواقفها الثورية العالم؛ وسيخصص جزء من البرامج التلفزيونية لهذه القبيلة؛ وسيكتب علماء الاجتماع مقالات علمية؛ وسيقدم الأطباء النفسانيون النصائح لعائلات أفراد القبيلة، وستفقد تأثيرها كله. لذلك كلما قلّ التعرف علينا، كان أفضل: إن هجومنا هو في حقيقة الأمر دفاع».

«في الحقيقة جئت الليلة لأطلب منك بعض المعلومات، لكن من يعرف ربما كان قضاء الليل معك سيصبح نوعاً من التجربة الغنية والمبتكرة كي أنتقل من تاريخ شخصي لم يعد يسمح بتجارب جديدة. أما بالنسبة للرحلة إلى كازاخستان فليس لديّ نية في أن أرافق أحداً. وإذا لم تساعدني فإن بنك ردّ الجميل سيزوّدني بجميع الاتصالات اللازمة. سأسافر بعد يومين، وأنا مدعو على عشاء مهم ليلة الغد، لكن بعد ذلك سأكون حراً لمدة أسبوعين».

بدا ميخائيل متردداً.

«الأمر يعود لك. فلديك الخريطة واسم القرية، ولن يكون من الصعب أن تجد البيت الذي تقيم فيه. إني واثق من أن بنك ردّ الجميل يمكنه أن يساعدك في الوصول حتى آلماآتا، لكني أشكّ في أن تتمكن من الذهاب أبعد من ذلك، لأن قواعد البادية مختلفة. بالإضافة إلى

ذلك أظن أني أودعت بضع ودائع في حسابك في بنك ردّ الجميل أيضاً. وحان الوقت لاستردادها. لقد اشتقت إلى أمّي».

كان محقاً.

«يجب أن نبدأ العمل»، قال زوج ألما.

«لماذا تريد أن تذهب معي يا ميخائيل؟ هل حقاً اشتقت إلى أمّك؟».

لم يحر جواباً. بدأ الرجل يقرع الطبل، وبدأت ألما تقرع الصنج النحاسي، بينما أخذ الآخرون يشحذون نقوداً من المارة. لماذا يريد أن يذهب معي؟ وكيف سأتمكن من الاستفادة من بنك ردّ الجميل في البادية، وأنا لا أعرف حقاً أحداً؟ يمكنني أن أحصل على تأشيرة دخول من سفارة كازاخستان، وأستأجر سيارة وأحصل على دليل من القنصلية الفرنسية في آلماآتا ـ ما الأشياء الأخرى التي أحتاج لها؟

وقفت هناك أراقب المجموعة، لا أعرف تماماً ما سأفعله. لم يكن الوقت المناسب لمناقشة الرحلة، وكان لديّ عمل يجب أن أقوم به، وصديقة تنتظرني في البيت. لماذا لا أغادر الآن؟

لم أغادر لأني كنت أشعر بالحرية، أفعل أشياء لم أفعلها منذ سنوات، تفتح فضاء في روحي لخبرات وتجارب جديدة، أخرج المرشد من حياتي، أتعرض لأشياء قد لا تثير اهتمامي كثيراً لكنها تكون على الأقل مختلفة.

انتهت الفودكا واستُبدلت بشراب الروم. إني أكره شراب الروم، لكن بما أنه المشروب الوحيد المتوافر، فمن الأفضل أن أتكيّف مع الظروف. واصل الموسيقيان العزف، وإذا تملكت أحدهم الشجاعة واقترب، مدّت إحدى الفتيات يدها وطلبت منه نقوداً. وكان الشخص الذي يقترب يسرع مبتعداً عادة، لكنه يتلقى دائماً عبارة «شكراً، طاب مساؤك». أحد الأشخاص، بعد أن سمع كلمة شكر بدلاً من كلمة إساءة، استدار وأعطانا قليلاً من المال.

بعد رؤية هذا المشهد لأكثر من عشر دقائق، دون أن يوجه أحد في المجموعة كلمة إليّ، دخلت إحدى الحانات واشتريت زجاجتين من الفودكا. عدت وصببت شراب الروم في البالوعة. بدت أناستازيا مسرورة لبادرتي هذه، لذلك حاولت أن أبدأ حديثاً معها.

«هلّ يمكنك أن توضحي لماذا تضعون حلقات في أجسامكم جميعاً؟».

«لماذا يضع أناس آخرون الجواهر أو يرتدون أحذية بكعوب عالية أو ثياب مفتوحة الصدر حتى في الشتاء؟».

«هذا ليس ردّاً».

«إننا نستخدم ذلك لأننا البرابرة الجدّد الذين نستبيح روما ونجعلها خراباً. إننا لا نرتدي بدلات رسمية لذلك نحتاج إلى شيء يميزنا بكوننا قبيلة غازية».

جعلهم ذلك يبدون كأنهم جزء من حركة تاريخية هامة، أما الناس العائدون إلى بيوتهم فلم يكونوا بالنسبة لهم سوى مجموعة من الشباب المتسكعين، العاطلين عن العمل، لا يوجد لديهم مكان ينامون فيه، ينتشرون في شوارع باريس، يضايقون السيّاح الذين يخدمون الاقتصاد المحليّ، ويدفعون الأمهات والآباء الذين جلبوهم إلى العالم إلى حافة اليأس، والذين لم يعد لهم الآن أي سيطرة عليهم.

كنت هكذا ذات يوم، عندما كانت حركة الهيبيز في أوجها - حفلات الروك الهائلة، الشعر الطويل، الملابس المبهرجة، رمز الفايكنغ، شارة السلام. وكما قال ميخائيل فقد تحوّل جيل الهيبيز كله إلى جيل استهلاكي آخر للمنتجات وتلاشى وحطم أيقوناته.

تقدم رجل في الشارع. توجه الصبي الذي يرتدي البدلة الجلدية نحوه ومدّ له يده. طلب منه نقوداً. لكنه بدلاً من أن يعجّل خطاه أو يدمدم شيئاً مثل «لا أملك نقوداً»، توقّف الرجل ونظر إلينا وقال

بصوت عال: «إنني أستيقظ صباح كلّ يوم وأنا مدين بما يقرب من 100,000 يورو، بسبب بيتي، بسبب الوضع الاقتصادي في أوروبا، بسبب ذوق زوجتي الغالي. بمعنى آخر فأنا في وضع أسوأ من حالك بكثير، وبالي مشغول أكثر منك بكثير. ما رأيك في أن تمنحني قليلاً من النقود لتساعدني في تخفيض ديوني ولو قليلاً؟».

أخرجت لوكريسيا ـ التي ادّعى ميخائيل أنها صديقته ـ ورقة من فئة خمسين يورو وقدمتها للرجل. «اشتر لنفسك قليلاً من الكافيار. إنك تحتاج إلى قليل من البهجة في حياتك التعيسة».

شكرها الرجل وغادر، كما لو كان أمراً طبيعياً في العالم أن يمنحك شحاذ خمسين يورو. فقد كانت توجد في حقيبة الفتاة الإيطالية ورقة من فئة الخمسين يورو، ونحن نشحذ هنا في الشارع!

«لنذهب إلى مكان آخر»، قال الصبي الذي يرتدي البدلة الجلدية.

«إلى أين؟» سأل ميخائيل.

«يمكننا أن نرى إن كان بوسعنا أن نجد الآخرين. شمالاً أو جنوباً؟».

اختارت أناستازيا الغرب. فقد كانت، حسب ما قال ميخائيل، تعمل على تطوير موهبتها.

مررنا ببرج سان جاك، حيث يتجمع الحجاج الذاهبون إلى سانتياغو دي كومبوستيلا، منذ قرون عديدة. اجتزنا نوتردام، حيث توجد حفنة من «البرابرة الجدد». كانت الفودكا قد نفدت لذلك ذهبت لشراء زجاجتين أخريين، مع أني لم أكن متأكّداً من أن كلّ من في المجموعة كان يتجاوز الثامنة عشرة من عمره. لم يشكرني أحد، وبدا أنهم يظنون أن الأمر طبيعي للغاية.

بدأت أثمل قليلاً، وبدأت أرمق فتاة كانت قد انضمت إلينا الآن. كان الجميع يتحدثون بصوت مرتفع جداً، يركلون بضع علب قمامة ـ أشياء معدنية غريبة فيها كيس بلاستيكي مدلى منها ـ ولم أقل شيئاً ذا أهمية على الإطلاق.

عبرنا نهر السين وتوقفنا فجأة عند أحد تلك الأشرطة البرتقالية والبيضاء التي تستخدم للدلالة على أن المنطقة قيد الإنشاء. لم يكن يسمح للناس بالسير على الرصيف، وكانوا يضطرون للنزول من على الرصيف إلى الطريق، ثم الصعود إلى الرصيف ثانية بعد خمسة أمتار.

«إنه مايزال هنا»، قال أحد القادمين الجدد.

«من الذي مايزال هنا؟» سألت.

«من هو؟».

«صديق لنا»، أجابت لوكريسيا. «في الحقيقة ربما كنت قد قرأت أحد كتبه».

الشخص الجديد عرفني، لكنه لم يظهر دهشة ولا احتراماً، بل بالعكس سأل إن كان بإمكاني أن أمنحه قليلاً من النقود، لكني رفضت طلبه على الفور.

«إذا أردت أن تعرف سبب وجود الشريط هناك فيجب أن تعطيني يورو. لكلّ شيء في الحياة ثمن، كما تعرف أكثر من أي شخص آخر. والمعلومات من أكثر المنتجات المرتفعة الثمن في العالم».

لم يهبّ أحد في المجموعة إلى مساعدتي، لذلك دفعت له يورو لقاء جوابه.

«الشريط هنا لأننا وضعناه هناك. كما ترى، لا توجد أعمال تصليح تجري هنا، بل مجرد شريط برتقالي وأبيض غبي يسد

الرصيف الغبي. لكن لا يسأل أحد ما يجري هناك، بل ينزلون عن الرصيف، ويسيرون في الطريق معرضين أنفسهم لخطر أن تصدمهم سيارة، ثم يعودون إليه ثانية. بالمناسبة لقد قرأت في مكان ما بأنك أصبت بحادث. هل هذا صحيح؟».

«نعم صحيح، وكلّ هذا لأني نزلت عن الرصيف».

«لا تقلق، عندما ينزل الناس من على الرصيف هنا فهم يظهرون مزيداً من الحذر دائماً. وإن أحد الأسباب التي جعلتنا نضع الشريط هو لجعل الناس ينتبهون أكثر لما يجري حولهم».

«لا، ليس هو السبب»، قالت الفتاة التي جذبتني. «إنها مجرد مزحة لكي نسخر من الناس الذين يطيعون حتى دون أن يفكّروا ماذا يطيعون. لا يوجد ثمة سبب، ليس هذا مهماً، ولن يصاب أحد بمكروه».

انضم عدد أكبر من الأشخاص إلى المجموعة. وأصبح عددنا الآن أحد عشر شخصاً وكلبان ألزاسيان. لم نعد نشحذ لأنه لم يكن أحد يجرؤ على الاقتراب من هذه العصابة من الهمج التي بدا أنها تجد متعة في بث الخوف في قلوب الناس. نفد الشراب ثانية، ونظروا إليّ جميعهم وطلبوا مني أن أشتري لهم زجاجة أخرى، كما لو كان من واجبي أن أبقيهم سكارى. أدركت أن هذا هو جواز سفري إلى الحجّ لذلك انطلقت أبحث عن محل لبيع المشروبات.

بدا أن الفتاة التي أثارت اهتمامي ـ والتي كانت صغيرة ما يجعلها في عمر ابنتي ـ قد لاحظت أني أنظر إليها، وبدأت تتحدث معي. كنت أعرف أنها كانت مجرد وسيلة لاستفزازي وإثارتي، لكني شاركتها في ذلك. لم تحدثني شيئاً عن حياتها الشخصية، بل كان كلّ ما سألتني إياه كم عدد القطط وعدد أعمدة المصابيح الموجودة على الجزء الخلفي من الورقة من فئة العشر دولارات.

«قطط وأعمدة مصابيح؟».

«إنك لا تعرف، أليس كذلك؟ إنك لا تولي أيّ قيمة حقيقية للمال على الإطلاق. حسناً، لمعلوماتك، هناك أربع قطط وأحد عشر عمود مصباح».

أربع قطط وأحد عشر عمود مصباح. وعدت نفسي بأنّ أتأكّد من ذلك في المرة القادمة عندما أنظر إلى ورقة من فئة العشر دولارات.

«هل يتعاطى أيّ منكم المخدّرات؟».

«بعضنا، لكننا نحتسي الكحول بشكل رئيسي. ليس كثيراً على الإطلاق، في الحقيقة إنه ليس أسلوبنا. فالمخدّرات يتعاطاها أناس من جيلك، أليس كذلك؟ فقد كانت أمّي مثلاً، تتخدّر من الطهي للعائلة، ترتّب البيت مكرهة، وقد عانت من أجلي. وعانت عندما لم يكن عمل أبي على ما يرام. هلّ تصدق ذلك؟ إنها تعاني من أجلي، من أجل أبي، من أجل أخوتي وأخواتي، من أجل كلّ شيء. كنت أهدر كثيراً من طاقتي كي أتظاهر بأني سعيدة على الدوام، لذلك فكرت أنه من الأفضل أن أغادر البيت».

تاريخ شخصي آخر.

«مثل زوجتك»، قال شابّ أشقر الشعر وقد علّق حلقة على حاجبه. «لقد تركت البيت أيضاً، أليس كذلك؟ هل كان ذلك لأنه كان عليها أن تتظاهر بأنها سعيدة دائماً؟».

إذاً كانت هنا أيضاً. هل أعطت بعض هؤلاء الشباب قطعة من ذلك القميص الملطّخ بالدم؟

«لقد عانت أيضاً»، قالت لوكريسيا ضاحكة، «لكن على حد علمنا لم تعد تعاني. هذا ما أدعوه شجاعة!».

«ماذا كانت زوجتي تعمل هنا؟»

«لقد جاءت مع الشاب المنغولي، الشاب الذي يحمل كلّ تلك

الأفكار الغريبة عن الحبّ الذي بدأنا نفهمه منذ فترة وجيزة. وكانت تطرح أسئلة وتحكي لنا قصتها. وذات يوم توقّفت عن ذلك. قالت إنها ملّت من الشكوى. واقترحت أن تتخلّى عن كلّ شيء وتأتي معنا، لأننا كنا نخطّط لرحلة إلى شمال أفريقيا. شكرتنا، لكنها قالت إن لديها خططاً أخرى وإنها ستتخذ اتجاهاً معاكساً».

«ألم تقرأ كتابه الأخير؟» سألت أناستازيا.

«لا، لم يعجبني. قيل لي إنه رومانسي جداً. الآن متى سنحصل على مزيد من الخمر؟».

أفسح الناس مجالاً لنا كما لو كنا ساموراي في طريقنا إلى إحدى القرى، قطاع طرق يصلون إلى بلدة حدودية، برابرة يدخلون روما. لم تُظهر القبيلة أية بوادر عدوانية؛ بل كان العدوان كلّه في الثياب، وضع حلقات في الجسد، الأحاديث بصوت مرتفع، الغرابة المطلقة. وجدنا أخيراً محلاً صغيراً. ولضيقي وذعري الكبيرين دخلوا جميعهم وبدؤوا يعبثون بالمحتويات على الرفوف.

لم أكن أعرف أياً منهم، ما عدا ميخائيل، وحتى آنذاك لم أكن أعرف إن كان ما حدثني به عن نفسه كان صحيحاً. ماذا لو سرقوا شيئاً؟ ماذا لو كان أحدهم مسلّحاً؟ وبما أني أكبر أفراد المجموعة سناً فأنا المسؤول عن تصرفاتهم؟».

ظلّ الرجل الجالس وراء صندوق النقد يتطلع إلى مرآة الأمن المعلّقة من السقف في الدكان الصغير. وبعد أن عرفت المجموعة أنه كان قلقاً انتشروا في المكان، وراح أحدهم يومئ للآخر، وازدادت حدة التوتر. ولأنهي الأمر حملت ثلاث زجاجات من الفودكا وهرعت إلى صندوق النقد.

قالت امرأة كانت تشتري سجائر إنه في أيامها كانت باريس مليئة بالبوهيميين والفنانين، لا بمجموعات المشرّدين الذين

يهددون الناس. واقترحت أن يقوم الشخص الجالس إلى صندوق النقد بأن يستدعي الشرطة.

«لديّ إحسّاس بأن ثمة شيئاً سيئاً سيحدث في أية لحظة الآن»، دمدمت له.

خاف الجالس إلى صندوق النقد من احتلال عالمه الصغير هذا، ثمرة سنوات من العمل ومن قروض كثيرة، حيث كان ابنه ربما يعمل في الصباح، وزوجته بعد الظهر، وهو في الليل. أومأ إلى المرأة، وأدركت أنه استدعى الشرطة.

أكره أن أتدخّل في أشياء ليست من شأني، لكني أكره أن أكون جباناً أيضاً. ففي كلّ مرّة يحدث ذلك أفقد احترامي لنفسي لمدة أسبوع.

«لا تقلق...» قلت.

كنت قد تأخرت كثيراً. فقد دخل شرطيان وأشار إليهما صاحب المحل والمالك، لكن الشباب الذين كانوا متنكرين في ثياب مخلوقات من الفضاء لم يعيروه أي اهتمام - فقد كان ذلك كله جزءاً من مواجهة النظام الراسخ. لا بدّ أن ذلك حدث معهم في مرات كثيرة من قبل. كانوا يعرفون أنهم لم يرتكبوا جريمة (ما عدا الجرائم ضد الأزياء، لكن ذلك قد يتغيّر في الموسم القادم). لا بدّ أنهم كانوا خائفين، لكنهم لم يظهروا ذلك، واستمروا يتحدثون بصوت مرتفع.

«رأيت كوميدياً قبل أيام. قال إنه يجب أن يكتب على بطاقة هوية الأغبياء كلمة: غبي»، قالت أناستازيا لأحدهم. «بهذه الطريقة، فإننا نعرف إلى من نتحدث».

«نعم، إن الأغبياء خطر حقيقي على المجتمع»، قالت الفتاة ذات الوجه الملائكي والتي ترتدي ثياب مصّاصي الدماء والتي كانت تحدثني منذ قليل عن عدد أعمدة المصابيح والقطط الموجودة على الجانب الآخر من ورقة العشر دولارات. «يجب فحصهم مرة كلّ سنة، ومنحهم رخصة للسير في الشوارع، مثل رخصة قيادة السيارة».

لم يقل الشرطيان اللذان لم يكونا أكبر سناً بكثير من القبيلة، شيئاً.

«أتعرفون ما أريد أن أفعله»، كان صوت ميخائيل، لكني لم أستطع أن أراه لأنه كان مخفياً وراء أحد الرفوف. «أريد أن أغيّر العلامات على كلّ شيء في هذا الدكان. سيلتبس الأمر على الناس. فلن يعرفوا إن كانت الأشياء يجب أن تؤكل حارة أم باردة، مسلوقة أم مقلية. إذا لم يقرؤوا التعليمات، فلن يعرفوا كيف يعدون وجبة الطعام. لقد فقدوا كلّ غرائزهم في الطهي».

كانوا جميعهم يتحدثون بلكنة فرنسية باريسية قحة. إلا ميخائيل الذي كان يتكلم بلهجة أجنبية.

«هل لي أن أرى جواز سفرك»، قال أحد الشرطيين.

«إنه معي».

خرجت الكلمات بشكل طبيعي، مع أني كنت أعرف أنها يمكن أن تعني فضيحة أخرى. نظر الشرطي إليّ.

«لم أكن أتكلّم إليك، لكنك بما أنك هذا اللوح أرجو أن يكون معك وثيقة تثبت فيها من أنت، وأن يكون لديك سبب وجيه لوجودك مع شباب في نصف عمرك وتشتري لهم الفودكا».

كان بإمكاني أن أرفض إبراز أوراقي، فلم أكن ملزماً قانونياً بأن أحملها. لكني فكّرت بميخائيل، الذي وقف أحد الشرطيين بجانبه الآن. هل يحمل حقاً إذناً للإقامة في فرنسا؟ ماذا كنت أعرف عنه باستثناء القصص التي حكاها لي عن رؤاه ونوباته بالصرع؟ ماذا لو أنّ التوتّر السائد الآن قد أثار هجوماً؟

وضعت يدي في جيبي وأخرجت رخصة السياقة.

«إذن أنت...».

«نعم، أنا».

«كنت أظن أنه أنت. لقد قرأت أحد كتبك. لكن هذا لا يجعلك فوق القانون».

لم أكن أتوقع أنه قرأ أحد كتبي. فها هنا شابٌ حليق الرأس يرتدي بدلة رسمية، ولو أنه كان يختلف كثيراً عن الثياب المهترئة التي يرتديها أفراد القبيلة لكي يتميز أحدهم عن الآخر. ربما كان قد حلم ذات يوم بأنه يمتلك الحرية لأن يكون مختلفاً أيضاً بتحدي السلطة بفطنة شخص مهذّب، بحيث لا ينتهي به الأمر إلى زجه في السجن. ربما كان لديه أبٌ لم يوفر له أيّ بديل، عائلة بحاجة إلى دعمه المالي، أو ربما كان يخشى أن يتجاوز عالمه المألوف.

قلت بلطف:

«لا، لست فوق القانون. في الحقيقة لم يخرق أحد القانون هنا». إلا إذا كان الرجل المحترم الجالس وراء صندوق النقد أو السيدة التي تشتري السجائر يودان أن يقدّما شكوى معيّنة».

عندما استدرت كانت المرأة التي ذكرت الفنانين والبوهيميين في أيامها، المرأة التي تتنبأ بدمار وشيك، وتجسد الحقيقة وحسن السلوك قد اختفت. ولا بد أنها ستخبر جيرانها في اليوم التالي بذلك، فبفضلها تم تحاشي محاولة سطو.

«ليس عندي شكوى»، قال الرجل الجالس وراء صندوق النقد. «لقد اعتراني القلق لأنهم كانوا يتحدثون بصوت عالٍ جداً، لكن يبدو أنهم لم يحدثوا في واقع الأمر أي ضرر».

«هل الفودكا لك، يا سيدي؟».

هززت رأسي. عرفا أن الجميع كانوا ثملين، لكنهما لم يرغبا في إثارة مشكلة كبيرة من شيء لم يسبب أي ضرر.

«إن عالماً يخلو من الأغبياء سيكون عالماً مليئاً بالفوضى التامة». قال الصبي الذي يرتدي البدلة الجلدية ذات الأزرار المعدنية.

«فبدلاً من وجود كلّ العاطلين عن العمل الموجودين اليوم ستكون هناك وظائف كثيرة، ولن يتوافر أحد ليقوم بالعمل!».

«اسكت!».

بدا صوتي حاسماً.

«توقفوا عن الكلام جميعكم».

لدهشتي ساد الصمت. كان قلبي يخفق بقوة شديدة، لكني تابعت حديثي مع الشرطيين كما لو كنت أكثر الناس هدوءاً في العالم.

«لو كانوا خطرين جداً لما تحدثوا هكذا».

اتجه الشرطي نحو الرجل الجالس وراء الصندوق وقال: «إذا احتجت إلينا، فنحن قريبون من هنا».

وقبل أن يخرج قال لزميله، لكي يتردّد صدى صوته في المحل كله، «إني أحبّ الأغبياء. فإذا لم يكن الأمر لهم فقد يتعين علينا أن نتعامل مع بعض المجرمين الحقيقيين».

«صحيح»، قال الشرطي الآخر. «فالأغبياء تسلية جيدة».

رفعا يديهما بالتحية المعهودة وغادرا.

كان الشيء الوحيد الذي خطر لي أن أفعله عندما غادرنا المحل هو أن أحطّم زجاجتيّ الفودكا. لكني تركت واحدة منهما، وراحت تنتقل بسرعة من فم إلى فم. ومن الطريقة التي كانوا يشربون فيها رأيت أنهم كانوا خائفين، بقدر ما كنت خائفاً. وكان الفرق الوحيد هو أنهم كانوا يشرعون بالهجوم إذا ما شعروا بالتهديد.

«لا أشعر بالارتياح»، قال ميخائيل لأحدهم. «لنذهب».

لم أعرف ماذا كان يقصد بـ «لنذهب»: هل يذهب كلّ إلى بيته أو إلى مدينته؟ لم يسألني أحد إن كنت أريد أن أذهب معهم لذلك تبعتهم. إذ جعلتني ملاحظة ميخائيل «لا أشعر بالارتياح» أشعر بالقلق؛ فهذا

يعني أنه لن تكون لدينا فرصة أخرى في تلك الليلة لنتحدّث عن الرحيل إلى آسيا الوسطى. هل يجب أن أغادر؟ أم أن أنتظر لأرى ماذا تعني «لنذهب»؟ اكتشفت أني كنت مستمتعاً وأني أرغب في محاولة إغواء الفتاة التي ترتدي ثياب مصاصي الدماء.

هيا إذن.

كنت أغادر دائماً ما أن تلوح أول إشارة خطر.

عندما انطلقنا ـ لم أكن أعرف إلى أين ـ كنت أفكّر بهذه التجربة كلها. قبيلة. عودة رمزية إلى زمن كان فيه الرجال يسافرون في مجموعات للحماية، ولم يكونوا يحتاجون إلى أشياء كثيرة من أجل البقاء على قيد الحياة.

قبيلة في وسط قبيلة معادية أخرى تدعى المجتمع، تعبر أراضي المجتمع، وتستخدم الهجوم كوسيلة للدفاع عن الرفض. مجموعة من الأشخاص التقوا ليشكلوا مجتمعاً مثالياً، لم أكن أعرف شيئاً عنه سوى أنهم يضعون حلقات في أجزاء من أجسادهم، والثياب الغريبة التي يرتدونها. ماهي قيمهم؟ كيف يفكّرون بالحياة؟ كيف يكسبون مالهم؟ هل لديهم أحلام، أم يكفيهم التنقل في أرجاء العالم فقط؟ كان كلّ ذلك مثيراً للاهتمام أكثر بكثير من العشاء الذي كان عليّ أن أحضره غداً مساء حيث أصبحت أعرف تماماً ما سيحدث. كنت مقتنعاً بأن ذلك لا بد أن يكون نتيجة تأثير الفودكا، لكني شعرت بالحرية، وكان تاريخي الشخصي يبتعد أكثر، ولم تعد هناك سوى اللحظة الراهنة، الغريزة، لقد اختفى *الظاهر*...

الظاهر؟

نعم، لقد اختفى، لكني أدركت الآن أن *الظاهر* هو أكثر من شخص استحوذ عليه شيء، عِرْق في رخام أحد الأعمدة المائة والإثني عشر في مسجد في قرطبة، كما ذكر بورخيس، أو كما في حالتي الممضة، خلال السنتين الماضيتين، مع امرأة في آسيا

الوسطى. كان *الظاهر* تعلقاً بكلّ شيء ينتقل من جيل إلى جيل؛ ولم يترك سؤالاً بدون إجابة عنه؛ لقد استحوذ على الفضاء كله؛ حتى أنه لم يسمح لنا بأن ننظر في احتمالية أن تتغيّر الأشياء.

كان يبدو أن *الظاهر* الكليّ القدرة قد ولد مع كلّ كائن بشري، ولكي يكتسب القوّة الكاملة في الطفولة يفرض قواعد يجب الالتزام بها في ما بعد على الدوام:

الناس المختلفون خطرون. إنهم ينتمون إلى قبيلة أخرى. إنهم يريدون أراضينا ونساءنا.

يجب أن نتزوّج، وأن ننجب أطفالاً للحفاظ على النسل والنوع.

الحبّ مجرد شيء صغير يكفي لشخص واحد، وأيّ اقتراح بأن القلب قد يكون أكبر من ذلك يعتبر انحرافاً.

عندما نتزوّج يحق لنا أن نمتلك الشخص الآخر وجسده وروحه.

يجب أن نزاول أعمالاً لا نحبها لأننا جزء من مجتمع منظّم، وإذا فعل كلّ شخص ما يريد أن يفعله فسيتوقف العالم عن الوجود.

يجب أن نشتري مجوهرات، فهي تربطنا بقبيلتنا، تماماً مثل وضع الحلقات على الجسد التي تميّز أصحابها عن القبيلة الأخرى.

يجب أن نكون مسلّين دائماً، ونسخر من الذين يبدون مشاعرهم الحقيقية. فمن الخطر على القبيلة أن تسمح لأعضائها بإظهار حقيقة مشاعرهم.

يجب أن نتحاشى بأي ثمن قول لا، لأن الناس يفضّلون دائماً من يقولون، نعم، وهذا يجعلنا نعيش في أرض عدائية.

ما يفكّر به الآخرون أكثر أهميّة مما نشعر به.

لا تثر جلبة أبداً فقد يجذب ذلك انتباه قبيلة العدو.

إذا تصرّفت على نحو مختلف فإنك سُتطرد من القبيلة لأن ثمة

إمكانية أن تصيب الآخرين بالعدوى، وتحطّم الشّيء الذي كان تنظيمه بالغ الصعوبة في المقام الأول.

يجب أن نأخذ دائماً بالاعتبار شكل كهفنا الجديد، وإذا لم تكن لدينا فكرة واضحة عن كهفنا نحن فعلينا أن نستدعي مهندس ديكور يبذل ما بوسعه ليري الآخرين ذوقنا الجيد.

يجب أن نتناول ثلاث وجبات طعام في اليوم، حتى لو لم نكن جائعين، وعندما لا نتمكن من مجاراة التيار المثالي في الجمال فيجب أن نصوم، حتى لو تضورنا جوعاً.

يجب أن نرتدي ثيابنا وفقاً لما تمليه علينا الأزياء، وأن نمارس الجنس سواء كنا نشعر بالرغبة فيه أم لا، أن نقتل باسم بلادنا، أن نتمنى بأن يأتي التقاعد بسرعة، أن ننتخب السياسيين، أن نتذمر من تكاليف المعيشة، أن نغيّر تصفيفة شعرنا، أن ننتقد أي شخص مختلف، أن نذهب للصلاة يوم الأحد، أو يوم السبت، أو يوم الجمعة، حسب الدين الذي نعتنقه، ونستجدي المغفرة لذنوبنا وننتفخ فخراً لأننا نعرف الحقيقة ونحتقر القبيلة الأخرى التي تعبد إلهاً زائفاً.

يجب أن يسير أطفالنا على خطانا، فنحن نكبرهم سناً ونعرف عن هذا العالم.

يجب أن نحمل شهادة جامعية حتى لو لم نحصل على عمل في مجال المعرفة الذي أجبرنا على دراسته.

يجب أن ندرس أشياء لن نستخدمها في حياتنا، لكنها أشياء قال لنا أحدهم إن معرفتها هامة: الجبر، علم المثلثات، قانون حمورابي.

يجب ألا نجعل آباءنا حزينين أبداً، حتى لو كان ذلك يعني التخلي عن كلّ شيء يجعلنا سعداء.

يجب أن نعزف الموسيقى بصوت منخفض، نتحدث بصوت

منخفض، نبكي على انفراد؛ لأن *الظاهر* القادر على كلّ شيء هو الذي يضع القواعد، ويحدد المسافة بين مسارات السكة الحديدية، ومعنى النجاح، وأفضل وسيلة للحبّ، وأهمية المكافآت.

توقفنا خارج بناية أنيقة بعض الشيء في منطقة راقية. نقر أحد أفراد المجموعة كلمة السر على الباب الأمامي وصعدنا جميعنا إلى الطابق الثالث. ظننت أننا سنجد إحدى تلك الأسر المتفهمة التي تتحمل أصدقاء ابنهم لكي يبقونه في البيت ويراقبونه. لكن عندما فتحت لوكريسيا الباب كان الظلام يخيم على المكان. وعندما اعتادت عيناي على الضوء المتسرب من الشارع من خلال النوافذ رأيت غرفة جلوس فارغة كبيرة. وكان الديكور الوحيد فيها موقداً ربما لم يستخدم منذ سنوات.

صبي ذو شعر أشقر، طوله ستة أقدام تقريباً، ويرتدي معطفاً واقياً للمطر، دخل المطبخ وعاد يحمل بعض الشموع الموقدة. تحلقّنا جميعنا في دائرة على الأرض، وللمرة الأولى في تلك الليلة، شعرت بالخوف: كنت وكأني في فيلم رعب أوشكت فيه طقوس شيطانية أن تبدأ، وحيث سيكون الضحية الغريب الذي تبعهم بدون تفكير.

بدا ميخائيل شاحباً، وكانت عيناه زائغتين، غير قادرتين على أن تثبتا في مكان واحد، وهذا ما زاد شعوري بالقلق. كان على وشك أن تنتابه نوبة صرع. هل يعرف الحاضرون هنا كيف يتصرفون في مثل هذه الحالة؟ أليس من الأفضل مغادرة المكان الآن، وعدم التورط في مأساة محتملة؟

ربما كان القيام بذلك أكثر الأشياء تعقّلاً، تمشياً مع حياة أعيش فيها مؤلفاً مشهوراً يكتب عن الروحانيات، ويجب أن يكون قدوة. نعم، لو كنت عاقلاً لقلت للوكريسيا بأنها يجب، في حالة

تعرضه للنوبة، أن تضع شيئاً في فم صديقها، لكي لا يتدلى لسانه إلى الوراء، وكي لا يختنق حتى الموت. لا بد أنها تعرف ذلك، لكن في عالم أتباع *الظاهر* الاجتماعي، لا نترك شيئاً للمصادفة، يجب أن نكون في سلام مع ضميرنا.

كان عليّ أن أتصرّف بهذه الطريقة قبل وقوع حادثتي، أما الآن فلم يعد تاريخي الشخصي مهماً. لقد توقّف عن كونه تاريخاً، وبدأ يصبح مرة أخرى أسطورة، بحثاً، مغامرة، رحلة إلى نفسي، وبعيداً عنها. عدت مرة أخرى إلى زمن كانت الأشياء فيه حولي تتغيّر، وبهذه الطريقة أردت أن تكون خلال بقية حياتي. (تذكّرت إحدى أفكاري عن المرثية: «مات وهو مايزال حياً») كنت أحمل معي تجارب ماضيّ التي جعلت ردة فعلي سريعة ودقيقة، لكني لم أكترث بالدروس التي تعلّمتها. تصوّر محارباً في وسط معركة يتوقّف ليقرر الحركة التالية التي يجب أن يتخذها؟ سيموت بعد لحظة.

والمحارب فيّ الذي يستخدم الحدس والتقنية، قد قرّر أني يجب أن أبقى، أن أواصل تجارب هذه الليلة، حتى لو كان الوقت متأخراً، وكنت متعباً وثملاً وأخشى أن تكون ماري القلقة، أو الغاضبة تنتظرني. جلست بجانب ميخائيل لكي أتصرّف بسرعة إذا انتابته نوبة.

لاحظت أنه كان يحاول السيطرة على نوبة الصرع. وشيئاً فشيئاً ازداد هدوءاً، واتخذت عيناه الحدة ذاتها عندما كان ذلك الشابّ المتشح بالبياض على المسرح في المطعم الأرمني.

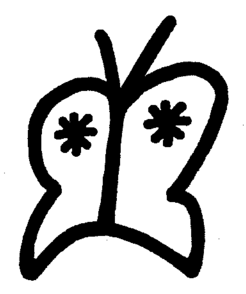
قال: «سنبدأ بالصلاة المعتادة».

أغمض الشباب، الذين كانوا حتى ذلك الوقت سكارى وعدوانيين، عيونهم وشبكوا أيديهم بأيدي بعض، وشكلّوا دائرة كبيرة. حتى الكلبان الألزاسيان اللذان يقعيان في إحدى زوايا الغرفة، كانا هادئين.

«سيدتي العزيزة، عندما أنظر إلى السيارات، إلى واجهات المحلات، لا ينتبه أحد إلى الآخر، وعندما أنظر إلى جميع البنايات والآثار أرى فيها غيابك. اجعلينا قادرين على إعادتك».

تابعت المجموعة بصوت واحد: «أيتها السيدة العزيزة إننا نعرف حضورك في الصعوبات التي نواجهها. ساعدينا بأن لا نستسلم. ساعدينا في أن نفكّر بك بهدوء وعزم، حتى عندما يكون من الصعب قبول أننا نحبّك».

لاحظت أن كلّ واحد منهم كان يضع الرمز نفسه في مكان ما من ثيابهم.



وكان أحياناً في شكل دبوس، أو شارة معدنية، أو قطعة مطرزة، أو حتى كان مرسوماً على القماش بقلم.

«أودّ أن أكرّس هذه الليلة للرجل الجالس إلى يميني. لقد جلس بجانبي لأنه يريد أن يحميني».

كيف عرف ذلك؟

«إنه رجل طيب. يعرف أن الحبّ يتبدّل وهو يدع الحبّ يغيّره. إنه مايزال يحمل معظم تاريخه الشخصي في روحه، لكنه لا ينفك يحاول أن يحرّر نفسه منه، ولهذا السبب فقد بقي معنا هذه الليلة. إنه زوج المرأة التي نعرفها جميعنا، المرأة التي تركت معي أثراً كبرهان على صداقتها وكطلسم».

أخرج ميخائيل قطعة القماش الملطّخة بالدم ووضعها أمامه.

«هذه قطعة من قميص الجندي المجهول. قبل أن يموت، قال للمرأة: اقطعي ثيابي إلى قطع ووزعيها على الذين يؤمنون بالموت والذين يستطيعون أن يعيشوا وكأن اليوم هو يومهم الأخير على الأرض. قولي لهؤلاء بأنني قد رأيت وجه الله؛ قولي لهم ألا يخافوا، لكن ألا يكونوا راضين تماماً. ابحثوا عن الحقيقة الوحيدة التي هي الحبّ. عيشوا وفق قوانينه».

راحوا يحدّقون جميعهم بوجل في قطعة القماش.

«لقد ولدنا في زمن الثورة. إننا نصبّ كلّ حماسنا فيه، نجازف بحياتنا وبشبابنا، وفجأة، يعترينا الخوف، وتلك البهجة الأولية تفسح المجال أمام التحديات الحقيقية: التعب، الرتابة، الشكوك في قدراتنا. نلاحظ أن بعض أصدقائنا قد استسلموا. يجب أن نواجه الوحدة، أن نتحمل المنعطفات الحادة في الطريق، أن نتعرض لبعض السقطات دون أن يكون هناك أحد بقربنا ليساعدنا، وينتهي بنا الأمر بأن نسأل أنفسنا إذا كان الأمر جديراً بكلّ هذا الجهد».

توقّف ميخائيل.

«نعم. وسنتابع مشوارنا، ونحن نعرف أن روحنا، مع أنها أبدية، علقت الآن في شبكة الزمن، بكلّ فرصه وقيوده. سنحرّر أنفسنا من هذه الشبكة بقدر ما نستطيع. وعندما تثبت استحالة ذلك نعود إلى القصة التي حكوها لنا، مع أننا سنتذكّر معاركنا ونكون مستعدين لمواصلة الكفاح ما أن تصبح الظروف ملائمة. آمين».

«آمين»، ردّد الآخرون.

«يجب أن أتحدث إلى السيدة»، قال الشاب الأشقر الذي يرتدي معطفاً واقياً من المطر.

«ليس الليلة. إني متعب».

سمعت همهمة عامة من الاستياء. وبخلاف الأشخاص الذين كانوا في المطعم الأرمني، فقد كانوا يعرفون قصة ميخائيل،

ويعرفون بوجود الحضور الذي كان يشعره بجانبه. نهض ودخل إلى المطبخ ليأتي بكأس من الماء. ذهبت معه.

سألته كيف حصلوا على تلك الشقّة، وقال إنه حسب القانون الفرنسي يمكن لأي شخص أن ينتقل قانونياً إلى مبنى لا يستخدمه مالكه. باختصار فهو مبنى مستولى عليها.

بدأ القلق يعتريني من التفكير بأن ماري تنتظرني الآن. أمسك ميخائيل بذراعي.

«قلت اليوم إنك ستذهب إلى البادية، سأقول لك هذا مرة أخرى: أرجوك خذني معك، يجب أن أعود إلى بلدي، حتى لو لفترة قصيرة، لكني لا أملك نقوداً. لقد اشتقت لأهلي، لأمّي، لأصدقائي. يمكنني أن أقول إن «الصوت يقول لي إنك ستحتاج إليّ». لكن ذلك لن يكون صحيحاً: يمكنك أن تجد إستر بسهولة، وبدون أيّ مساعدة من أحد. لكني بحاجة إلى أن أختزن بعض الطاقة من وطني».

«يمكنني أن أمنحك نقوداً لتشتري بطاقة العودة».

«أعرف أنك تستطيع لكني أريد أن أكون هناك معك، أن أذهب معك إلى القرية حيث تعيش هي، لأشعر بالريح تلفح وجهي، لأساعدك في الطريق الذي سيعيدك إلى المرأة التي تحبّ. كانت ـ وماتزال ـ في غاية الأهمية بالنسبة لي. لقد تعلّمت الكثير من التغيرات التي طرأت عليها، من عزمها، وأريد أن استمر في التعلّم. هل تذكّرت أني كنت أتحدث ذات مرّة عن «القصص المقاطعة»؟ أريد أن أكون بجانبك حتى اللحظة التي نصل فيها إلى بيتها. بهذه الطريقة أكون قد عشت حتى نهاية فترة حياتك ـ وحياتي. عندما نصل إلى بيتها سأتركك وشأنك».

لم أعرف ماذا أقول. حاولت أن أتحدث عن شيء آخر، وسألت عن الناس الموجودين في غرفة الجلوس.

«إنهم أناس يخشون أن ينتهي بهم المآل كما انتهى إليه جيلك،

الجيل الذي حلم بأنه يستطيع أن يثوّر العالم، لكن الأمر انتهى به إلى الاستسلام «للواقع». إننا نتظاهر بأننا أقوياء لأننا ضعفاء. مايزال يوجد قلة منّا، عدد قليل جداً، لكني أظن أنها مجرد مرحلة عابرة؛ فلا يستطيع الناس مواصلة حياتهم وخداع أنفسهم إلى الأبد. الآن ما ردك على سؤالي؟».

«ميخائيل، إنك تعرف كم أريد أن أحرّر نفسي من تاريخي الشخصي. لو كنت قد سألتني منذ قليل لوجدت الأمر مريح جداً، بل ملائم جداً، للسفر معك، لأنك تعرف البلاد والعادات والأخطار المحتملة. أما الآن، ومع أني أشعر بأني يجب أن ألفّ خيط أريادن وأجعله في كرة، وأنجو من المتاهة التي وضعت نفسي فيها فيجب أن أفعل ذلك وحدي. لقد تغيّرت حياتي. إني أشعر كما لو كنت قد صغرت عشر سنين أو حتى عشرين سنة، وهذا بحد ذاته يكفيني لأن أشعر بالرغبة في أن أنطلق بحثاً عن المغامرة».

«متى ستغادر؟».

«حالما أحصل على تأشيرتي. خلال يومين أو ثلاثة أيام».

«فلترافقك السيدة. يقول الصوت إنه الوقت المناسب. إذا غيّرت رأيك، أعلمني».

سرت بين الأشخاص المستلقين على الأرض يتهيؤون للنوم. وفي طريقي إلى البيت خطر لي أن الحياة مبهجة أكثر مما كنت أظن: هناك إمكانية دائماً للعودة صغيراً ومجنوناً مرة أخرى. كنت أركّز بقوة على اللحظة الراهنة إلى حد أني فوجئت أن الناس لم ينكفئوا عني فيما كنت أعبر فوقهم، لم يخفضوا عيونهم خائفين. حتى أنه لم يلحظ أحد وجودي، لكني أحببت الفكرة. فقد كانت هذه المدينة مرة أخرى المدينة التي قال عنها هنري الرابع، عندما أُتِّهم بخيانة دينه البروتستانتي بالزواج من كاثوليكية، «إن باريس تساوي كتلة».

كانت تساوي أكثر من ذلك. استطعت أن أرى مرة أخرى

المذابح الدينية، إراقة الدماء، الملوك، الملكات، المتاحف، القلاع، الفنانين المعذّبين، الكتّاب السكارى، الفلاسفة الذين انتحروا، الجنود الذين خطّطوا لفتح العالم، الخونة الذين أسقطوا سلالة كاملة بإشارة واحدة، القصص التي نُسيت ذات مرة وعادت الآن إلى الذاكرة وحكيت مرة أخرى.

للمرة الأولى بعد زمن طويل وصلت إلى البيت ولم أتوجه مباشرة إلى الكمبيوتر لأتبين إن كان أحدا ما قد أرسل لي رسالة بالبريد الإلكتروني، وإذا كانت هناك مسألة ملحّة تتطلّب إجراءً عاجلاً: لم يكن ثمة شيء عاجل. لم أدخل إلى غرفة النوم لأرى إن كانت ماري نائمة أم لا، لأني كنت أعرف أنها ستتظاهر بأنها نائمة.

لم أفتح التلفاز لمشاهدة أخبار آخر الليل، لأن الأخبار هي الأخبار ذاتها التي كنت أستمع إليها عندما كنت طفلاً: بلد يهدّد بلداً آخر؛ شخص يخون شخصاً آخر؛ الاقتصاد سيئ؛ أمل كبير آلى إلى الإحباط: فقد أخفقت إسرائيل وفلسطين، بعد خمسين سنة طويلة، في التوصّل إلى اتفاق؛ انفجار قنبلة أخرى؛ إعصار خلّف آلافاً من المشرّدين.

تذكّرت أن المحطات الرئيسية في ذلك الصباح، التي لم يكن لديها هجمات إرهابية تتحدث عنها، اختارت كلها مادتها الرئيسية التمرد الذي حدث في هاييتي. ماذا تهمني هاييتي؟ ماذا ستؤثر على حياتي أو على حياة زوجتي، على ثمن الخبز في باريس، على قبيلة ميخائيل؟ كيف يمكنني أن أمضي خمس دقائق من حياتي الثمينة وأنا أستمع إلى شخص يتحدّث عن الثوّار والرئيس، أشاهد الاحتجاجات والمظاهرات العادية في الشوارع التي تتكرر باستمرار، وتُنقل وكأنها حدث عظيم في تاريخ الإنسانية ـ تمرّد في هاييتي! لقد ابتلعت كلّ ذلك! شاهدتها حتى النهاية! يجب أن تصدر

للناس الأغبياء حقاً بطاقات هوية خاصة بهم، لأنهم هم الذين يغذّون الغباء الجماعي.

فتحت النافذة لأدع الهواء الليلي القارس يتسلل إلى الداخل. خلعت ثيابي وقلت لنفسي إني أستطيع مقاومة البرد. وقفت هناك، لا أفكّر بشيء، لا أدرك سوى قدميّ على أرض الغرفة، وعيناي مثبتتان على برج إيفل، وأذنيّ تسمعان عواء الكلاب، وصفاّرات سيارات الشرطة، وأحاديث لم أكن أفهمها حق الفهم.

لم أكن أنا، لم أكن شيئاً ـ وبدا لي أن ذلك شيء رائع للغاية.

«إنك تبدو غريباً».

«ماذا تعني غريباً؟».

«إنك تبدو حزيناً».

«لست حزيناً. أنا سعيد».

«انظر؟ حتى نبرة صَوتك زائفة: إنك حزين من أجلي لكنك لا تجرؤ على قول شيء».

«لماذا يجب أن أكون حزيناً؟»

«لأني رجعت إلى البيت في وقت متأخر من الليلة الماضية وكنت سكراناً. حتى أنكِ لم تسأليني إلى أين ذهبت».

«إنك لست مهتماً».

«لماذا لست مهتماً؟ قلت لك إني سأخرج مع ميخائيل، أليس كذلك؟».

«إذن لم تخرج معه؟».

«بل خرجت معه».

«إذن ماذا تريد أن تُسأل؟».

«ألا تظنين أنه يجب، عندما يصل خليلك الذي تدّعين أنك تحبينه متأخراً إلى البيت أن تحاولي على الأقل معرفة ما حدث؟».

«حسناً، ماذا حدث إذن؟».

«لا شيء. لقد خرجت مع ميخائيل وعدد من أصدقائه».

«حسناً».

«هل تصدقيني؟».

«طبعاً».

«أظن أنك لم تعودي تحبينني. أنت لا تغارين. كما لا تبالين. هل أعود عادة إلى البيت في الساعة الثانية صباحاً؟».

«ألم تقل إنك رجل حرّ؟».

«وأنا كذلك».

«في هذه الحالة، من الطبيعي أن تعود إلى البيت في الساعة الثانية صباحاً، وتفعل ما تريد أن تفعله. لو كنت أمّك لقلقت عليك، لكنك رجل بالغ، أليس كذلك؟ يجب عليكم أنتم الرجال أن تكفوا عن التصرّف كما لو كنتم تريدون أن تعاملكن النساء كالأطفال».

«لا أقصد هذا النوع من القلق. إني أتحدّث عن الغيرة».

«أتريد أن أتشاجر معك الآن، على الفطور؟».

«لا، لا تفعلي ذلك، سيسمعنا الجيران».

«لا يهمني الجيران. لن أتشاجر لأني لا أشعر بالرغبة في ذلك. إن ذلك يشق علي، لكنّي قبلت أخيراً ما قلته لي في زغرب، وأنا أحاول أن أتعود على الفكرة. في هذه الأثناء، إذا كان ذلك يسعدك، يمكنني دائماً أن أتظاهر بأن أكون مجنونة، غاضبة، غيورة، أو ما شابه ذلك».

«كما قلت، إنك تبدين غريبة. بدأت أعتقد أني لم أعد مهماً في حياتك».

«وأنا بدأت أعتقد أنك نسيت أن هناك صحافياً ينتظرك في غرفة الجلوس، وربما كان يستمع إلى حديثنا».

آه، الصحافي. أشغّل الطيار الآلي، لأني أعرف الأسئلة التي سيسألها. أعرف كيف ستبدأ المقابلة («لنتحدّث عن روايتك الجديدة. ما الرسالة الرئيسية فيها؟»)، وأعرف كيف سأردّ («لو كنت أريد أن أوصل رسالة لكتبت جملة واحدة فقط لا كتاباً»).

أعرف أنه سيسألني عن رأيي بالنقّاد الذين ينتقدون أعمالي بشدّة. أعرف أنه سينهي مقابلته بالسؤال: «وهل بدأت تأليف كتاب جديد؟ ما المشاريع التي تعمل عليها الآن؟» وسأجيبه على الفور: «هذا سرّ».

تبدأ المقابلة كما هو متوقّع:

«لنتحدّث عن كتابك الجديد. ما الرسالة الرئيسية التي ينطوي عليها؟».

«لو أردت أن أوصل رسالة لكتبت جملة واحدة لا كتاباً».

«ولماذا تكتب؟».

«لأن هذه هي طريقتي في مشاركة الآخرين بمشاعري». هذه العبارة أيضاً جزء من مخطوطتي للطيار الآلي، لكني أتوقّف وأصحّح نفسي:

«مع أنه يمكن رواية تلك القصة المحددة بطريقة مختلفة».

«بطريقة مختلفة؟ هل تقصد أنك لست مسروراً برواية «وقت للفتق ووقت للرتق؟»».

«لا، بالعكس، أنا في غاية السرور بالكتاب، لكني لست مسروراً بالرد الذي أجبتك به الآن. لماذا أكتب؟ الجواب الحقيقي هو: أنا أكتب لأني أريد أن أكون محبوباً».

رمقني الصحافي بطريقة مريبة: «أيّ نوع من الاعتراف هذا؟».

«أكتب لأني عندما كنت مراهقاً، كنت عديم الفائدة في كرة القدم، لم يكن عندي سيارة أو لديّ مصروف كبير، وكنت مثل عشبة ضارة».

كنت أبذل جهداً كبيراً لمواصلة الحديث. فقد ذكّرني الحديث مع ماري بأن ماضيّ لم يعد له معنى. كنت بحاجة لأن أتحدث عن تاريخي الشخصي الحقيقي لأتحرر منه. تابعت حديثي:

«لم ألبس ثياباً عصرية أيضاً. كان ذلك مركز اهتمام جميع الفتيات في صفي، لذلك كنّ يتجاهلنني. وفي الليل، عندما كان أصدقائي يخرجون مع صديقاتهم، كنت أمضي وقت فراغي في خلق عالم يجعلني سعيداً: وكان رفاقي الكتّاب وكتبهم. وذات يوم كتبت قصيدة لإحدى الفتيات في الشارع حيث كنت أقيم. وجد أحد أصدقائي القصيدة في غرفتي وسرقها، وعندما كنّا مجتمعين أراها للصف كله. ضحك الجميع. كانت في رأيهم سخيفة. لقد كنت عاشقاً!

«كان الشخص الوحيد الذي لم يضحك هو الفتاة التي كتبت القصيدة من أجلها. وفي مساء اليوم التالي، عندما ذهبنا إلى المسرح، أصلحت الأمور بيننا، لذلك جلست بجانبي، وأمسكت بيدي. غادرنا المسرح يداً بيد. كان هناك شخص قبيح تافه، وغير عصري، الذي هو أنا، يمشي مع الفتاة التي كان جميع الفتيان في الصف معجبين بها».

توقّفت. كما لو أني كنت أعود إلى الماضي، إلى اللحظة التي لمست يدها يدي وغيّرت حياتي.

تابعت: «وكلّ ذلك بسبب قصيدة، قصيدة أرتني أنه بالكتابة

وكشف عالمي المخفي يمكنني كذلك أن أنافس زملائي على العالم المرئي في الصف: القوة الجسدية، الثياب العصرية، السيارات، أن أكون جيداً في الألعاب الرياضية».

دُهش الصحافي قليلاً، وقد دهشت أنا بدرجة أكبر. استجمع نفسه، وسأل:

«لماذا تعتقد أن النقّاد يهاجمون أعمالك؟».

كان طياري الآلي سيجيب عادة: «ما عليك إلا أن تقرأ السيرة الذاتية لأيّ كاتب من الماضي الذي أصبح يعتبر الآن كلاسيكياً ـ إني لا أقارن نفسي بهم، إنك تفهم ذلك ـ وسترى كيف كان نقّادهم يهاجمونهم بشدة. والسبب بسيط: فالنقّاد لا يشعرون بالأمان، وهم لا يعرفون حقيقة ما يجري، إنهم ديمقراطيون عندما يتعلق الأمر بالسياسة، لكنهم فاشيون عندما يتعلق الأمر بالثقافة. يخيّل إليهم أن باستطاعة الناس اختيار من يحكمهم، لكن لا توجد لديهم فكرة عندما يتعلق الأمر باختيار الأفلام، أو الكتب، أو الموسيقى».

تخليت عن طياري الآلي مرة أخرى، مع أني أعرف تماماً أنه ليس من المحتمل أن يقوم الصحافي بنشر ردّي.

«هل سمعت بقانون جانت؟».

«لا، لم أسمع به»، قال.

«حسناً، إنه قائم منذ بداية الحضارة، لكن كاتباً دانمركياً كان قد وضعه بشكل رسمي في العام 1933. في بلدة جانت الصغيرة، التي خرج فيها بوصايا عشر يحدد فيها للناس كيف يتصرّفون، ويبدو أنه لا يوجد في جانت فقط، بل في جميع الأماكن أيضاً. وإذا كان عليّ أن ألخصّ الأمر بجملة واحدة، فإني أقول: أن تكون شخصاً عادياً وغير معروف فهو الخيار الأكثر أماناً. فإذا اخترت ذلك فلن تواجه مشاكل رئيسية في الحياة. لكنك إذا حاولت أن تكون مختلفاً...».

«أريد أن أعرف ما هي وصايا جانت تلك»، قال الصحافي الذي بدا مهتماً بحق.

«ليست معي هنا، لكني أستطيع أن ألخّصها لك إذا أحببت».

توجهت إلى كمبيوتري، وطبعت له نسخة ملخصة ومحرّرة.

«إنك نكرة، لا تجرؤ حتى على أن تفكر بأنك تعرف أكثر مما نعرف. إنك عديم الأهمية، لا يمكنك أن تفعل شيئاً بشكل صحيح، لا أهمية لعملك، لكنك ما دمت لا تتحدّانا، فإنك ستعيش حياة سعيدة. خذ دائماً ما نقوله بجدية ولا تسخر أبداً من آرائنا».

طوى الصحافي الورقة ووضعها في جيبه.

«إنك على حق. إذا كنت نكرة، إذا لم يكن لعملك أهمية، فهو يستحقّ المديح. أما إذا خرجت من وضعك الذي يقل عن المتوسط ونجحت فإنك تتحدّى القانون وتستحقّ العقاب».

كنت سعيداً للغاية بأنه توّصل إلى هذه النتيجة وحده.

«ليس النقّاد وحدهم من يقول»، أضفت. «بل أناس كثيرون، أكثر بكثير مما تظن، يقولون الشيء ذاته تماماً».

في وقت لاحق من بعد ظهر ذلك اليوم، اتصلت بهاتف ميخائيل الخليوي:

«لنسافر إلى كازاخستان معاً».

لم يبد أنه فوجئ بهذا على الإطلاق. كلّ ما فعله أنه شكرني وسألني ما الذي جعلني أغيّر رأيي.

«منذ سنتين أصبح *الظاهر* ركناً أساسياً في حياتي. ومنذ أن التقيت بك وأنا أسير في درب طويل منسي، مسار سكة حديدية مهجور نمت الأعشاب بين قضبانه؛ لكن مايزال بوسع القطارات أن تستخدمه. ولم أصل بعد إلى المحطة النهائية، لذلك لا يمكنني أن أتوقف في منتصف الطريق».

سألني إن كنت قد حصلت على تأشيرة دخول. قلت له إن بنك ردّ الجميل هبّ لمساعدتي مرة أخرى: كان أحد الأصدقاء الروس قد اتصل بصديقته، وهي مديرة صحيفة رئيسية في كازاخستان. خابرت السفير في باريس، وستكون التأشيرة جاهزة بعد الظهر.

«متى نغادر؟».

«غداً. لكي نشتري التذاكر، أريد فقط أن أعرف اسمك الحقيقي؛ إن وكيل السفر موجود على الخطّ الآخر الآن».

«قبل أن تغلق الخط أريد أن أقول شيئاً واحداً فقط: لقد أحببت

حقاً ما كنت قد قلته عن المسافة التي تفصل بين مساريّ السكة الحديدية وما قلته الآن عن خطّ السكة الحديدية المهجور، لكنني لا أظن أن هذا هو السبب الذي جعلك تطلب مني أن أسافر معك. أظن أنه بسبب شيء كنت قد كتبته ذات مرّة، والذي أعرفه عن ظهر قلب. فقد كانت زوجتك تستشهد بهذه السطور دائماً، وما يقولونه رومانسي أكثر بكثير من بنك ردّ الجميل ذاك:

ففارس النور يعرف أن لديه الكثير ليكون ممتناً له.

فقد ساعدته الملائكة في نضاله، ووضعت القوى السماوية كلّ شيء في مكانه، لكي يقدم أفضل ما عنده. ولهذا السبب فهو يسجد عند الغروب، ويقدّم الشكر للعباءة الوقائية التي تحيط به.

ويقول رفاقه: «إنه محظوظ جداً!» لكنه يعرف أن «الحظ» هو أن يعرف المرء كيف يتطلع حوله، ويرى أين هم أصدقاؤه الحقيقيون، لأنه من خلال كلماتهم تمكنت الملائكة من أن تصبح مسموعة.

«إني لا أتذّكر دائماً ما كتبت، لكني أشكرك على ذلك. الآن كلّ ما أحتاج إليه هو اسمك لأعطيه إلى وكيل السفر».

يستغرق الردّ على الهاتف مع شركة سيارات الأجرة عشرين دقيقة. صوت غاضب يقول لي عليّ أن أنتظر نصف ساعة أخرى. تبدو ماري سعيدة في ثوبها الأسود المثير الرائع، وتذكرت المطعم الأرمني والرجل الذي اعترف بأنه يستثار عندما يفكّر بأن زوجته يرغبها رجال آخرون. أعرف أن النساء جميعهن سيرتدين في حفل العشاء هذا ثياباً مصممة بطريقة تجعل أثداءهن وأعطافهن مركز الانتباه، وسيقول أزواجهن أو أصدقاؤهن، الذين يعرفون أن زوجاتهم أو صديقاتهم مرغوبات من الرجال الآخرين، لأنفسهم: «حسناً، القوا نظرة فاحصة، لكن ابقوا بعيدين، لأنها معي، وهي لي. وأنا أفضل منكم، لأني أملك شيئاً تتمنون جميعكم أن يكون لديكم».

لن أفعل شيئاً، لن أوقّع عقوداً أو أجري مقابلات؛ بل سأحضر الحفلة فقط لأسدّد حساباً كان أودع في حسابي في بنك ردّ الجميل. سأجلس بجانب شخص ممل في العشاء، شخص يسألني من أين يأتيني الإلهام لتأليف كتبي. وربما كان هناك إلى جانبي، من الطرف الآخر ثديان مكشوفان لزوجة صديق، وسيتعين عليّ أن أشيح بنظري، لأنه إن وقعت عيني عليها مصادفة، حتى لوهلة صغيرة، فإنها ستخبر زوجها بأني لا أرفع عيني عنها. وبينما ننتظر سيارة الأجرة رحت أعدّ قائمة بالمواضيع المحتملة للحديث:

(أ) تعليقات عن مظهر الناس: «إنك تبدين في غاية الروعة».

«ياله من ثوب جميل». «بشرتك تبدو رائعة». وعندما يعودون إلى بيوتهم سيقولون كيف كان الجميع يرتدون ثياباً بطريقة سيئة وكيف كانوا يبدون مريضين.

(ب) العطل في الآونة الأخيرة: «يجب أن تزور أوروبا، إنها رائعة». «لا يوجد شيء مثل قضاء ليلة صيف في كانكون، وأنت ترشف كأساً من المارتيني على شاطئ البحر». في الحقيقة لا أحد يستمتع كثيراً في هذه العطل، بل يشعرون بإحساس من الحرية لبضعة أيام، ويشعرون بأنهم مضطرون للاستمتاع لأنهم ينفقون كلّ هذه الأموال.

(ج) مزيداً من العطل هذه المرة إلى الأماكن التي يشعرون بالحرية في انتقادها: «كنت في ريو دي جانيرو مؤخراً، يا لها من مدينة عنيفة». «الفقر في شوارع كلكوتا مريع حقاً». فهم لا يذهبون إلى تلك الأماكن إلا ليشعروا بتفوقهم بأنهم يتمتعون بامتيازات، ثم يعودون إلى واقعهم الحقير في حياتهم الصغيرة، حيث لا يوجد، على الأقل، فقر أو عنف.

(د) علاج جديد: «أسبوع واحد فقط من احتساء عصير عشب القمح يؤدي إلى تقوية قوام شعرك حقاً». «لقد أمضيت يومين في حمّام للمياه المعدنية في بياريتز، فالماء هناك يفتح المسامات ويزيل السموم». وفي الأسبوع التالي سيكتشفون أنه لا يوجد لعشب القمح أية خصائص خاصة وأن أي مياه حارة قديمة ستفتح المسامات وتزيل السموم.

(هـ) أشخاص آخرون: «لم أر فلاناً منذ زمن بعيد، ماذا ينوي أن يفعل؟» «عرفت أن فلانة تمر في صعوبات مالية وأن عليها أن تبيع شقتها». ويمكنهم أن يتحدّثوا عن الأشخاص الذين لم يدعوا إلى هذه الحفلة، ويمكنهم أن ينتقدوا من أحبّوا، طالما انتهى بهم الأمر بالقول بنبرة بريئة تشي بالعطف: «ومع ذلك فهو مايزال شخصاً رائعاً».

(و) بضع شكاوى صغيرة عن الحياة، فقط لإضافة شيء من النكهة إلى الأمسية: «أتمنى أن يحدث شيء جديد في حياتي». «إني شديد القلق على أطفالي، فهم لا يستمعون أبداً إلى الموسيقى الملائمة أو يقرؤون أدباً جيداً». وينتظرون تعليقات من الآخرين الذين يعانون من المشكلة ذاتها، وعندها يشعرون بأنهم ليسوا وحيدين ويغادرون الحفلة سعداء.

(ز) في اللقاءات الثقافية، كهذا اللقاء هذا المساء، سنناقش: الصراع في الشرق الأوسط، مشكلة الإسلاموية، آخر المعارض، آخر معلّم فلسفة، الكتاب الرائع الذي لم يسمع عنه أحد، الواقع بأن الموسيقى لم تعد كما كانت؛ سنعرض آراءنا المعقولة الذكية التي تناقض تماماً مشاعرنا الحقيقية لأننا نعرف جميعنا كم نكره الذهاب إلى تلك المعارض، ونقرأ هذه الكتب التي لا تطاق، أو نرى تلك الأفلام الكئيبة، فقط ليكون لدينا شيء نتحدّث عنه في ليال كهذه الليلة.

تصل سيارة الأجرة، وفيما نتجه إلى المكان أضيف فقرة شخصية جداً أخرى إلى قائمتي: أشتكي لماري كم أكره حفلات العشاء هذه. إنها تذكّرني ـ وهذا شيء صحيح ـ بأني استمتعت في النهاية وأمضيت وقتاً رائعاً.

ندخل أحد المطاعم الباريسية الفخمة، ونتوجّه إلى غرفة حجزت لهذه المناسبة ـ تقديم جائزة أدبية كنت أنا أحد المحكّمين فيها. الجميع يقفون ويتحدثون، يحييني البعض وينظر إليّ آخرون ويبدون بعض التعليقات مع بعضهم البعض. يتقدم مني منظّم الجائزة، ويقدّمني إلى الحضور، دائماً بالكلمات المزعجة ذاتها: «طبعاً تعرفون من هو هذا الرجل». يبتسم البعض ابتسامة تقدير، ويبتسم البعض الآخر فقط، وهم لا يعرفونني على الإطلاق، لكنهم يتظاهرون بأنهم يعرفون من أنا، لأن الاعتراف بغير ذلك سيكون

بمثابة قبول أن العالم الذي يعيشون فيه غير موجود، وأنهم لا يتمكنون من مجاراة الأشياء التي تهم.

أتذكّر القبيلة في الليلة الماضية وأقول لنفسي: يجب وضع جميع الأغبياء في سفينة في عرض البحر وإرغامهم على حضور الحفلات ليلة بعد ليلة، وتقديمهم إلى أناس بشكل لانهائي لشهور عديدة حتى يتذكروا أخيراً من هم.

أرسم لنفسي دليلاً عن نوعية الناس الذين يحضرون مناسبات كهذه. عشرة في المائة أعضاء، صانعو القرار الذين جاؤوا الليلة بسبب دين يدينون به إلى بنك ردّ الجميل، لكن قد تكون مفيدة لعمل الذين يبقون عيونهم مفتوحة ويترصدون كلّ شيء - كيف يُجمع المال، أين يُستثمر - ويمكنهم أن يعرفوا قريباً إن كانت هذه المناسبة مربحة أم لا، وهم دائماً أول من يغادرون الحفلة. إنهم لا يضيّعون وقتهم أبداً.

واثنان في المائة من المواهب التي تملك حقاً مستقبلاً واعداً، تمكنت من عبور بضعة أنهار، وأصبحت تدرك وجود بنك ردّ الجميل وهي جميعها زبائن محتملة، فلديها خدمات مهمة تقدمها، لكنها لم تتمكن بعد من اتخاذ قرارات. وهم دمثون إزاء الجميع لأنهم لا يعرفون تماماً مع من يتكلّمون، وهم أكثر انفتاحاً من الأعضاء، لأنه بالنسبة لهم فإن أيّ طريق قد يفضي إلى مكان ما.

وثلاثة في المائة هم ما أدعوهم «التوباماروس»، تكريماً لمجموعة الفدائيين في الأورغواي السابقة. فقد تمكنوا من اختراق هذه الحفلة ويسعون بأي شكل من الأشكال إلى التواصل؛ وهم ليسوا متأكدين إن كانوا سيبقون أم ينتقلون إلى حفلة أخرى تقام في الوقت نفسه؛ إنهم قلقون. إنهم يريدون أن يظهروا مدى مواهبهم، لكنهم لم يدعوا، لم يتسلقوا الجبال الأولى، وما أن يعرف ذلك المدعوون الآخرون حتى يسحبوا على الفور أيّ اهتمام كانوا يولونه لهم.

أما الخمسة والثمانون في المائة المتبقون فهم الصواني. وإني أدعوهم بالصواني لأنه، كما لا يمكن أن يوجد أي حزب بدون هذه الأداة بالذات، لا يمكن إقامة أي حفل بدون هؤلاء المدعوين. فالصواني لا تعرف حقاً ما يجري، لكنها تعرف أن وجودها هناك مهم؛ إنهم على قائمة الضيوف التي وضعها المروّجون لأن نجاح شيء كهذا يتوقف أيضاً على عدد الحاضرين. فقد كانوا جميعهم شيئاً مهماً في السابق ـ أو ـ أصحاب مصارف سابقين، مديرين سابقين، زوج سابق لامرأة مشهورة، الزوجة السابقة لرجل يشغل موقعاً نافذاً الآن. إنهم الدوقات في بلاد لم يعد فيها ملوك، وأميرات ومركيزات يعشن من تأجير قصورهن. يتنقلون من حفلة لأخرى، من عشاء لآخر، وإني أتساءل، ألا يملون من ذلك؟

عندما علّقت على هذا الأمر مؤخراً لماري، قالت إنه كما أن البعض يدمن على العمل فإن البعض الآخر يدمن على المرح أيضاً. وأفراد المجموعتين حزينون، ومقتنعون بأن ثمة شيئاً ينقصهم، لكنهم غير قادرين على التخلّي عن رذيلتهم.

اقتربت مني صبية شقراء جميلة فيما كنت أتكلّم مع أحد منظمي مؤتمر عن السينما والأدب، وقالت لي كم استمتعت بقراءة رواية «وقت للفتق ووقت للرتق». وقالت إنها من أحد البلدان الواقعة على بحر البلطيق، وتعمل في أحد الأفلام. وعلى الفور صنفتها بأنها من فئة التوباماروس، لأنها فيما كانت تبدو أنها مهتمة بشيء واحد (الأنا)، فهي في واقع الأمر كانت مهتمة بشيء آخر (منظّم المؤتمر). ورغم ارتكابها هذه الحماقة التي لا تكاد تغتفر، ماتزال ثمة فرصة بأنها قد تكون فتاة موهوبة تعوزها الخبرة. سألها منظم المؤتمر عما تقصده بقولها «تعمل في أحد الأفلام»، فقالت الصبية إنها تكتب مراجعات عن أفلام لإحدى الصحف، وقد نشرت كتاباً (عن السينما؟ لا، عن حياتها ـ حياتها القصيرة المملّة، كما أتصوّر).

ثم ارتكبت الخطيئة الكبيرة واستبقت الأحداث وسألت إن كانت

ثمة إمكانية لدعوتها إلى الاحتفال الذي سيقام هذه السنة. فقال منظم المؤتمر إن المرأة التي تنشر كتبي في البلد الذي يقع على بحر البلطيق الذي جاءت منه، تتمتع بنفوذ (وقلت لنفسي وهي جميلة للغاية أيضاً)، مدعوة. استمرّا في محادثتي. تباطأت التوباماروس بضع دقائق أخرى، لا تعرف ماذا ستقول، ثم ذهبت.

وبما أنها كانت جائزة أدبية، فقد كان معظم المدعوين الليلة من التومباروس والمواهب والصواني ينتمون إلى عالم الفن. وكان الأعضاء، من الناحية الأخرى، إما من الجهة الراعية، أو أشخاصاً على صلة بالمؤسسات التي تدعم المتاحف، وحفلات الموسيقى الكلاسيكية، والفنانين الشباب الواعدين. وبعد أحاديث مختلفة حاول فيها المرشّحون للجائزة تلك الليلة ممارسة أشد الضغوط كي يفوزوا بها، صعد رئيس التشريفات إلى المشرحة، وطلب من الجميع أن يأخذوا أماكنهم إلى طاولاتهم (جلسنا جميعنا)، ورحنا نتبادل بعض النكات (وهذا جزء من الطقوس، وضحكنا جميعنا)، وقالوا إن أسماء الفائزين ستعلن بعد فترة الاستراحة.

كنت أجلس على رأس الطاولة، مما مكنني من الإبقاء على الصواني على مسافة آمنة، وأقصد أيضاً أنه لم يكن يتعينّ عليّ أن أبالي بأية مواهب متحمسة وأنانية. كنت أجلس بجانب مديرة شركة لصناعة السيارات، راعية الحفل، والتي كانت قد ورثت مبلغاً من المال، وقرّرت أن تستثمره في الفن. ولدهشتي لم تكن أي من النساء ترتدي ثوباً يكشف عن الصدر على نحو استفزازي. وكان الضيوف الآخرون الجالسون إلى طاولتنا: مدير شركة لإنتاج العطور، وأمير عربي (الذي لا شكّ أنه كان في زيارة لباريس، وقد انقض عليه أحد المروّجين لإضافة بريق إلى الحفل)، ومصرفي إسرائيلي يقوم بجمع مخطوطات تعود إلى القرن الرابع عشر، والمنظم الرئيسي لحفل الليلة، بالإضافة إلى القنصل الفرنسي لدى موناكو، وامرأة شقراء لا أعرف سبب حضورها هنا تماماً، مع أني كنت أشكّ في أنها عشيقة منظم الحفل التالية.

كان عليّ أن أبقي نظارتي وأختلس النظر لأقرأ أسماء الأشخاص على جانبيّ (يجب أن أوضع على تلك السفينة الخيالية، وقد دعيت إلى هذه الحفلة نفسها عشرات المرات حتى أني حفظت أسماء جميع المدعوين عن ظهر قلب). وحسب ما يقتضي البروتوكول فقد أُجلست ماري إلى طاولة أخرى. فقد قرّر أحدهم، في فترة ما، أنه يتعين على الأزواج أن يجلسوا منفصلين في حفلات العشاء الرسمية، وبهذه الطريقة لا تعرف إن كان الجالس بجانبك متزوّج أم أعزب، أم متزوّج ولكنه متاح. أو ربما خيّل لأحدهم أنه إذا جلس الزوجان معاً فإن أحدهما سيكلّم الآخر، لكنهما في تلك الحالة لماذا يخرجان - لماذا يأخذان سيارة أجرة ويذهبان إلى العشاء في المقام الأول؟

كما تنبأت في قائمتي عن مواضيع الأحاديث المحتملة، بدأنا حديثاً ثقافياً لمدة وجيزة - أليس هذا معرض رائع، أليست تلك مراجعة ذكية... أريد أن أركّز على المقبلات - الكافيار مع سمك السلمون والبيض - غير أن الأسئلة المعتادة نفسها تقاطعني باستمرار عن كيف تسير أمور كتابي الجديد، ومن أين يأتي إلهامي، وإن كنت أعمل حالياً على مشروع جديد. كان يبدو أن الجميع على درجة عالية من الثقافة، ويمكن للجميع أن يذكروا - كما لو كان بالمصادفة بالطبع - شخصاً مشهوراً صدف أيضاً أنه كان صديقاً مقرّباً. وكان باستطاعة الجميع التحدث بشكل مقنع عن الأوضاع السياسية الحالية، أو عن المشاكل التي تواجهها الثقافة.

«لماذا لا نتحدّث عن شيء آخر؟».

خرج السؤال دون قصد. صمت جميع الجالسين إلى الطاولة. فمن الوقاحة أن تقاطع الآخرين وهم يتكلمون، والأسوأ من ذلك أن يلفت المرء الاهتمام إلى نفسه. إلا أنه يبدو أن جولة ليلة أمس في شوارع باريس متنكراً في شكل شحاذ قد ألحقت ضرراً يتعذر إصلاحه، مما يعني أني لم أعد أحتمل مثل هذه الأحاديث.

«يمكننا أن نتحدّث عن المرشد: تلك اللحظة من حياتنا التي نقرر فيها أن نهجر رغباتنا، ونعتمد الرغبات الموجودة لدينا».

لم يكن يبدو أن أحداً كان مهتماً. قرّرت أن أغيِّر الموضوع. «يمكننا أن نتحدّث عن أهمية نسيان القصة التي رويت لنا ومحاولة أن نعيش قصة مختلفة كلياً. حاول أن تفعل شيئاً مختلفاً كلّ يوم ـ كالتحدث مع الشخص الجالس إلى الطاولة بجانبك في مطعم، زيارة مستشفى، وضع قدمك في بركة ماء، الإصغاء إلى ما يقوله شخص آخر، السماح لطاقة الحبّ أن تتدفّق بحرية بدلاً من أن تضعها في دورق وتركنها في الزاوية».

«هل تتحدّث عن الزنا؟» سأل مدير شركة إنتاج العطور.

«لا، أقصد أن تدع نفسك تصبح آلة للحبّ لا سيداً لها، أن تكون مع شخص لأنك تريد حقاً أن تكون معه، لا لأن العادات تفرض عليك ذلك».

برهافة كبيرة، وبمسحة من السخرية، أكدّ لي القنصل الفرنسي لدى موناكو أن جميع الجالسين إلى طاولتنا يمارسون بالطبع ذلك الحقّ وتلك الحرية. ووافق الجميع، رغم أنهم لم يصدقوا أنه أمر حقيقي.

«الجنس!» صاحت الشقراء التي لم يستطع أحد معرفة حقيقة دورها في تلك الأمسية. «لماذا لا نتحدّث عن الجنس؟ إنه أكثر إثارة للاهتمام وأقل تعقيداً بكثير من أشياء أخرى».

على الأقل كانت ملاحظتها تلقائية. أطلقت إحدى الجالسات بجانبي ضحكة تشي بالسخرية، لكني رحت أصفّق.

«من المؤكد أن الجنس يثير الاهتمام أكثر من أي شيء آخر، لكني لست واثقاً من أنه موضوع مختلف من الحديث. بالإضافة إلى ذلك فلم يعد الحديث عن الجنس أمراً محرّماً».

«كما أن الحديث عنه ينم عن ذوق سيّء للغاية»، قال أحد الجالسين إلى جانبي.

«هل يمكننا أن نعرف ما هي الأشياء الممنوعة؟» سأل المنظّم الذي بدأ يشعر بعدم الارتياح.

«حسناً، المال مثلاً. جميع الجالسين حول هذه الطاولة يملكون المال، أو أننا تدّعي بأننا نملكه. ويخيّل إليّ أننا دعينا إلى هذا المكان لأننا أغنياء ومشهورون وأصحاب نفوذ. لكن هل فكّر أحدنا بأن يستغل هذا النوع من الحفلات لمعرفة كم يكسب كلّ شخص منا في واقع الأمر؟ فبما أننا واثقون جميعنا من أنفسنا، بأننا على درجة كبيرة من الأهمية، فلماذا لا ننظر إلى عالمنا كما هو في الواقع، وليس كما نتخيّل في أنه يجب أن يكون؟».

«إلى ماذا ترمي؟» سألت مديرة شركة صناعة السيارات.

«إنها قصة طويلة. يمكنني أن أبدأ بالحديث عن هانز وفريتز وهما جالسان في إحدى الحانات في طوكيو، ويذكران بدوياً منغولياً يقول إننا يجب أن ننسى من نحن كي نصبح من نحن حقاً».

«لقد أضعتني».

«إنه خطئي. أنا لم أفسرّ حقاً. لكن لندخل في دقائق الأمور: أريد أن أعرف كم يكسب كلّ واحد منا من أموال».

ساد صمت مؤقت ـ مقامرتي لم تجد نفعاً. راح الآخرون الجالسون حول الطاولة ينظرون إليّ بعيون مندهشة: فالسؤال عن وضع المرء المالي يعد من المواضيع المحرمّة أكثر من الجنس، وأكثر استهجاناً من السؤال عن الخيانة أو الفساد أو الدسائس والمؤامرات البرلمانية.

أما الأمير العربي، وربما لأنه كان يشعر بالملل من حفلات الاستقبال والمآدب تلك بثرثراتها الفارغة، وربما لأنه في ذلك اليوم قال له طبيبه إنه سيموت، أو ربما لسبب آخر ـ فقد قرّر أن يجيب عن سؤالي:

«أكسب ما يقرب من عشرين ألف يورو في الشهر، وهذا يتوقف

على المبلغ الذي يوافق عليه البرلمان في بلدي. ولا علاقة لهذا بما أنفق، لأنه توجد لديّ ـ ما يسمّى بعلاوة ترفيه ـ غير محدودة. بمعنى آخر، أنا هنا بفضل سيارة السفارة وسائقها؛ والثياب التي أرتديها من أملاك الحكومة؛ وسأسافر غداً إلى بلد أوروبي آخر على متن طائرة خاصة، بالإضافة إلى تكاليف الطيار، أما الوقود، وضرائب المطار، فتخصم من تلك العلاوة».

وأنهى كلامه بقوله:

«إن الحقيقة الظاهرة ليست علماً دقيقاً».

إذا كان بوسع الأمير أن يتكلّم بهذه الصراحة، مع أنه من الناحية التراتبية الشخص الأكثر أهمية على الطاولة، فليس من المحتمل أن يحرجه الآخرون بالبقاء صامتين. يجب أن يشاركوا في اللعبة كي لا يشعروا بالإحراج.

«لا أعرف كم أكسب بدقة»، قال منظّم الحفل، أحد ممثلي بنك ردّ الجميل الكلاسيكيين، والذي يعرفه البعض بأنه نصير قوي. «زهاء عشرة آلاف يورو في الشهر، لكنني أيضاً أحصل على علاوة ترفيه من مختلف المنظمات التي أترأسها. يمكنني أن أخصم كلّ شيء ـ العشاء، الغداء، الفنادق، تذاكر الطائرات، حتى الثياب ـ مع أنه لا توجد لديّ طائرة خاصة».

نفد النبيذ. أشار إلى أحد النادلين وأترعت كؤوسنا مرة أخرى. وجاء الآن دور مديرة شركة صناعة السيارات، التي كانت تكره منذ البداية فكرة التحدّث عن المال، لكنها بدت الآن تستمتع بذلك.

«أظن أني أكسب المبلغ نفسه تقريباً، وأحصل على علاوة ترفيه غير محدودة».

واعترف الواحد تلو الآخر بالمبلغ الذي يكسبه. وكان المصرفي أغناهم جميعهم، إذ كان يكسب عشرة ملايين يورو في السنة،

بالإضافة إلى الأسهم الموجودة في مصرفه التي تزداد قيمتها باستمرار.

عندما جاء دور الصبية الشقراء التي لم يقدمها أحد رفضت أن تجيب:

«هذا جزء من حديقتي السرية. إنه لا يخص أحداً».

«بالطبع لا يخص أحداً، لكننا نلعب لعبة فقط»، قال منظّم الحفل.

رفضت المرأة المشاركة في الحديث، وبذلك وضعت نفسها في مرتبة أعلى من الآخرين: إذ كانت الوحيدة في المجموعة التي لديها أسرار لا تريد البوح بها. لكنها بوضع نفسها في مرتبة أعلى لم تنجح إلا في اكتساب ازدراء الآخرين. فقد كانت تخشى الإحساس بالمهانة من راتبها البائس، لكنها بتصرفها الغامض أهانت الآخرين جميعهم، ولم تكن تدرك أن معظم الناس هناك يعيشون دائماً على حافة الهاوية، ويعتمدون كلية على علاوات الترفيه التي يمكن أن تتوقف بين ليلة وضحاها.

كان لا بد أن يصل دوري.

«هذا يتوقف على الوقت. ففي السنة التي أنشر فيها كتاباً جديداً يمكن أن أكسب خمسة ملايين يورو. وإذا لم أنشر كتاباً فإني أكسب ما يقرب من مليونيّ يورو من ريع الحقوق على العناوين السابقة».

«لقد سألت هذا السؤال لكي تقول لنا كم تكسب»، قالت الشابة ذات «الحديقة السرية» لكن كلامها هذا لم يرق لأحد.

أدركت أنها أدّت حركة خاطئة في السابق، وتحاول الآن تصحيح الأمر بمواصلة الهجوم.

فقال الأمير: «بالعكس، كنت أتوقّع أن يكون مؤلفاً بارزاً مثلك أغنى بكثير».

نقطة لصالحي. لم تفتح المرأة الشقراء فمها ثانية طوال الليل.

الحديث عن المال كسر سلسلة المحرمات، مع أن المبلغ الذي يكسبه الناس يعتبر من أشد المحرّمات. وبدأ النادل يظهر في فترات متلاحقة، وبدأت زجاجات النبيذ تفرغ بسرعة كبيرة، وصعد منظّم الحفل إلى خشبة المسرح، وأعلن الفائز، وقدّم الجائزة، وعاد لينضم ثانية إلى الحديث، الذي استمر مع أن الآداب العامة تقتضي بأن نصمت عندما يتكلّم أحد. ناقشنا ما فعلناه بمالنا (وهذا يتضمن في الغالب شراء وقت فراغ، أو السفر، أو مزاولة الرياضة).

فكّرت بتغيير المسار، وأن أسألهم عن نوع الجنازة التي يريدونها ـ فالموت من المواضيع المحرّمة كالمال ـ لكن الجوّ كان مفعماً بالحماس، وكان لكلّ واحد منهم الكثير الذي يريد أن يقوله، لذلك قرّرت أن أصمت.

«إننا نتحدّث جميعنا عن المال، لكنكم لا تعرفون ما هو المال»، قال المصرفي. «لماذا يظن الناس أن لبضع أوراق ملوّنة، وبطاقة بلاستيكية، أو عملة مصنوعة من المعدن من الدرجة الخامسة أيّ قيمة؟ بل الأسوأ من ذلك، هل تعرفون أن أموالكم، ملايين الدولارات التي تملكونها، لا تعدو كونها نبضات إلكترونية؟»

بالطبع نعرف.

ثم تابع: «ذات يوم كانت الحلي التي تتزين بها السيدات تصنع من المواد النادرة التي يسهل نقلها وعدّها وتوزيعها من اللآلئ، وسبائك الذهب، والأحجار الكريمة. كنا جميعنا نحمل ثروتنا معنا على الملأ. وكانت تتم مقايضة هذه الأشياء بالماشية أو الحبوب، لأنه لا يمكن لأحد أن يسير في الشارع وهو يحمل ماشية أو أكياس حبوب. والمضحك أننا ما نزال نتصرّف مثل القبائل البدائية فنضع حلينا لنظهر مدى ثرائنا، مع أننا في معظم الأحيان نملك حلياً أكثر مما نملك من المال».

فقلت: «إنه القانون العشائري. ففي أيام شبابي كان الشباب

يطيلون شعورهم، أما الآن فهم يضعون حلقات في أجسامهم. وهذا الأمر يساعدهم في أن يكونوا متشابهين، رغم أنهم لا يقدرون على شراء شيء».

«هل تستطيع النبضات الإلكترونية أن تشتري ساعة أخرى في الحياة؟ لا. هل يمكن للمال أن يعيد الأحبة الذين غادروا الحياة؟ لا. هل يمكنه أن يشتري الحبّ؟»

«بالتأكيد تستطيع أن تشتري الحبّ»، قالت مديرة شركة صناعة السيارات، بابتسامة، لكن عينيها كانتا تشيان بحزن فظيع. تذكرت إستر وما قلته للصحافي في المقابلة التي أجريتها في ذلك الصباح. نحن الأذكياء الأقوياء الأغنياء نعرف في أعماقنا أننا حصلنا على هذه الحلي وبطاقات الائتمان لنجد الحبّ والمودّة، ولنعيش مع شخص يحبّنا.

«ليس دائماً»، قال مدير شركة إنتاج العطور بعد أن التفت ونظر إليّ.

«لا، إنك على حق، ليس دائماً. ومع ذلك فقد هجرتني زوجتي، وأنا رجل غني. بالمناسبة، هل يعرف أي منكم على هذه الطاولة عدد القطط وعدد أعمدة المصابيح على ظهر ورقة الدولار من فئة العشر دولارات؟».

لم يكن أحد يعرف ولم يبد أحد اهتماماً بذلك. وكان التعليق حول الحبّ قد أفسد جوّ المرح تماماً، وعدنا للحديث عن الجوائز الأدبية، والمعارض، وآخر فيلم، والمسرحية التي حققت نجاحاً غير متوقّع.

«كيف كان الحال على طاولتك؟».

«أوه، كالعادة».

«حسناً، أما أنا فقد أثرت مناقشة ممتعة عن المال، لكن للأسف انتهت بمأساة».

«متى ستغادر؟».

«يجب أن أغادر في السابعة والنصف صباحاً، وبما أنك ستطيرين إلى برلين فيمكننا أن نأخذ سيارة أجرة معاً».

«إلى أين ستذهب؟».

«إنك تعرفين إلى أين سأذهب. لم تسأليني، لكنك تعرفين».

«نعم، أعرف».

«وكما تعرفين فإننا نودّع بعضنا في هذه اللحظة بالذات».

«يمكننا أن نعود إلى الوقت الذي التقينا فيه في أول مرة: رجل في حالة عاطفية سيئة جداً بسبب شخص هجره، وامرأة مجنونة بحبّ جارها. يمكنني أن أكرّر ما قلته لك ذات مرّة: سأحارب حتى النهاية الأليمة. حسناً، لقد قاتلت وخسرت، والآن ما عليّ إلا أن ألعق جراحي وأغادر».

«وأنا قاتلت وخسرت أيضاً. إني لا أحاول أن أرتق ما فتقته. وأنا مثلك أريد أن أحارب حتى النهاية الأليمة».

«أنا أعاني كلّ يوم، هل تعرف ذلك؟ أعاني منذ أشهر، أحاول أن أريك مقدار حبي لك، كيف لا تكون الأشياء هامة إلا عندما تكون بجانبي. أما الآن، سواء كنت أتألم ألم لا، فقد قرّرت أنه يجب وضع حدّ لذلك. لقد انتهى كلّ شيء. لقد تعبت. فبعد تلك الليلة في زغرب أنزلت حارسي وقلت لنفسي: إذا جاءتني الضربة فلتأت. يمكنها أن تلقيني أرضاً، يمكنها أن تحطمني، لكني ذات يوم سأتماثل للشفاء».

«ستجدين شخصاً آخر».

«بالطبع: فأنا شابة، وجميلة، وذكية ومشتهاة، لكني سأمرّ عبر جميع الأشياء التي عشتها معك؟».

«ستختبرين عواطف مختلفة، وأنت تعرفين ذلك، مع أنك لا تصدقين ذلك، فقد أحببتك عندما كنا معاً».

«إني واثقة من ذلك، لكن هذا لا يخفف من حدة الألم. سنغادر في سيارتيّ أجرة منفصلتين غداً. أنا أكره الوداع وخاصة في المطارات، أو في محطات القطارات».

العودة إلى إيثاكا

سننام الليلة هنا، وسنواصل غداً رحلتنا على ظهر الحصان. لا تستطيع سيارتي أن تسير فوق رمال البادية».

كنّا في أحد المخابئ الذي بدا أنه من مخلفات الحرب العالمية الثانية. رحّب بنا رجل برفقة زوجته وحفيدته، وأرانا غرفة بسيطة، لكنها نظيفة للغاية.

تابع دوس:

«ولا تنس أن تختار اسماً».

«لا أظن أن هذا ضروري»، قال ميخائيل.

«طبعاً ضروري»، قال دوس مصرّاً. «فقد كنت مع زوجته مؤخراً. وأعرف كيف تفكّر، وأعرف ما تعلّمته، وأعرف ما تتوقّعه».

كان صوت دوس قوياً ولطيفاً في أن معاً. نعم سأختار اسماً، سأفعل ما يقترحه عليّ تماماً؛ سأستمرّ في نبذ تاريخي الشخصي، وسأبدأ، بدلاً من ذلك، أسطورتي الشخصية حتى لو كانت بسبب التعب المطلق فقط.

كنت مرهقاً، فلم أنم في الليلة السابقة أكثر من ساعتين: ولم يعتد جسمي بعد على الاختلاف الكبير في التوقيت. وصلت إلى ألماآتا في حوالى الساعة الحادية عشرة ليلاً حسب التوقيت المحلي، بينما لم تتجاوز الساعة السادسة مساء في فرنسا. كان

ميخائيل قد تركني في الفندق، وغفوت قليلاً، ثم استيقظت في الساعات الأولى. نظرت إلى الأضواء في الأسفل، وتذكرت أن الوقت في باريس الآن وقت تناول طعام العشاء. كنت جائعاً وسألت خدمة الغرف إن كان بوسعهم أن يرسلوا لي شيئاً أتناوله: «طبعاً نستطيع يا سيدي، لكنك حقاً يجب أن تحاول أن تنام؛ وإذا لم تفعل ذلك فسيبقى جسمك معتاداً على جدول المواعيد الأوروبي».

بالنسبة لي فإن أسوأ تعذيب ممكن هو عدم تمكني من النوم. تناولت شطيرة وقرّرت أن أخرج لأتمشى. سألت موظف الاستقبال سؤالي المعتاد: «هل يوجد خطر في الخروج في هذه الساعة؟» فقال «لا يوجد خطر»، لذلك رحت أسير في الشوارع الخالية، الأزقة الضيّقة، الجادات العريضة. كانت مدينة تشبه المدن الأخرى، بلوحات النيون، وسيارات الشرطة التي تمر بين الحين والآخر، شحاذ هنا، ومومس هناك. كان عليّ أن أكرّر بصوت مسموع: «أنا في كازاخستان!» لأني إن لم أفعل ذلك لظننت أني في أحد أحياء باريس غير المألوفة لي.

«أنا في كازاخستان!» قلت للمدينة المهجورة، وأجابني صوت: «طبعاً أنت في كازاخستان».

قفزت. كان هناك رجل يجلس بالقرب مني على مقعد في إحدى الساحات في أعماق الليل، واضعاً إلى جانبه حقيبة ظهره. نهض وقدّم لي نفسه باسم يان، من هولندا، وأضاف:

«وأعرف سبب وجودك هنا».

هل كان أحد أصدقاء ميخائيل؟ أم أن الشرطة السرية تتعقبني؟

«قل لي لماذا أنا هنا إذن؟».

«لقد سافرت مثلي من اسطنبول على طريق الحرير».

أطلقت تنهيدة بالارتياح، وقرّرت أن أواصل حديثي معه.

«سيراً على الأقدام؟ أفهم من ذلك أن هذا يعني أنك اجتزت آسيا كلّها».

«كنت بحاجة لأن أقوم بذلك. كنت مستاء من حياتي. فلديّ مال وزوجة وأطفال، وعندي مصنع للجوارب في روتردام. ولفترة من الزمن كنت أعرف ما أكافح من أجله ـ استقرار أسرتي ـ أما الآن فلست متأكداً تماماً. فكلّ ما كان يسعدني ذات يوم، أصبح يبعث في نفسي الملل، وجعلني أشعر بالقشعريرة. ومن أجل زواجي، وحبّ أطفالي، وحماسي لعملي، قرّرت أن آخذ لنفسي إجازة لمدة شهرين، وأن أتمعن في حياتي. والأمور تسير على ما يرام».

«كنت أفعل الشيء ذاته في الشهور القليلة الماضية. هل هناك الكثير من الحجاج مثلك؟».

«كثيرون. قد يكون ذلك خطيراً، لأن الوضع السياسي في بعض هذه البلدان صعب للغاية في واقع الأمر، فهم يكرهون الغربيين. لكن الأمور تسير على ما يرام. أظن أنك، كحاجٍّ، ستعامل دائماً باحترام، طالما تمكنت من إثبات أنك لست جاسوساً. لكني أفهم مما تقوله إن لديك أسباباً مختلفة لمجيئك إلى هنا. ماذا أتى بك إلى ألماآتا؟»

«للسبب نفسه الذي جعلك تأتي إلى هنا. لقد أتيت لأصل إلى نهاية طريق محدد. ألم تستطع أن تنام أيضاً؟».

«لقد استيقظت للتو. كلما انطلقت في وقت أبكر ازدادت فرصتي في الوصول إلى البلدة القادمة، وإذا لم أتمكن من ذلك فيجب أن أمضي الليلة في البادية الشديدة البرودة وسط تلك الرياح التي لا تتوقف عن الهبوب».

«أتمنى لك رحلة موفقة إذن».

«لا، ابق قليلاً. أريد أن أتكلم كي أشارك الآخرين تجاربي. فمعظم الحجاج الآخرين لا يتكلمون الإنكليزية».

وبدأ يحدثني عن حياته، بينما بدأت أحاول أن أتذكّر ما أعرفه

عن طريق الحرير، طريق التجارة القديم الذي كان يربط بين أوروبا وبلدان المشرق. فقد كان الطريق التقليدي يبدأ من بيروت، ويمرّ عبر أنطاكية ويتجه نحو شواطئ يانغتسه في الصين، أما في آسيا الوسطى فيصبح نوعاً من الشبكة، ذات طرق تتجه في جميع الاتجاهات، مما أدى إلى إقامة محطات تجارية، أصبحت مع الوقت مدناً دُمِّرت لاحقاً في معارك بين القبائل المتنافسة، وأعاد السكان بناءها، ثم دُمِّرت ثانية، وأعيد بناؤها مرة أخرى. ومع أن كلّ شيء تقريباً كان قد مرّ من هذا الطريق ـ ذهب، حيوانات غريبة، عاج، بذور، أفكار سياسية، لاجئون من الحروب الأهلية، قطاع طرق مسلّحون، جيوش خاصة لحماية قوافل الحرير التي كانت أكثر المواد ندرة التي يشتد الطلب عليها. وبفضل أحد هذه الطرق الفرعية انتقلت البوذية من الصين إلى الهند.

«غادرت أنطاكية ومعي ما يقرب من مائتي دولار في جيبي»، قال الهولندي، بعد أن وصف الجبال، والأراضي، والبحار، والقبائل الغريبة، والمشاكل اللانهائية في مختلف البلدان ودوريات الشرطة. «كنت بحاجة لأن أعرف إن كنت قادراً على أن أعود لأكون نفسي مرة أخرى. أظن أنك تفهم حقيقة ما أعنيه؟».

«نعم».

«لقد اضطررت للشحاذة، إلى طلب قليل من المال. ولدهشتي كان الناس أكثر سخاء مما كنت أتصوّر».

تشحذ؟ تفحصت حقيبة ظهره وثيابه لأرى إن كنت سأرى رمز القبيلة ـ قبيلة ميخائيل ـ لكني لم أجدها.

«هل سبق وذهبت إلى مطعم أرمني في باريس؟».

«لقد ارتدت الكثير من المطاعم الأرمنية، لكن ليس في باريس».

«هل تعرف شخصاً يدعى ميخائيل؟».

«إنه اسم جميل معروف في هذه الأصقاع من البلاد. وإذا كنت

أعرف ميخائيل ذاك فلا أتذكّر، لذلك أخشى أني لا أستطيع أن أساعدك».

«لا، لست بحاجة إلى مساعدتك. لقد فاجأتني ببعض المصادفات فقط. يبدو أن هناك الكثيرين، في جميع أنحاء العالم، الذين بدؤوا يدركون ذات الشيء ويتصرّفون بطريقة متشابهة».

«أول شيء تشعر به عندما تنطلق في رحلة كهذه هو أنك لن تصل أبداً. وعندها ينتابك الشعور بأنك غير آمن، منبوذ، وتمضي وقتك كلّه وأنت تفكّر بالاستسلام. لكنك إذا واصلت طريقك أسبوعاً آخر فإنك ستتمكن من القيام بالرحلة حتى النهاية».

«أنا أطوف مثل حاجّ في شوارع المدن، ووصلت البارحة إلى مدينة أخرى. هل لي أن أباركك؟».

رمقني بنظرة غريبة.

«أنا لا أسافر لأسباب دينية. هل أنت كاهن؟».

«لا، لست كاهناً، لكني أشعر بأنني يجب أن أباركك. أشياء ليست منطقية كما تعرف».

يدعى الهولندي يان، ولن أراه ثانية. أحنى رأسه وأغمض عينيه. وضعت يدي على كتفيه، وبلغتي المحلية - التي لم يكن يفهمها - دعوت بأن يصل إلى مقصده بسلامة، وأن يخلّف وراءه على طريق الحرير حزنه وإحساسه بأن لا معنى للحياة؛ ودعوت أيضاً بأن يعود إلى عائلته بعينين مشرقتين، وبروح نقية.

شكرني، حمل حقيبة ظهره وانطلق باتجاه الصين. عدت إلى الفندق وأنا أقول لنفسي لقد باركت شخصاً لأول مرة في حياتي كلها. لكني استجبت إلى دافع وكان الدافع صحيحاً؛ وستجاب دعواتي.

في اليوم التالي، جاء ميخائيل مع صديقه دوس الذي سيرافقنا. كانت لدى دوس سيارة، وكان يعرف زوجتي، ويعرف البادية، وكان يريد أيضاً أن يكون هناك عندما أصل إلى القرية التي تعيش فيها إستر.

فكّرت في أن أحتجّ لهما، ففي البداية كان ميخائيل، والآن أصبح صديقه، وما أن نصل إلى القرية أخيراً حتى يكون هناك حشد من الناس يتبعني، يصفق ويصيح، ينتظر رؤية ما سيحدث. لكني كنت منهكاً، ولم أكن أقوى على قول شيء. قلت إني سأذكّر ميخائيل يوم غد بالوعد الذي قطعه لي بأن لا يكون هناك شاهد على تلك اللحظة.

استقلينا السيارة، وسرنا في طريق الحرير لفترة من الزمن. سألاني إن كنت أعرف ما هو هذا الطريق، وقلت لهما إني التقيت بحاجّ على طريق الحرير في الليلة الفائتة، وقالا إن هذه الرحلات بدأت تزداد أكثر فأكثر، ويمكنها أن تجلب قريباً فوائد كثيرة لصناعة السياحة في البلد.

وبعد ساعتين انعطفنا عن الطريق الرئيسي، وواصلنا رحلتنا على طريق فرعي حتى وصلنا إلى الملجأ الذي نحن فيه الآن، نأكل السمك ونستمع إلى صفير الرياح التي تهب عبر السهول.

«كانت إستر مهمة للغاية بالنسبة لي»، قال دوس، وأراني

صورة عن إحدى لوحاته التي تتضمن واحدة من قطع القماش الملطّخة بالدم تلك. «كنت أحلم بمغادرة هذا المكان مثل أوليغ...».

«من الأفضل أن تدعوني ميخائيل، وإلا لالتبس الأمر عليه».

«كنت أحلم بمغادرة هذا المكان، مثل الكثيرين من الشباب في عمري. ثم وفي أحد الأيام اتصل بي أوليغ، أو بالأحرى ميخائيل، وقال إن المرأة التي قدمت له معروفاً ستأتي وتعيش في البادية لفترة من الزمن، وقال إنه يريدني أن أساعدها. وافقت ظناً مني أن فرصتي قد حانت، وأنها يمكن أن تساعدني كذلك في الحصول على تأشيرة دخول، وبطاقة طائرة، وعمل في فرنسا. وطلبت مني أن أرافقها إلى إحدى القرى البعيدة التي كانت تعرفها من إحدى زياراتها السابقة.

«لم أسألها عن السبب، وفعلت ما طلبته مني. وفي الطريق أصرّت على الذهاب إلى بيت بدوي كانت قد زارته منذ سنوات. ولدهشتي كان جدّي هو الذي كانت تريد أن تزوره! وأُستقبلت بالحفاوة المعهودة لدى سكان هذا الفضاء المترامي الأطراف. وقال لها جدّي إنها، رغم أنه يخيّل إليها أنها حزينة، فإن روحها في الحقيقة، سعيدة وحرة، وأن طاقة الحبّ فيها قد بدأت تتدفق مرة أخرى. وأكدّ لها أن هذا سيؤثّر بشكل عام على العالم بمن فيهم زوجها. وعلّمها جدّي أشياء كثيرة عن ثقافة البادية، وطلب مني أن أعلمّها الباقي. وفي النهاية قرّر أنه يمكنها أن تحتفظ باسمها، مع أن هذا شيء يخالف التقاليد.

«وبينما راحت تتعلّم من جدّي تعلّمت أنا منها، وأدركت أنه ليس من الضروري أن أسافر بعيداً معها كما فعل ميخائيل: إذ إن مهمّتي تكمن في هذا الفضاء الواسع ـ البادية، وفهم ألوانها، وتحويلها إلى لوحات».

«لا أفهم تماماً ما تقصد بتعليم زوجتي. ظننت أن جدّك قال إننا يجب أن ننسى كلّ شيء».

«سأريك غداً»، قال دوس.

وفي اليوم التالي أراني ولم تكن هناك حاجة للكلمات. رأيت البادية المترامية الأطراف، التي مع أنها لم تكن تبدو سوى صحراء، فقد كانت في الحقيقة مفعمة بالحياة، مليئة بالمخلوقات التي تتوارى وراء الشجيرات المنخفضة. رأيت الأفق المنبسط، الفضاء الفارغ الشاسع، سمعت صوت حوافر الخيول، الرياح الناعمة، ولم يكن يوجد حولنا شيء، لا شيء على الإطلاق. كان كما لو أنّ العالم قد اختار هذا المكان ليكشف في الحال سعته، وبساطته، وتعقيداته. كما لو كنا نستطيع - وينبغي لنا - أن نصبح كالسهول الفارغة، اللانهائية، وفي الوقت نفسه، المفعمة بالحياة.

رفعت نظري إلى السماء الزرقاء، خلعت نظارتي السوداء، وتركت نفسي أمتلئ بذلك الضوء، بالشعور بأن تكون في اللامكان وفي كل مكان في وقت واحد. واصلنا طريقنا صامتين، وكنا نتوقف بين الحين والآخر لكي تشرب الخيول من الجداول التي لم يكن بوسع أحد أن يعرف مكانها إلا شخص يعرف المكان جيداً. وكنا بين الحين والآخر نرى خيالة آخرين على مسافة بعيدة، أو رعاة مع قطعانهم، داخل إطار من السهل والسماء.

إلى أين كنت ذاهباً؟ لم أكن أعرف ولم أكن أكترث بذلك.

كانت المرأة التي أبحث عنها في مكان ما من هذا الفضاء المترامي الأطراف. كان بوسعي أن ألمس روحها، أسمع الأغنية التي كانت تغنّيها وهي تنسج سجادتها. والآن فهمت لماذا اختارت هذا المكان: إذ لم يكن ثمة شيء، لا شيء على الإطلاق يحوّل انتباهها؛ الفراغ الذي طالما كانت تتوق إليه. وشيئاً فشيئاً ستزيل الريح

ألمها. هل يمكنها أن تتصور يوماً أن أكون هنا، أمتطي ظهر حصان لألقاها؟

إحساس بالجنة ينحدر من السماء. أدرك أني أعيش لحظة لا يمكنني أن أنساها طوال حياتي؛ إدراكٌ من ذلك النوع الذي يعترينا غالباً عندما تمر اللحظة السحرية. إني هنا بكليّتي، بدون ماضي، بدون مستقبل، أركّز فقط على الصباح، على موسيقى حوافر الخيول، على رقة الريح التي تداعب جسمي، على النعمة غير المتوقّعة التي منحني إياها تأمّل السماء، والأرض، والرجال. تملكني إحساس بالإعجاب والنشوة. شكرت الله لأني ماأزال حياً يرزق. أضرع بهدوء، أستمع إلى صوت الطبيعة، وأفهم أن العالم الخفي يكشف عن نفسه دائماً في العالم المرئي.

أسأل السماء بعض الأسئلة، ذات الأسئلة التي كنت أسأل أمّي عندما كنت طفلاً:

لماذا نحبّ بعض الناس، ونكره البعض الآخر؟

إلى أين نذهب بعد أن نموت؟

لماذا ولدنا إن كنا سنموت في النهاية؟

ماذا يعني الله؟

وكانت البادية تجيب بصوت الريح الذي لا يتوقف، وهذا يكفي: ومع أني كنت أعرف أني لن أتلقى ردوداً على الأسئلة الأساسية في الحياة، فإننا مع ذلك نستطيع أن نمضي قدماً.

لاحت الجبال في الأفق، طلب منا دوس أن نتوقّف. رأيت أنه كان يوجد هناك جدول في مكان قريب.

«سنخيّم هنا».

رفعنا الأسرجة من على الخيول، ونصبنا الخيمة. وبدأ ميخائيل يحفر حفرة في الأرض.

«هكذا يفعل البدو. نحفر حفرة، ونملأ القاع بالأحجار، ونضع مزيداً من الأحجار حول الحافة كلها، وبهذه الطريقة نقيم مكاناً لإشعال النار دون أن تزعجنا الريح».

وإلى الجنوب، بين الجبال وبيننا، ظهرت سحابة من الغبار، أدركت في الحال أن الخيول التي تجري هي التي أحدثتها. أشرت إلى صديقيّ حول ذلك، فاستويا واقفين على الفور. كانا متوترين. ثم تبادلا بضع كلمات باللغة الروسية واسترخيا. وعاد دوس إلى نصب الخيمة، وبدأ ميخائيل يشعل النار.

«هل تمانعا في أن تخبراني ماذا يجري؟» قلت.

«قد يبدو الأمر كما لو كنا محاطين بفضاء فارغ، لكن لا يمكن أن يكون قد فاتك أن تلاحظ أننا رأينا جميع أنواع الأشياء: الرعاة، والأنهار، والسلاحف، والثعالب، والخيالة. يبدو كما لو أن المشهد كان خالياً وواضحاً من حولنا، لذلك من أين يأتي هؤلاء الناس؟ أين هي بيوتهم؟ وأين يحتفظون بقطعانهم؟

«إن هذا الإحساس بالفراغ مجرد وهم: إذ إننا نراقب باستمرار ونُراقب. أما بالنسبة للشخص الغريب الذي لا يستطيع أن يقرأ إشارات البادية فإن كلّ شيء يكون تحت السيطرة، والشيء الوحيد الذي يمكنه أن يراه هو الخيول والفرسان. أما بالنسبة للذين تربوا هنا فإننا نستطيع أن نرى أيضاً الخيم المستديرة المغطاة بالجلود، والبيوت الدائرية التي تمتزج بالمشهد الطبيعي. إننا نعرف كيف نقرأ ما يجري بملاحظة كيف يتحرك الخيالة، والاتجاهات التي يأخذونها. وفي أيام زمان كان بقاء القبيلة يعتمد على هذه القدرة، لأنه كان يوجد أعداء، غزاة، مهربون.

«والآن الأخبار السيئة: فقد اكتشفوا أننا كنا متجهين نحو القرية على سفوح تلك الجبال وهم يرسلون أشخاصاً إلى الكاهن الذي تأتيه رؤى عن الأطفال ليخبروه بالرجل الذي جاء ليعكر صفو المرأة الأجنبية».

أطلقت ضحكة عالية.

«انتظر لحظة واحدة فقط وستفهم».

كان الفرسان يقتربون، وسرعان ما أصبح بوسعي أن أرى ما يجري.

«يبدو لي الأمر في غاية الغرابة: امرأة يلاحقها رجل».

«إنه أمر غريب، لكنه أيضاً جزء من حياتنا».

اجتازتنا المرأة، التي كانت تستخدم «سوطاً طويلاً»، وصاحت محيية دوس وابتسمت له، ثم راحت تجري حول المكان حيث نصبنا خيمتنا. وألقى الرجل المبتسم الذي كان ينضح عرقاً، والذي كان يلاحقها، تحية سريعة أيضاً، وكان يحاول طوال الوقت اللحاق بالمرأة.

«يجب ألا تكون نينا بهذه القسوة»، قال ميخائيل، «لا حاجة لكلّ هذا».

«تماماً، لأنه لا توجد هناك حاجة لأن تكون قاسية»، أجاب دوس.

«كلّ ما عليها أن تكون جميلة، وأن يكون لديها حصان جيد».

«لكنها تفعل ذلك مع الجميع».

«لقد أنزلتها عن سرجها ذات مرّة»، قال دوس بافتخار.

«إن تحدّثك باللغة الإنكليزية يعني أنك تريدني أن أفهم».

كانت المرأة تضحك وتسرع في جريها على الحصان، وقد ملأ ضحكها سهول البادية بهجة.

«إنه شكل من أشكال الغزل، يدعى كيز كو أو «أنزل الفتاة عن الحصان» وقد فعلنا جميعنا ذلك خلال طفولتنا أو شبابنا».

كان الرجل الذي يلاحقها يزداد قرباً منها، لكننا لاحظنا أن حصانه لم يعد يستطيع التحمل أكثر من ذلك.

«سنتحدث قليلاً عن التينغري في ما بعد، عن ثقافة البادية»، تابع دوس، «أما الآن وبما أنك ترى هذا فدعني أوضّح لك شيئاً مهماً للغاية. فهنا، في هذه الأرض، تعتبر المرأة هي المسؤولة. إنها تأتي في المقام الأول. وفي حالات الطلاق فهي تحصل على نصف المهر حتى لو كانت هي التي تريد الطلاق. وعندما يرى رجل امرأة تضع عمامة بيضاء فهذا يعني أنها أمّ، وأننا كرجال يجب أن نضع يدنا على قلوبنا، ونحني رؤوسنا احتراماً لها».

«لكن ما علاقة ذلك بـ «أنزل الفتاة عن الحصان»؟».

«في القرية الواقعة عند سفوح الجبال تتحلّق مجموعة من الرجال الذين يمتطون خيولهم حول هذه الفتاة التي تدعى نينا. وهي الفتاة الأكثر اشتهاء ورغبة في المنطقة. وسيبدؤون باللعب بلعبة كيز كو، التي ابتدعت منذ عهود قديمة، عندما كانت نساء البوادي، اللاتي يعرفن بالأمازونيات، محاربات أيضاً.

في ذلك الوقت لم يكن أحد يحلم بأن يستشير العائلة إذا أراد أن يتزوج: إذ يلتقي الشبان بالفتاة التي يرغبون الزواج منها في مكان معيّن، كلّ منهم على ظهر حصانه. وتمتطي الفتاة حصانها وتجري حول الرجال وهي تضحك، تستفزهم، وتلسعهم بسوطها. ثم يبدأ أكثر الرجال شجاعة بمطاردتها. وإذا تمكنت الفتاة من الابتعاد عن قبضته لفترة محددة من الزمن يلحقه العار إلى الأبد، لأنه سيعتبر عندئذ خيالاً سيئاً، وهو أكبر عار يلحق بالمحارب.

وإذا اقترب منها، رغم لسعها له بالسوط، وتمكن من سحبها ودفعها إلى الأرض، عندها يُعتبر رجلاً حقيقياً ويُسمح له بتقبيلها

والاقتران بها. ومن الواضح، كما هو الحال الآن، فإن الفتيات يعرفن جيداً من يجب أن يتفادين، ومن يجب أن يدعن أنفسهن يمسكون بهن».

كان من الواضح أن نينا تستمتع بهذه اللعبة، فقد سبقت الرجل مرة أخرى، وها هي في طريق عودتها إلى القرية.

«لقد جاءت للتشاوف والتباهي فقط. إنها تعرف أننا مسافرون وأننا سننقل الخبر إلى القرية».

«لديّ سؤالان. الأول قد يبدو غبياً: هل ماتزالون تختارون عرائسكم بهذه الطريقة؟».

فقال دوس لقد أصبحت الآن مجرد لعبة. ففي الغرب يتأنق الناس ويرتادون الحانات أو النوادي العصرية، أما في البادية فإن كيز كو هي اللعبة الأثيرة للإغواء. فقد تمكنت نينا من إذلال عدد من الشبان، وأتاحت المجال لبضعة رجال أن ينزلوها من فوق الخيل أيضاً، تماماً كما يحدث في أفضل مراقص الديسكو.

«أما السؤال الثاني فسيبدو أكثر غباء: هل تقيم زوجتي في القرية الواقعة على سفح الجبل؟».

هز دوس رأسه.

«إذا كان قد بقي أمامنا ساعتان لنصل، فلماذا لا ننام هناك؟ وثمة وقت حتى يحلّ الظلام».

«إنك على حقّ، بقي أمامنا ساعتان، وهناك سببان يجعلاننا نتوقّف هنا لليلة. أولاً، حتى لو لم تأتي نينا إلى هنا فسيراننا أحدهم، ويذهب لإخبار إستر بأننا قادمون. وبهذه الطريقة يمكنها أن تقرّر إن كانت تريد أن ترانا أم لا، أما إذا كانت تفضّل أن تذهب إلى قرية أخرى لبضعة أيام. وإذا فعلت ذلك فعندها لن نتبعها».

انقبض قلبي.

«حتى بعد كلّ ما كابدته حتى أصل إلى هنا؟».

«إذا كنت ماتزال تشعر بهذه الطريقة، فإنك لم تفهم شيئاً. ما الذي يجعلك تظن أن جهودك يجب أن تكافأ بالاستسلام، بالامتنان، والشكر من الشخص الذي تحبّه؟ لقد جئت إلى هنا لأن هذا هو الطريق الذي يجب أن تتبعه، لا لكي تشتري حبّ زوجتك».

مهما بدت كلماته جائرة فهو على حقّ. سألته عن السبب الثاني.

«ما زلت لم تختر اسمك».

«هذا لا يهم»، قال ميخائيل ثانية. «إنه لا يفهم ثقافتنا، وهو ليس جزءاً منها».

«إنها مهمة بالنسبة لي»، قال دوس، «قال جدّي إني يجب أن أحمي المرأة الأجنبية وأساعدها، كما ساعدتني وحمتني. أنا أدين لإستر بسلام عينيّ، وأريد أن تكون عيناها في سلام أيضاً. يجب أن يختار اسماً. يجب أن ينسى وإلى الأبد تاريخه من الألم والمعاناة، وأن يقبل بأنه أصبح شخصاً جديداً وقد ولد من جديد وأنه، من الآن وصاعداً، سيولد من جديد كلّ يوم. وإذا لم يفعل ذلك، وإذا عاشا معاً ثانية، سينتظر منها مكافأته على الألم الذي سببته له ذات يوم».

قلت: «لقد اخترت اسماً ليلة أمس».

«لا تخبرني به حتى يحلّ المساء».

حالما بدأت الشمس تميل للغروب ذهبنا إلى منطقة في البادية المليئة بكثبان رملية. بدأت أسمع صوتاً مختلفاً، نوعاً من الصدى، ذبذبات حادة. قال ميخائيل إنه من الأمكنة القليلة في العالم التي تغني فيها الكثبان.

«عندما كنت في باريس وكنت أحدّث الناس عن هذا الشيء لم يصدقوني إلا لأن أمريكياً قال إنه شاهد ذات الشيء في شمال أفريقيا، وهناك ثلاثون بقعة في العالم تشبه هذه المنطقة. وبالطبع

أصبح بإمكان العلماء الآن تفسير كلّ شيء. يبدو أن هذا الأمر يعود إلى التكوين الفريد لهذا المكان، إذ تخترق الريح حبات الرمل فتُحدث هذا الصوت. أما بالنسبة للقدماء فقد كان يعتبر مكاناً سحرياً في البادية، وإنه لشرف عظيم أن دوس قد اختاره لكي تغيّر اسمك فيه».

بدأنا نتسلّق أحد الكثبان، وفيما كنا نشق طريقنا بدأت الضوضاء تزداد حدّة وتشتد الريح. وعندما وصلنا إلى القمة أصبح بوسعنا أن نرى الجبال بوضوح تمتد جنوباً، والسهل الشاسع الممتد حولنا.

قال دوس: «استدر باتجاه الغرب واخلع ثيابك».

فعلت كما طلب دون أن أسأل عن السبب. شعرت بالبرد يتغلغل في أوصالي، لكن بدا أنهما غير مكترثين بحالتي. سجد ميخائيل وبدأ يصلّي. ونظر دوس إلى السماء، وإلى الأرض، وإليّ، ثم وضع يديه على كتفي، تماماً كما فعلت للهولندي، مع أني لا أعرف السبب.

«باسم السيدة أكرّسك. أكرّسك للأرض التي تعود إلى السيدة. باسم الحصان أكرّسك. أكرّسك للعالم، وأضرع أن يساعدك العالم في رحلتك. باسم السهول المترامية الأطراف، أكرّسك. أكرّسك للحكمة اللامتناهية، وأضرع بأن يزداد أفقك اتساعاً على الدوام. لقد اخترت اسمك وسأقوله الآن للمرة الأولى».

«باسم البادية المترامية الأطراف، اختار اسماً»، أجبت دون أن أسأل إن كنت أفعل كما تقتضي الطقوس، وتركت صفير الريح في الكثبان يوجهني. «منذ قرون عديدة، وصف شاعر رحلة رجل يدعى عوليس كان متجهاً إلى جزيرة تدعى إيثاكا، حيث تنتظره محبوبته. وكان قد تعرض لأخطار كثيرة، من العواصف إلى إغراءات الراحة وسحرها. وفي لحظة ما، وفي أحد الكهوف صادف وحشاً بعين واحدة.

«سأله الوحش عن اسمه. «لا أحد»، قال عوليس. تصارعا

وتمكن من فقء عين الوحش الوحيدة بسيفه، ثم أغلق عليه فوهة الكهف بصخرة. سمع رفاق الوحش صراخه وهرعوا لمساعدته. وعندما رأوا الصخرة تغلق فتحة الكهف، سألوه من معه فأجاب الوحش «لا أحد! لا أحد!» فتركه رفاقه، لأنه لم يكن في خطر، وعندها تمكن عوليس من متابعة رحلته عائداً إلى المرأة التي كانت بانتظاره».

«إذن هل اسمك عوليس؟».

«اسمي لا أحد».

شعرت برعدة تسري في أوصالي، كما لو كان جلدي قد وُخز بمئات الإبر.

«ركّز على البرد، كي تتوقّف عن الارتعاش. ليملأ البرد كلّ فكرة من أفكارك، حتى لا يعود ثمة مكان لأي شيء آخر، حتى يصبح رفيقك وصديقك. لا تحاول السيطرة عليه. لا تفكّر بالشمس التي لن تزيده إلا سوءاً، لأنك ستعرف عندئذ أن شيئاً آخر - الحرارة - موجودة وعندها سيشعر البرد أنه غير محبوب وغير مرغوب».

أخذت عضلاتي تتقلّص وتتمدد بعنف لتصدر طاقة وكي يظل جسدي حياً. لكني فعلت كما طلب دوس، لأني كنت أثق به، أثق بهدوئه، برقته، وبسلطته. تركت الإبر تخز جلدي، تركت عضلاتي تتصارع، أسناني تصطك، وأنا أردد قائلاً: «لا تقاوم، فالبرد صديقك». رفضت عضلاتي أن تطيع، وبقيت هكذا زهاء خمس عشرة دقيقة، إلى أن استرخت عضلاتي في نهاية الأمر وتوقّفت عن الارتعاش، ودخلت في حالة من السبات. حاولت أن أجلس لكن ميخائيل أمسكني وساعدني على النهوض، بينما راح دوس يحدثني. وبدت كلماته وكأنها تَرِد من مكان قصي، من مكان تلتقي فيه البادية بالسماء.

«أهلاً بك أيها البدوي الذي يعبر البوادي. أهلاً بك في المكان

الذي نقول فيه دائماً إن السماء زرقاء، حتى لو كانت رمادية، لأننا نعرف أن اللون مايزال أزرق فوق الغيوم. أهلاً بك في أرض التينغري. أهلاً بك إليّ، لأني موجود هنا كي أستقبلك وأكرمك على بحثك».

جلس ميخائيل على الأرض وطلب مني أن أشرب شيئاً جعل الدفء يسري في دمي على الفور. وساعدني دوس في ارتداء ثيابي، وشققنا طريقنا عائدين إلى الكثبان التي لم تكف عن التحدث إلى بعضها. عدنا إلى مخيمنا الذي أقمناه على عجل. وحتى قبل أن يطهو دوس وميخائيل الطعام غططت في نوم عميق.

«ماذا يحدث؟ ألم يحلّ النور بعد؟».

«النور يشع منذ أمد بعيد. إنها مجرد عاصفة رملية، لا تقلق. ضع نظارتك السوداء لتحمي عينيك».

«أين دوس؟».

«لقد عاد إلى آلماآتا، لكنه تأثر كثيراً بالمراسم مساء أمس. لم يكن من الضروري حقاً أن يفعل ذلك. كان ذلك تضييعاً للوقت لك، وكان من الممكن أن تصاب بذات الرئة. أرجو أن تعرف أن هذا أسلوبه في إبداء الترحيب بك، هيا تناول الزيت».

«لقد نمت كثيراً».

«بقيت أمامنا ساعتان حتى نصل إلى القرية. سنصل إلى هناك قبل أن ترتفع الشمس إلى أعلى نقطة لها».

«إني أحتاج إلى حمّام. يجب أن أغيّر ثيابي».

«هذا مستحيل. إنك في وسط البادية. ضع الزيت في المقلاة، لكن قدّمه أولاً إلى السيدة. وبالإضافة إلى الملح فهو أكثر السلع الثمينة لدينا».

«ما هي التينغري؟».

«تعني الكلمة «عبادة السماء» إنها نوع من الدين ولكن بدون

دين. لقد مرّ الجميع من هنا ـ البوذيون، والهندوس، والكاثوليك، والمسلمون، وطوائف مختلفة بمختلف اعتقاداتها وخرافاتها. واعتنق البدو الدين لكي لا يقتلوا، لكنهم استمروا وهم مايزالون يؤمنون بفكرة أن اللاهوت موجود في كل مكان دائماً. لا يمكنك أن تُخرج اللاهوت من الطبيعة وتضعه في كتاب أو بين أربعة جدران. لقد شعرت بتحسن كبير منذ عودتك إلى البادية، كما لو كنت في حاجة حقيقية إلى الغذاء. أشكرك لأنك جعلتني آتي معك».

«شكراً لأنك عرفّتني على دوس. البارحة، خلال مراسم التكريس تلك، أحسست أنه كان شخصاً خاصاً».

«لقد تعلّم من جدّه، الذي كان قد تعلّم من أبيه، الذي تعلّم من أبيه، وهكذا. إنها طريقة الحياة البدوية، وبما أنه لم تكن توجد لديهم لغة مكتوبة حتى نهاية القرن التاسع عشر اضطروا لوضع تقليد أكين، وهو الشخص الذي يختزن ذاكرة القوم وينقل عنهم القصص. إن دوس هو أكين. وعندما أقول «يتعلّم» أرجو أن لا تفهم من ذلك أنه يعني «جمع المعارف». فلا علاقة للقصص بالتواريخ والأسماء والحقائق. إنها أساطير عن الأبطال والبطلات والحيوانات والمعارك، عن رموز نفس الإنسان الجوهرية، لا أعماله فقط. إنها ليست قصصاً عن المنتصرين أو المهزومين، بل عن الناس الذين يجتازون العالم، يتأمّلون البادية، ويتركون أنفسهم تفيض بطاقة الحبّ. صبّ الزيت ببطء أكثر، وإلا فإنه سيتطاير».

«شعرت بأني بوركت».

«أريد أن أشعر بذلك أيضاً. ذهبت البارحة لزيارة أمّي في آلماآتا. سألت إن كنت في صحة جيدة وإن كنت أكسب مالاً. كذبت وقلت لها إني على ما يرام، وإني أقدم عرضاً ناجحاً على المسرح في باريس. سأعود إلى أهلي اليوم، وكأني قد تركتهم البارحة، ومع أني أمضيت وقتاً طويلاً في الخارج فإني لم أفعل شيئاً ذا أهمية. تحدثت مع شحاذين، جلت في الشوارع مع القبيلة، نظّمت اجتماعات

في المطعم، وماذا حققت؟ لا شيء. أنا لست مثل دوس الذي تعلّم من جدّه. لا يوجد لديّ سوى الحضور الذي يوجهني، وأظن أحياناً أن ذلك ربما كان مجرد هلوسة؛ ربما لم تكن رؤاي حقاً سوى نوبات صرع، لا شيء أكثر».

«منذ قليل كنت تشكرني لأني أحضرتك معي، والآن يبدو أنها لم تجلب لك شيئاً سوى الحزن. احسم أمرك حول مشاعرك».

«أشعر بالشيئين كليهما في الحال، ليس عليّ أن أختار. يمكنني أن أتنقل بين التناقضات في داخلي».

«أريد أن أخبرك شيئاً يا ميخائيل. وأنا كذلك تنقلت بين العديد من التناقضات منذ أن التقيت بك لأول مرة. لقد بدأت بكراهيتك، ثم بدأت بقبولك، وعندما بدأت أسير على خطاك تحوّل ذلك القبول إلى احترام. إنك ماتزال شاباً، وانعدام القوة الذي تشعر به أمر طبيعي جداً. لا أعرف كم شخصاً تأثر بعملك حتى الآن، لكني أستطيع أن أخبرك شيئاً واحداً: لقد غيّرت حياتي».

«كان كلّ همك أن تعثر على زوجتك».

«وما زلت، إذ إن ذلك لم يجعلني أجول في بوادي كازاخستان فقط، بل جعلني كذلك أجوب في حياتي الماضية كلها. رأيت أين فشلت، رأيت أين توقّفت، رأيت اللحظة التي فقدت فيها إستر، اللحظة التي يدعوها الهنود المكسيكيون المرشد الموجّه لنقطة الاستسلام. تعرضت لأشياء لم أكن أتصور أني سأتعرض لها في حياتي. وكلّ ذلك لأنك كنت بجانبي، توجّهني، مع أنك ربّما لم تكن تدرك أنك كنت تساعدني. وهل تعرف شيئاً آخر؟ أظن أنك تسمع أصواتاً، وأنك رأيت رؤى عندما كنت طفلاً. كنت أؤمن دائماً بأشياء عديدة، والآن ازداد إيماني».

«أنت لست ذات الرجل الذي التقيت به في البداية».

«لا. أرجو أن تكون إستر سعيدة».

«حقاً؟».

«طبعاً».

«إذن هذا كلّ ما يهم. لنتناول شيئاً، انتظر حتى تهدأ العاصفة ثم ننطلق».

«دعنا نواجه العاصفة».

«لا. حسناً، يمكننا أن نفعل ذلك إذا أردت، لكن العاصفة ليست إشارة، بل مجرد واحدة من نتائج دمار بحر آرال».

بدأت الريح العاتية تهدأ، وبدا أن الخيول أخذت تجري على نحو أسرع. دخلنا نوعاً من الوديان وتغيّر المشهد الطبيعي كلّه. وحلت المنحدرات العارية الطويلة محل الأفق المترامي الأطراف. نظرت إلى اليمين ورأيت أجمة مليئة بالأشرطة.

«رأيت في هذا المكان...».

«لا، لقد اقتلعت شجرتي».

«إذن ما هذا؟».

«مكان لا بد أن شيئاً مهماً جداً قد وقع فيه».

ترجّل عن حصانه، وفتح السرج، وأخرج سكيناً، وقطع شريطاً من ردن قميصه، ثم ربطه بفرع شجرة. تغيّرت عيناه؛ أحسّ بالحضور بجانبه، لكني فضّلت أن لا أسأله.

حذوت حذوه. طلبت الحماية والمساعدة. أنا كذلك أحسست بحضور بجانبي: حلمي، رحلتي الطويلة للعودة إلى المرأة التي أحبها.

امتطينا حصانينا ثانية. لم يخبرني بما طلبه، ولم أخبره بما طلبته. وبعد خمس دقائق رأينا قرية صغيرة ذات بيوت بيضاء. كان هناك رجل ينتظرنا؛ تقدم من ميخائيل وحدّثه باللغة الروسية. تحدثا بعض الوقت ثم رحل الرجل.

«ماذا كان يريد؟».

«كان يريدني أن أذهب إلى بيته لأعالج ابنته. لا بدّ أن نينا أخبرته بأنني سأصل اليوم، وما زال المسنون يتذكّرون رؤاي».

بدا قلقاً. لم يكن يوجد أحد آخر هناك. لا بد أن الجميع كانوا منهمكين في أشغالهم، أو ربما كانوا يتناولون طعامهم. كنّا نعبر الطريق الرئيسي، الذي بدا أنه يفضي إلى مبنى أبيض اللون تحيط به حديقة.

«تذكّر ما قلته لك هذا الصباح يا ميخائيل. ربما تكون مصاباً بالصرع، وترفض أن تقبل التشخيص ولا تسمح لعقلك الباطن أن يبني قصة كاملة حوله، لكن من الممكن أيضاً أن تكون لديك رسالة في العالم: أن تعلّم الناس نسيان تاريخهم الشخصي، والانفتاح أكثر على المحبّة باعتبارها طاقة إلهية صافية».

«إني لا أفهمك. فطوال الشهور التي عرف فيها أحدنا الآخر لم تكن تتكلّم عن شيء سوى هذه اللحظة: العثور على إستر. وفجأة، ومنذ هذا الصباح، أصبحت تبدو قلقاً بشأني أكثر من أي شيء آخر. ربما كان لطقوس دوس في الليلة الماضية بعض التأثير عليك».

«أوه، أنا متأكّد من أنه كان له تأثير».

ما قصدت قوله هو: إني أشعر بالذعر. أريد أن أفكّر بأيّ شيء عدا ما سيحدث في الدقائق القليلة القادمة. اليوم أنا أكثر الأشخاص كرماً على وجه هذه البسيطة، لأني قريب من هدفي وخائف مما ينتظرني. يجب أن يكون ردي أن أحاول وأساعد الآخرين، لأري الله أني شخص طيب وأستحقّ هذه البركة التي طالما سعيت إليها بقوة.

ترجّل ميخائيل عن حصانه وطلب مني أن أفعل الشيء ذاته.

«أنا ذاهب إلى بيت الرجل الذي ابنته مريضة. سأعتني بحصانك قبل أن تكلّم إستر».

أشار إلى المبنى الصغير الأبيض في وسط الأشجار.

«هناك».

جاهدت كي أسيطر على نفسي.

«ماذا تفعل؟».

«كما قلت لك، إنها تتعلّم صنع السجاد، ولقاء ذلك فهي تعلّم اللغة الفرنسية. بالمناسبة، مع أن السجاد قد يبدو بسيطاً، إلا أن صناعته معقّدة للغاية تماماً كالبادية. تأتي الأصباغ من نباتات يجب قطافها في الوقت المناسب، وإلا فلن يكون اللون صحيحاً. ثم يُنشر الصوف على الأرض، ويُمزج بالماء الحار، وتُصنع الخيوط فيما مايزال الصوف ندياً. وبعد عدة أيام، عندما تجف بوساطة الشمس، تبدأ عملية النسيج. ويقوم الأطفال بصنع التفاصيل النهائية. فأيدي البالغين كبيرة جداً على صنع التطريزات المتناهية الصغر».

توقّف برهة.

- «ولا داعي للقول إنها لعبة من لعب الأطفال، بل إن ذلك تقليد يستحقّ الاحترام».

«كيف حالها؟».

«لا أعرف. لم أكلمها منذ ستة أشهر تقريباً».

«ميخائيل، هذا السجاد إشارة أخرى».

«السجاد؟».

«هل تذكر البارحة عندما طلب مني دوس أن أختار اسمي، أني حكيت لك قصة محارب عاد إلى جزيرة بحثاً عن حبيبته؟ وكانت الجزيرة تدعى إيثاكا وتدعى المرأة بينيلوب. ماذا تظن أن بينيلوب كانت تفعل منذ أن غادرها عوليس؟ كانت تنسج! كانت تنسج كفناً لجدّها، لايرتيس، لكي تبعد طالبي الزواج منها. فقد قررت ألا تتزوج إلا عندما تنهي الكفن. وفيما كانت تنتظر عودة عوليس كانت تحلّ ما عملته في كلّ ليلة وتبدأ من جديد في اليوم التالي.

«كان طالبو الزواج يريدون أن تختار واحداً منهم، لكنها كانت تحلم بعودة الرجل الذي كانت تحبه. وأخيراً، وعندما تعبت من الانتظار، عاد عوليس».

«سوى أن اسم هذه القرية ليس إيثاكا، واسم إستر ليس بينيلوب».

من الواضح أن ميخائيل لم يفهم القصة، ولم أشعر برغبة في توضيح أنها كانت مجرد مثال.

سلّمته رسن حصاني، ثم مشيت المائة متر التي كانت تفصلني عن المرأة التي كانت زوجتي، والتي أصبحت بعدئذ *الظاهر*، والتي كانت ذات مرة المحبوبة التي كان جميع الرجال يحلمون بالعثور عليها عندما يعودون من الحرب أو من العمل.

لم يكن جسدي نظيفاً. كانت ثيابي متسخة، ووجهي معفراً بالرمل، وجسمي مبللاً بالعرق، رغم شدة البرد.

أحسست بالقلق من مظهري، أكثر الأشياء سطحية في العالم، كما لو كنت قد قمت بهذه الرحلة الطويلة إلى إيثاكاي لأتباهى بثيابي الجديدة. وفيما رحت أسير المائة متر المتبقية، كان عليّ أن أبذل جهداً للتفكير في جميع الأشياء المهمة التي حدثت خلال وجودها - أم هل كان غيابي؟

ماذا ينبغي لي أن أقوله لها عندما نلتقي؟ كنت قد فكرت بهذا كثيراً، وتوصلت إلى عبارات مثل: «لقد انتظرت كثيراً حتى تحين هذه اللحظة» أو «أعرف الآن أني كنت مخطئاً»، أو «لقد جئت إلى هنا لأخبرك أني أحبك»، أو حتى «إنك أجمل من أي وقت مضى».

قرّرت أن أقول مرحباً فقط. كما لو أنها لم تهجرني. كما لو أن يوماً واحداً فقط قد مرّ، لا سنتين، وتسعة أشهر، وأحد عشر يوماً، وإحدى عشرة ساعة.

ويجب أن تفهم أني تغيّرت عندما مررت من الأماكن نفسها التي مرت بها، أماكن لم أكن أعرف عنها شيئاً، أو التي لم تكن تثير اهتمامي. لقد رأيت قطعة القماش الملطّخة بالدم بيد شحاذ، وبأيدي شبان بالغين في أحد مطاعم باريس، وبيد رسّام، وطبيب، وشاب يدّعي أنه يرى رؤى ويسمع أصواتاً. وفيما كنت أتتبع خطاها

تعرّفت على المرأة التي تزوّجتها واكتشفت مرة أخرى، أيضاً، معنى حياتي التي طرأت عليها تغييرات كثيرة، والتي كانت على وشك أن يطرأ عليها تغيير مرة أخرى.

رغم زواجي طوال تلك السنوات لم أكن أعرف زوجتي حق المعرفة. لقد خلقت قصة حبّ كالتي كنت أراها في الأفلام، أو أقرأ عنها في الكتب والمجلات، أو أشاهدها في التلفاز. في قصة حبي كان الحبّ شيئاً ينمو حتى وصل إلى حجم معين، ومنذ ذلك الحين أصبح الأمر ينحصر في إبقائه حياً، مثل نبتة تسقيها بين حين وآخر وتزيل عنها الأوراق الميتة. وكان الحبّ أيضاً مرادفاً للرقة، للأمان، للسمعة الجيدة، للراحة، للنجاح. وكان يمكن أن يترجم الحبّ إلى ابتسامات، إلى كلمات «مثل أنا أحبك» أو «أشعر بالسعادة البالغة عندما تعودين إلى البيت».

لكن الأمور كانت أكثر تعقيداً مما كنت أظن. ربما كنت متيماً بحب إستر فيما كنت أجتاز الطريق، ومع ذلك عندما وصلت إلى الجانب الآخر شعرت بأني قد أكون وقعت في فخ بعد أن ألزمت نفسي بشخص، وأصبحت أتوق للانطلاق مرة أخرى بحثاً عن مغامرة. ثم قلت في نفسي: «لم أعد أحبّها». وعندما عاد الحبّ بالكثافة نفسها كما في السابق، كنت أشكّ فيه وأقول لنفسي: «لا بد أني تعوّدت عليه فقط».

ربما كانت الأفكار ذاتها تراود إستر وتقول لنفسها: «لا تكوني سخيفة، إننا سعداء، يمكننا أن نمضي بقية حياتنا هكذا». فقد قرأت القصص ذاتها، ورأيت الأفلام نفسها، وشاهدت المسلسلات التلفزيونية ذاتها، ومع أنه لم يقل أحد إن الحبّ شيء لا يعدو أن يكون نهاية سعيدة، فلماذا تتعب نفسها بشأنه؟ فإذا قالت لنفسها في صباح كلّ يوم بأنها سعيدة بحياتها فإنها بلا شك ستصدق نفسها وتجعل جميع من حولنا يصدقونها أيضاً.

إلا أنها كانت تفكر بطريقة مختلفة، وكانت تتصرف على نحو

مختلف. فقد حاولت أن تريني، لكني لم أستطع أن أرى. كان عليّ أن أفقدها لكي أفهم أن طعم الأشياء التي نسترجعها أحلى أنواع العسل الذي يمكن أن نتذوقه في حياتنا. والآن فأنا هناك، أتمشّى في أحد شوارع قرية صغيرة، باردة، نائمة. ومرة أخرى أتبع طريقاً بسببها. وكان أول خيط يربطني بها وأكثره أهمية - «جميع قصص الحبّ متشابهة» قد انقطع عندما صدمتني تلك الدراجة النارية.

فعندما كنت في المستشفى، حدثني الحبّ وقال: «أنا كلّ شيء، وأنا لا شيء. أنا الريح، ولا أستطيع أن ادخل من النوافذ والأبواب الموصدة».

وقلت للحبّ: «لكني منفتح عليك».

وقال الحبّ لي: «تُصنع الريح من الهواء. هناك هواء داخل بيتك، لكن كلّ شيء موصد. عندها سيعلو الغبار قطع الأثاث، وستتلف الرطوبة الصور وتتقشر الجدران. وستواصل تنفسك، وستعرف جزءاً صغيراً مني، لكني لست جزءاً، بل أنا كلّ شيء، وأنك لن تعرف ذلك مطلقاً».

رأيت الغبار يعلو الأثاث، وتآكلت اللوحات بسبب الرطوبة، ولم يكن أمامي من بديل سوى أن أشرع النوافذ والأبواب. وعندما فعلت ذلك، أزالت الريح كلّ شيء. أردت أن أتعلّق بذكرياتي، لأحمي ما كنت أظن أني حققته بتعبي الشاق، لكن كلّ شيء اختفى، وأصبحت خاوياً كالبادية.

كنت خاوياً كالبادية: لقد فهمت الآن لماذا قرّرت إستر أن تأتي إلى هنا. لأن كلّ شيء كان خاوياً، ولأن الريح جلبت معها أشياء جديدة. ضجيج لم أسمعه من قبل، أناس لم أحدثهم من قبل. لقد استعدت حماستي لأني حرّرت نفسي من تاريخي الشخصي. حطّمت المرشد الموجه، واكتشفت أني رجل قادر على منح البركة للآخرين، كما يبارك البدو والكهنة في البادية أهلهم. لقد اكتشفت أني أفضل

حالاً، وإني أكثر قدرة مما كنت أظن من قبل؛ فالعمر يجعل الذين لم يمتلكوا الشجاعة بطيئين في السير.

وذات يوم، وبسبب امرأة، أديت الحج لأجد حلمي. وبعد سنوات عديدة جعلتني المرأة ذاتها أنطلق ثانية، هذه المرة لأجد الرجل الذي تاه في الطريق.

أما الآن فقد أخذت أفكّر بكلّ شيء إلا بالأشياء المهمة: أدندن لحناً في داخلي، أتساءل لماذا لا توجد سيارات مركونة هنا. لاحظت أن حذائي قد بدأ يهترئ، وأن ساعة يدي كانت ماتزال على التوقيت الأوروبي. وكلّ ذلك لأن امرأة، زوجتي، مرشدي، وحبّ حياتي، لم تكن تبعد عني الآن سوى بضع خطوات؛ أيّ شيء لدرء الحقيقة التي اشتقت إليها والتي أخشى مواجهتها.

جلست على الدرجات الأمامية للبيت، ورحت أدخّن سيجارة. ورحت أفكّر بالعودة إلى فرنسا. لقد وصلت إلى هدفي، فلماذا أتابع مشواري؟

نهضت. كانت ساقاي ترتعشان. وبدلاً من أن أبدأ رحلة العودة رحت أنفض الرمل عن ثيابي ووجهي بقدر ما أمكنني، وأمسكت مقبض الباب، ودخلت.

مع معرفتي بأني ربما فقدت المرأة التي أحبها إلى الأبد، يجب أن أحاول أن أتمتع بكلّ النعم التي أسبغها عليّ الله اليوم. لا يمكن تكديس النعم. لا توجد بنوك يمكن إيداعها فيها كي أستخدمها عندما أشعر بسلام أكثر مع نفسي. وإذا لم أستفد من هذه البركات جيداً، فإني سأخسرها إلى الأبد.

يعلم اللّه أننا جميعنا فنانون في الحياة. وقد أعطانا يوماً مطرقة لننحت بها، وأعطانا في يوم آخر فراشٍ وألواناً لنرسم بها لوحة، أو ورقة وقلم رصاص لنكتب بها. لكنك لا تستطيع أن ترسم لوحة بمطرقة، أو تنحت بفرشاة. لذلك، مهما بلغت الصعوبات بي، يجب أن أقبل بركات اليوم الصغيرة، حتى لو بدت مثل لعنات لأني أعاني واليوم جميل، والشمس مشرقة، والأطفال يغنّون في الشارع. وهذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكنني أن أنسى فيها ألمي وأعيد بناء حياتي.

كان الضوء يغمر الغرفة. عندما دخلت نظرت إلى الأعلى وابتسمت، ثم واصلت قراءة «وقت للفتق ووقت للرتق» للنساء والأطفال الجالسين على الأرض حولها والأقمشة الملوّنة تحيط بهم. عندما توقّفت إستر عن القراءة أخذت النساء يعدن ترديد الكلمات، وعيونهن على عملهن.

أحسست بغصة في حلقي، بذلت ما بوسعي كي لا أبكي، ثم لم أعد أشعر بشيء. وقفت أتمعن المشهد فقط، أسمع كلماتي على شفتيها، تحيطني الألوان والضوء والناس الذين كانوا يركّزون كليّة على ما كانوا يفعلون.

في كلمات حكيم فارسي: الحبّ مرض لا يريد أحد أن يبرأ منه. فالذين يصابون به لا يحاولون أن يصبحوا أفضل حالاً، والذين يعانون منه لا يريدون الشفاء منه.

أغلقت إستر الكتاب. رفعت النساء والأطفال أبصارهم ورأوني.

«سأخرج وأتمشى مع صديق لي وصل الآن»، قالت للمجموعة. «لقد انتهى الدرس اليوم».

ضحكوا جميعهم وانحنوا. جاءت وقبّلت خدي، وشبكت ذراعها بذراعي، وخرجنا.

قلت: «مرحباً».

قالت: «كنت أنتظرك».

طوقتها بذراعيّ. اسندت رأسي على كتفها، وأجهشت بالبكاء. مسّدت شعري، وبالطريقة التي لمستني فيها بدأت أفهم ما لم أكن أريد أن أفهمه، وبدأت أقبل ما لم أكن أريد أن أقبله.

«لقد انتظرتك بشتى الوسائل»، قالت، عندما رأت دموعي بدأت تخفّ. «مثل زوجة بائسة تعرف أن زوجها لم يفهم حياتها، وأنه لن يعود إليها أبداً، ولذلك لم يعد أمامها من خيار سوى أن تأخذ الطائرة وتعود، لتترك مرة أخرى بعد الأزمة التالية، ثم تعود وتغادر وتعود...».

سكنت الريح. كانت الأشجار تنصت إلى ما كانت تقوله.

«انتظرت كما انتظرت بينيلوب وعوليس، كما انتظر روميو وجوليت، كما انتظرت بياتريس ودانتي. كانت البادية الخاوية مليئة بالذكريات عنك، عن الأوقات التي أمضيناها معاً، البلدان التي زرناها، سعادتنا ومعاركنا. ثم نظرت إلى الوراء إلى الأثر الذي خلّفته آثار قدمّي ولم أستطع أن أراك.

«لقد عانيت الكثير. أدركت أني انطلقت في درب لا رجعة فيه، وأنه عندما يفعل المرء ذلك لا يستطيع إلا أن يواصل سيره. ذهبت إلى البدوي الذي التقيت به من قبل، وطلبت منه أن يعلّمني أن أنسى تاريخي الشخصي، وأن يجعلني انفتح على الحبّ الموجود في كل مكان. وعلى يده بدأت أتعلم عادات التينغري. وذات يوم نظرت إلى جانبي ورأيت ذلك الحبّ ذاته منعكساً في عينيّ شخص آخر، في عينيّ رسّام يدعى دوس».

لم أقل شيئاً.

«كنت ماأزال مكدومة جداً. لم أكن أصدق أنه من الممكن أن أحبّ مرة أخرى. لم يقل الكثير؛ علّمني اللغة الروسية وقال إنهم يستخدمون في البادية كلمة «أزرق» لوصف السماء حتى لو كانت رمادية، لأنهم يعرفون أن السماء زرقاء دائماً فوق الغيوم. أخذني من يدي وساعدني في عبور تلك الغيوم. علّمني أن أحبّ نفسي بدلاً من أن أحبه. أراني أن قلبي كان في خدمة نفسي وفي خدمة الله، وليس في خدمة الآخرين.

«قال إن ماضيّ يرافقني دوماً، لكني كلما حرّرت نفسي من الحقائق أكثر، وركّزت على العواطف، أدركت أنه يوجد دائماً في الحاضر فضاء واسع كالبادية ينتظر كي يُملأ بمزيد من الحبّ وبمزيد من بهجة الحياة.

«وأخيراً أوضح لي أن المعاناة تحدث عندما نريد أن يحبّنا

الآخرون بالطريقة التي نتصور أننا نريد أن نُحبّ بها، وليس بالطريقة التي ينبغي فيها للحبّ أن يعبر عن نفسه ـ حراً وغير مقيّد، يوجّهنا بقوته ويدفعنا إلى الأمام».

نظرت إليها.

«وهل تحبينه؟».

«نعم».

«وهل ما زلت تحبينه؟».

«ماذا تظن؟ إذا كنت أحبّ رجلاً آخر وقيل لي إنك ستصل قريباً، فهل تظن أني سأظل هنا؟».

«لا، لا أظن. أظن أنك كنت تنتظرين طوال الصباح كي يُفتح الباب».

«إذن لماذا تسأل أسئلة سخيفة؟».

قلت في نفسي لأني لا أشعر بالأمان. لكن كان من الرائع حقاً أنها حاولت أن تجد الحبّ ثانية.

«إني حامل».

لثانية بدا أن العالم سقط فوقي.

«من دوس؟».

«لا. شخص كان قد مكث فترة من الزمن ثم غادر».

ضحكت، رغم أن قلبي كان يتحطم.

«حسناً، أظن أنه لا يوجد الكثير يمكننا أن نفعله في بلدة الحصان الواحد هذه»، قلت.

«حتى من الصعب أن تسمى بلدة الحصان الواحد»، أجابت، وهي تضحك أيضاً.

«لكن لعله قد آن الآوان للعودة إلى باريس. لقد اتصلت الصحيفة التي تعملين فيها وسألتني إن كنت أعرف مكان وجودك. كانوا يريدون أن تكتبي تقريراً عن دورية لمنظمة حلف شمال الأطلسي في أفغانستان، لكنك ستقولين لا».

«لماذا؟»

«لأنك حامل! بالتأكيد لا تريدين أن تعرّضي الطفل إلى طاقة الحرب السلبية».

«الطفل؟ لا تظن أن الطفل سيوقفني عن العمل. بالإضافة إلى ذلك، لماذا عليك أن تقلق؟ إذ إنك لم تساهم فيه».

«لم أساهم؟ فبفضلي جئت إلى هذا المكان في المقام الأول. أم أن هذا غير محسوب؟».

تناولت قطعة القماش الملطّخة بالدم من جيب ثوبها الأبيض وأعطتني إياها، وعيناها مغرورقتان بالدموع.

«هذه لك. لقد اشتقت إلى مجادلاتنا».

ثم، وبعد لحظة صمت، أضافت:

«اطلب من ميخائيل أن يأتي بحصان آخر».

وضعت يديّ على كتفيها وباركتها كما كنت قد بوركت.

ملاحظة المؤلف

لقد كتبت *الظاهر* في الفترة بين كانون الثاني وحزيران من العام 2004، فيما كنت أحجّ في أطراف هذا العالم. وقد كتبت أجزاء من هذا الكتاب في باريس وسان مارتن بفرنسا، وفي مدريد وبرشلونة بإسبانيا، وفي أمستردام، وفي طريقي إلى بلجيكا، وفي آلماآتا وفي بادية كازاخستان.

وأودّ أن أشكر ناشريّ الفرنسيين، آن وألين كارير، اللذين قاما بتدقيق كلّ المعلومات المتعلقة بالقانون الفرنسي الواردة في الكتاب.

وكنت قد قرأت عن بنك ردّ الجميل للمرة الأولى في كتاب (The Bonfire of the Vanities) لتوم وولف. وتستند القصة التي تحكيها إستر عن فريتز وهانز إلى قصة إسماعيل لدانيال كوين. أما الصوفي الذي ذكرته ماري حول أهمية أن تظل متيقظاً فهو «كنان رفاعي». ومعظم ما قالته «القبيلة» في باريس كان قد حدثني به شبان ينتمون إلى هذه الجماعات. ويعرض بعضهم أفكارهم على شبكة الإنترنت، لكن من المستحيل تحديد مؤلفها بدقة.

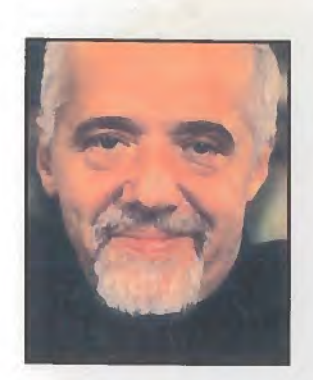
والسطور التي تعلّمتها الشخصية الرئيسية عندما كان طفلاً ويتذكّرها عندما كان في المستشفى («عندما يصل الضيف غير المرغوب فيه...».) مأخوذة من قصيدة كونسوادا للشاعر البرازيلي مانويل بانديرا. وتستند بعض الملاحظات التي أعربت عنها ماري

بعد الفصل الذي تذهب فيه الشخصية الرئيسية إلى المحطة لمقابلة الممثل الأمريكي إلى حديث مع الممثلة السويدية أغنيتا سغودين. ويرد مفهوم أن ينسى المرء تاريخه الشخصي، الذي هو جزء من العديد من تقاليد التلقين، بوضوح في «الرحلة إلى إكستلان» لكارلوس كاستانيدا. وقد وضع قانون جانت الكاتب الدانمركي أكسيل سانديموزي في روايته «Fugitive Crossing His Tracks»

وأتاح لي صديقان الشرف بأن يكونا صديقيّ وهما ديميتري فوسكوبوينيكوف وإيفجينيا دوتسوك، وجعلا زيارتي إلى كازاخستان ممكنة.

وفي آلماآتا، قابلت إمانغالي تاسماغامبيتوف، مؤلف كتاب «The Centaurs of the Great Steppe» وخبير في ثقافة الكازاخستانيين، الذي زوّدني بمعلومات هامة وكثيرة عن الأوضاع السياسية والثقافية في كازاخستان في الماضي والحاضر. وأود أن أشكر أيضاً رئيس جمهورية كازاخستان، نور سلطان نظارباييف، لترحيبه بي، وأودّ أن أنتهز هذه الفرصة لتهنئته من أجل وقف الاختبارات النووية في بلاده، رغم وجود جميع أنواع التكنولوجيا اللازمة هناك، وللقرار الذي اتخذه بتدمير ترسانة كازاخستان النووية برمتها.

وأخيراً، أدين للكثير من خبراتي السحرية في البادية لرفاقي الثلاثة الصبورين جداً: قيصر أليمكولوف، ودوس (دوسبول كاسيموف)، وهو رسّام موهوب جداً، والذي استمديت منه الشخصية التي تحمل ذات الاسم الذي يظهر في نهاية الكتاب، وماري نيمروفسكايا، التي كانت في البداية مجرد مترجمة ثم سرعان ما أصبحت صديقتي.





«وفق ماذكره الكاتب خورجي لويس بورخيس، برزت فكرة «الظاهر» من التراث الإسلامي، ويعتقد بأنها ظهرت خلال القرن الثامن عشر. وهي تعني باللغة العربية الشيء الظاهر، المرئي، الحاضر، الجليّ الذي لايخفى على عين، وهو إما أن يكون شخصاً أو شيئاً. وماأن نتصل به، أو نصبح على تماس معه، حتى يستحوذ علينا، ولانعود نفكّر بشيء سواه. ويمكن اعتبار ذلك حالة قدسية، أو ضرباً من الجنون».

لقد قام الكاتب باولو كويلهو بصياغة نصه الروائي «الظاهر» متماهياً مع هذه الفكرة، وهذا الاستحواذ الذي يقودنا على امتداد النص العابق بصوفية خاصة، أبدع بها الكاتب في نصوص سابقة قرأناها له.